

الكتاب: الشفاء الروحي
المؤلف: عبد اللطيف البغدادي
الجزء:
الوفاء: معاصر
المجموعة: الأخلاق
تحقيق:
الطبعة:
سنة الطبع:
المطبعة:
الناشر:
ردمك:
ملاحظات:

لبعض الشعراء
كتابته وإن فنيت يداه يسرك في القيامة أن تراه.
وما من كاتب إلا سبقى فلا تكتب بكفك غير شيء.
العقد الفريد ج ٢ ص ٢٠٨
الإهداء

إيكم يا هداة العباد.
إيكم يا من جاهدتم في الله حق الجهاد.
إيك يا رسول الله وإلى أهل بيتك الطاهرين.
إيكم جميعاً أرفع هذا المجهود المتواضع وهو عنوان
ولائي الخالص لكم راجياً التفضل علي بالقبول وهو حسبي.
المؤلف

آيات افتتاحية من الذكر الحكيم
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم
(ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون (١٨) إنهم لن
يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين (١٩) هذا
بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون (٢٠) أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن
نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون
(٢١))

[الجاثية / ١٩ - ٢٢]

دعاء افتتاحي

بسم الله الرحمن الرحيم
اللهم إنك أعنتني على ختم كتابك الذي أنزلته نورا، وجعلته مهيمنا على كل كتاب
أنزلته، وفضلته على كل حديث قصصته، وفرقانا فرقت به بين حلالك

وحرامك، وقرآنا أعربت به عن شرائع أحكامك، وكتابا فصلته لعبادك تفصيلا، ووحيا أنزلته على نبيك محمد صلواتك عليه وآله تنزيلا، وجعلته نورا نهدي من ظلم الضلالة والجهالة باتباعه، (وشفاء لمن أنصت بفهم التصديق إلى استماعه)، وميزان قسط لا يحيف عن الحق لسانه، ونور هدي لا يطفأ عن الشاهدين برهانه، وعلم نجاة لا يضل من أم وقصد سنته، ولا تنال أيدي الهلكات من تعلق بعروة عصبته.
اللهم فإذ أفدتنا المعونة على تلاوته، وسهلت جواسي ألسنتنا بحسن عبارته، فاجعلنا ممن يرعاه حق رعايته ويدين لك باعتقاد التسليم لمحكم آياته، ويفزع إلى الإقرار بمتشابهه وموضحات بيناته... الخ. (١)

(١) بداية دعاء ختم القرآن للإمام زين العابدين (ع) من أدعية الصحيفة السجادية، راجعه مع شرحه في شرح الصحيفة السجادية للعلامة السيد محمد الشيرازي، ص ٣١٣ - ٣٣٠.

المقدمة

تفضل علينا بهذه المقدمة الرائعة سيدنا الجليل العلامة الأديب النسابة السيد عبد الستار الحسيني فشكرا له غير مجدوذ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذي أنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، وكشف من محكمات بيناته ما بهر به أساطين الحكمة وسلاطين الفطنة فظلت أعناقهم لها خاضعة، وأزكى صلواته وأسنى تحياته على من خصه ب (المقام المحمود) و (اللواء المعقود) واصطفاه نبيا وآدم بين الماء والطين، وعلى آله أمناء دار الفناء وشفعاء دار البقاء الذين جعلهم سبحانه (أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون).

أما بعد: فإن من أعظم النعم وأجل المنن على (العبد) أن يهبه (اللطف الخبير) تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه (علما نافعا) يقرن به (عملا صالحا) مع إيمان صادق يكونان ل (مفهومه) (المصدق) الناطق، وإن من أظهر مصاديق من جمع له المولى تعالى جده بين هاتين النعمتين

وزينه بتينك الفضيلتين اللتين هما (نتيجتا) (مقدمتي) الإيمان والإخلاص هو مولانا وشيخنا العلامة الجليل والباحث الأصيل الكاتب الإسلامي النادر المثل، الجواله في فداقد البحوث والأنظار، البارع المتكلم النظار الأستاذ الشيخ عبد اللطيف البغدادى - لا زال عاطر ذكره الشريف حديث الرائح والغادى وما عسى أن يقول فيه القائل وهذه آثاره العتيدة ناطقة بلسان حالها.

فإن وجدت لسانا قائلا فقل.

ولقد وجدت مجال القول ذا سعة.

أجل: لقد قدم شيخنا المفضال للمكتبة الإسلامية من بحوثه القيمة ودراساته الجادة المتسمة بالدقة والرصانة المتشحة بالصدق والأمانة ما أضحى غرة شادحة في جبهة مجده المؤثل و (درة يتيمة) في عقده المفصل، وهو أدام الله مجده وأعلى سعده ما برح جليس كتاب وجليس محراب، وأما الخطابة فهو اليوم في بغداد واحدها بل أو حدها فما أحرأه أن يكون المخاطب بما قال الأديب المتقدم:

لتلقيك رحيبا منك أم ضمخ طيبا؟..

شرح المنبر صدرا أترى ضم خطيبا.

وإنك لتراه في كل ما كتب واطر من مصنفات متين الحجة، صادق اللهجة، شديد المنة، قوي العارضة، مستحضر الدليل، بارع الإلزام مجانبا (للدلالة الخطابية) وإن كان خطيبا يأخذك في منهج سديد لا عوج فيه ولا أمت إلى حيث المهيع اللاحب الصوي الآمن العثرات لتصل حبلك بالعروة

الوثقى وتعتصم بسفن النجاء ونجوم الاهتداء محمد وعترته الطاهرة صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.
ومن آخر ما طلع به علينا وليس آخره إن شاء الله تعالى هو كتابه النفيس: (الشفاء الروحي والجسمي في القرآن) وهو الحلقة الثامنة من سلسلته القيمة الإسلام وأتباع أهل البيت (١) واسمه يدل على مسماه ويرشدك إلى فحواه.
قرأ علي شيخنا المؤلف جملة من فصوله ثم ناولنيه فأنا أرويه عنه (سماعا) و (مناولة) وقد عرض فيه طائفة من الأدوية الدوية وشرح أضرارها على الفرد والمجتمع مستهديا بآيات الكتاب الحكيم والسنة المطهرة من أقوال المعصومين عليهم السلام ومستقريا أحوال الأمم في حدود الإمكان مع براعة في العرض ومهارة في الاستنتاج وربط دقيق في اتصال المواضيع بأحكامها بما لا يتأتى نظيره إلا لذي النظر الصائب والفكر الثاقب والألمعية الوقادة والذهنية النقادة، ثم ذكر بإزاء كل داء من تلكم الأدوية الروحية العلاج الناجح والدواء النافع لمكافحة هاتيك الأمراض القاتلة، وقد وفق دام توفيقه إلى التهدي إلى محاسن خصائص التشريع الإسلامي السامي والوقوف على مناجمها المترعة بالحكم.

(١) الحلقات الصادرة من السلسلة (الإسلام وأتباع أهل البيت ")

١ - قبس من القرآن ٢ - حول الصلاة والجمع بين فريضتين

٣ - الحقائق الكونية ج ١ ٤ - الحقائق الكونية ج ٢

٥ - الصلاة على النبي وآله في الميزان ٦ - الرجعة على ضوء الأدلة الأربعة

٧ - فاطمة والمفضلات من النساء ٨ - هذا الكتاب (الشفاء الروحي والجسمي في القرآن).

والأسرار فعرضها بأسلوب واضح، مشرق العبارة، لطيف الإشارة سديد اللهجة، ذكي
النسمات، وضئ القسمات،
وألفاظه زائئات المعاني.

تزين معانيه ألفاظه.

فهذا السفر المبارك - كسائر مؤلفاته - شاهد عدل لما يتمتع به الأستاذ المؤلف من
طول الباع وسعة الاطلاع والصبر المتناهي على مراجعة نواذر المصادر وأمهاات
المراجع مع ضيق المجال وتراكم الأشغال من إمامة جماعة أو ارتقاء منبر أو أداء
واجب أو استقبال ضيف كما يعرف ذلك جيداً المثافنون له، ولا أخالني فيما أشرت
إليه بنحو (اللجة الدالة) من مزايا المؤلف والمؤلف بالمبالغ أو المتزيد فالكتاب يعرب
عن فضل كاتبه ويشهد لنفسه بنفسه وبدلالة الالتزام لمؤلفه الجليل دامت إفاضاته وهو
خير معرف بخصائصه ومزاياه وأصدق مخبر عن حقيقته وفحواه (سبوح لها منها عليها
شواهد) فإليك أيها القارئ هذه الهدية الكريمة يزفها أبو محمد سلمه الله تعالى فقف
عليها وأستجل محاسنها وقديما قيل (من ذاق عرف) حفظ الله شيخنا ووفقه لمتابعة
جهوده وجهاده في نشر المعارف الإسلامية الراقية وإرشاد المجتمع الإسلامي، بل
النوع الإنساني إلى سبيل الحق ومنهج الرشاد باتباع الكتاب الحكيم وهدى النبي
الكريم والعترة الطاهرة (لمثل هذا فليعمل العاملون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون)،
والله الموفق للصواب.

حرره الراجي عفو ربه الغني

عبد الستار الحسيني

بسم الله الرحمن الرحيم
أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم
(ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا)
[الإسراء / ٨٢]
البحث الأول: -

مقدمة بحوث الآية الشريفة
تتضمن هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء على جملة بحوث في العقائد والعبادات والأخلاق والصحة وغير ذلك مما يسعد الإنسان في الدارين روحا وجسما.
نذكرها إن شاء الله بعد أن نعلم ونتذكر ما نعلم أن كل إنسان في الدنيا مكون من عنصرين، عنصر مادي ينمو ويتحرك وهو الجسم أي الهيكل الجسمي للإنسان من رأسه إلى قدمه.

ولهذا الجسم حاجيات يحتاجها ويتوق إليها وبها قوامه ونموه ودوام بقائه إلى حين
أجله الأخير المؤجل له (١)
وعنصر جوهرى - أي برىء من المادة - مكون منه الإنسان أيضا وهو النفس الإنسانية
(٢) المسماة بالروح، ولها مظاهر خاصة بها تدل على وجودها في هذا الجسم وهي
كثيرة إذ هي التي جعل الله تعالى لها قوة الإدراك والشعور والتي منها العقل والتفكير.
يقول بعض الأدباء: (٣)
وزن الأمور وعقلك الميزان.
فكر فإنك قد خلقت مفكرا.
ويعني به كما أن الميزان تزن به الأشياء فتعرف خفتها من ثقلها كذلك تستطيع أن
تعرف محاسن النفس من مساوئها وفضائلها من رذائلها بالعقل والتفكير.
وأديب آخر شبه العقل بالمرآة، فقال وما أبدع ما قاله:
بالوهم من قبل أن يغتالك الأجل (٤)
خذ رشد نفسك من مرآة عقلك لا.

-
- (١) لنا كلام استدلالى في أجل الإنسان الذي يمضى بعد إثباته وأجله الأخير الذي يقع في هذا الكون في
كتابنا الحقائق الكونية الحلقة الثالثة ج ١ من ص ١٣٦ - ص ١٦٠.
(٢) راجع تجرد النفس عن المادة في تفسير (مواهب الرحمن) لآية الله السيد عبد الأعلى، ج ٢ ص ٨٥.
(٣) بيت من قصيدة غراء لصديقنا العلامة السيد محمد نجل العلامة الكبير السيد علي نقى الحيدري ذكرنا
بعضها في كتابنا (قبس من القرآن)، ص ٤٥.
(٤) بيت من قصيدة في المواعظ والحكم للشيخ حسن الدمستاني تجدها في (الدر النضيد)، ص ١٧٤.

ويعني كما أن المرأة تبصر بها محاسن جسمك وثيابك من عيوبها مثلاً كذلك بالعقل تعرف رشد نفسك من غيرها، ولكن يجب عليك أن تأخذ رشدها من مرآة عقلك السليم لا بالوهم والرأي السقيم.
وبعض يشبه العقل بالنور الذي تبصر به طريقك في الظلمات، كذلك تعرف بنور العقل طريق النجاة من الهلاك والحق من الباطل.
وقد جاء في حديث عن النبي (ص) أنه قال: العقل نور في القلب يفرق به بين الحق والباطل (١).

والغرض إن العقل والتفكير من مظاهر النفس وصفاتها وكذلك العلم والجهل والإرادة الخيرة أو الشريرة والعقائد الحقة أو الباطلة والعبادات والاتجاهات الصحيحة أو السقيمة والخلق الكريم أو الذميمة إلى غير ذلك من مظاهر الروح من الفرح والسرور والهم والغم والحب والبغض... الخ.

الاتصال بين الروح والجسم
وشاء الله تبارك وتعالى خالق الإنسان أن يجعل الاتصال بين هذين العنصرين الروحي والجسمي اتصالاً وثيقاً بحيث يتأثر كل واحد منهما بتأثر الآخر، مثلاً لو أن الجسم أصيب بصدمة أو مرض أو جرح في بعض أعضائه ترى أن الروح تشعر بالألم والوجع وأثر ذلك على الجسم كله لاتصال الروح به كله.
ومن هنا جاء في الحديث الشهير: مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا تألم عضو منه تداعت له سائر الأعضاء

(١) أدب الدين والدنيا للمارودي، ص ٦، ونقله عنه المحمودي في نهج السعادة، ج ٢ ص ١٨٦.

بالسهر والحمى (متفق عليه). وكذلك العكس فيما إذا حصل التأثير أولا للروح مثل تأثيرها بالهم والغم ترى أن ذلك يؤثر على الجسم فينهكه ويضعف قواه، بل أن أكثر أمراض الجسم تتكون من الهموم والغموم، ومن هنا قال إمام الحكماء علي أمير المؤمنين (ع): الهم نصف الهرم، فالهم صفة للروح والهرم صفة للجسم وحيث أن الروح تأثرت بالغم أثر ذلك أيضا على الجسم.

الروح تمرض كما يمرض الجسم

وإذا علمنا أن الإنسان مكون من روح وجسم وأن الاتصال بينهما وثيق فلنعلم ثانيا أن الأجسام البشرية كما تمرض وتفقد صحتها وتحتاج إلى العلاج عند مرضها بما يعدل انحرافها ويعيد إليها صحتها المفقودة، كذلك الأرواح فإنها تمرض أيضا بانحرافها إلى الرذائل والصفات الذميمة وتحتاج إلى العلاج عند مرضها بما يعدل انحرافها حتى تكون متصفة بالفضائل والصفات الحميدة من العقائد الحقة والعبادات الصحيحة والأخلاق الفاضلة.

ولكننا - وبالأسف - نرى الكثير والكثير من الناس إلا من عصم الله يهتمون الاهتمام البالغ الكبير بالأمراض الجسمية ولا يهتمون أدنى اهتمام بالأمراض الروحية في حين - لو فكرنا جيدا لعلمنا - أن الإنسان إنسان بروحه لا بجسمه فحينما يحدث الإنسان عن نفسه فيقول: أنا، قطعاً يقصد نفسه المتصفة بصفاتنا الخاصة بها من العقل والتفكير والإرادة وما إلى ذلك من صفاتها الأخر وإذا كان ذلك كذلك إذا لم يهتم - على

الأقل - لأمراض روحه كما يهتم لأمراض جسمه، وإلى ذلك يشير الشاعر المعروف بأبي الفتح البستي حيث يقول مخاطبا الإنسان:
أتطلب الربح مما فيه خسران فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان (١).
يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته أقبل على النفس واستكمل فضائلها.
وعلى كل الروح تمرض كما يمرض الجسم ويحتاج كل منهما إلى العلاج ولو أهمل الإنسان أمراض جسمه ولم يعالجها لعرضه ذلك الإهمال إلى الموت. وكذلك لو أهمل نفسه ولم يعالجها عند مرضها لعرضها أيضا إلى الموت لأن النفس تموت كما يموت الجسم.

معنى موت الجسم والروح
وقد أبان لنا إمام الحكماء علي أمير المؤمنين (ع) معنى موت الجسم وموت الروح حيث قال (ع) في بعض كلماته القصار: الروح حياة البدن والعقل حياة الروح. كلمة خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان، أو قل: صغيرة في ألفاظها كبيرة في معانيها: الروح حياة البدن، أي أن البدن يبصر بعينين ويسمع بأذنين وينطق بلسان ويشم بأنف ويحس بسائر جوارحه ويعقل بجنانه، كل ذلك ما دامت الروح فيه فإذا خرجت منه الروح مات فلا يبصر كما كان يبصر ولا يسمع كما كان يسمع، وهكذا بطلت جميع حواسه الخمسة بل لا يحتاج إلى كل ما كان يحتاج إليه من طعام وشراب وغيرهما.

(١) بيتان من قصيدة من غرر الشعر في الحكمة تناهز الخمسين بيتا لشاعرهما البستي تجدها مشروحة في كتاب (هداية المرشدين) للشيخ علي محفوظ (ط / ٥) ص ١٥٠.

نعم لا يحتاج البدن بعد خروج الروح منه إلا أن يقبر ويدفن وإلا يكون جيفة مؤذية، فحياة البدن إذا بالروح وموته هو إخراج الروح منه لا أكثر ولا أقل. أما حياة الروح فيقول (ع): والعقل حياة الروح، ومعنى هذا أن الإنسان إذا تخلى عن العقل وإرشاداته وتركه وراء ظهره واسترسل إلى شهوات نفسه الأمارة بالسوء باستمرار فهو إنسان ميت وإن كنت تراه يأكل ويشرب ويقوم ويقعد ويقول ويفعل ولكنه ميت الأحياء، ولقد أجاد المتنبى حيث يقول:

إنما الميت ميت الأحياء.

ليس من مات فاستراح بميت.

وقال أبو العلاء المعري:

ولكن لا حياة لمن تنادي ولكن ضاع نفخك في الرماد.

لقد أسمعت لو ناديت حيا ونار إن نفخت بها أضاءت.

وهذا المعنى أخذه من القرآن المجيد في آيات عديدة وأساليب متنوعة منها قوله تعالى:

(أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون) [النحل / ٢٢]، ومنها قوله عز من قائل

مخاطبا رسوله الأكرم (ص): (إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا

مدبرين (٨٠) وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم

مسلمون) [النمل / ٨١ - ٨٢].

ومنها قوله تعالى: (وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور) [فاطر / ٢٣].

وخلاصة معاني هذه الآيات وغيرها: كما إنك لا تسمع من في القبور من الأجسام الميتة ولا تسمع الصم المدبرين ولا تهدي العمي الضالين كذلك لا تسمع ذوي الأرواح الميتة التي تخلت عن العقل بما تهديهم به من نصائح الشرع والدين الموحى إليك.

فعلى الإنسان العاقل إذا شعر بمرض نفسه ورآها قد تغلبت عليها الرذائل من الصفات وسيطرت عليها الشهوات أن يعالجها بالسرعة الممكنة ليعيد إليها صحتها المفقودة التي كانت عليها يوم كانت سليمة من الرذائل قبل أن تموت، وحينئذ لا ينفع فيها أي علاج مهما كان نوعه ولا أي معالج مهما كان حكيما عارفا إلا من شاء الله.

الدين هو العلاج الناجح للأمراض الروحية

ولقد عالج الحكماء والفلاسفة في الشرق والغرب تلك الأدواء النفسية والأمراض الروحية بأنواع العلاجات منذ العصور الغابرة حتى اليوم ووضع علماء النفس وأساتذة التربية أحكم القوانين وأتقن النظم والقواعد - بزعمهم - لإصلاحهم فلم يفلحوا بما وضعوا ولم يجدوا لها علاجا حاسما ولم يعثروا على دواء ناجع لعلاجها سوى الدين السماوي الذي هبط على الرسل والأنبياء ليرفع هذه الإنسانية من حضيض الرذائل والجهل إلى مرتفع الفضائل والعرفان.

فإن الدين السماوي هو الذي جاء لإسعاد هذا الخلق كي يعيشوا بسلام وهناء ما داموا يعملون بقوانينه ويتبعون سبل تعاليمه وإرشاداته، أما إذا تركوا العمل به فلا يكون لهم شفاء ولا تكون لهم سعادة كالمرض في الجسم والدواء في الصيدلية والطبيب في العيادة، ولكن المريض لا يرجع إلى الطبيب ولا يستعمل الدواء فإن مرضه سوف يزداد عليه حتى يهلكه أخيراً.

ومعلوم أنه لا طبيب أدرى بأدواء النفوس من باري النفوس ولا حكيم أعلم بأسقام الأرواح من الدين الحنيف ولا عالم أعرف بطرق علاجها وأسباب شفائها من الشارع المقدس، إذا للدين أثره الفعال في تطيب الأرواح والنفوس وإن له لمعاجز باهرة في إصلاحها تفوق معاجز الطب الفنية الحديثة في مداواة الأجسام. فلقد جاء الدين الإسلامي الحنيف - الذي هو خير الأديان - أمراً بعامّة العقائد الحقّة بدلائلها والعبادات الصحيحة ببراهينها والأخلاق الفاضلة بتفاصيلها حفظاً لصحة النفوس البشرية وسعادتها ونهاياً عن كافة العقائد الباطلة والعبادات الفاسدة والأخلاق الذميمة وقاية لأرواحهم من شرورها وشقائها.

تكفل الدين بصلاح البشر روحاً وجسماً دنياً وآخرة
وكما تكفل الدين بصلاح البشر من ناحية الروح كذلك تكفل بهم من ناحية الجسم
كما سيتضح لك ذلك خلال البحوث الآتية في الآية الكريمة، فكانت في الدين حياة
البشر وسعادته وتقدمه ورقية من الناحيتين الروحية

والجسمية وفي عالمية الدنيوي والأخروي، والدليل على ذلك قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استجيئوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه - وأنه إليه تحشرون - (الأنفال / ٢٥)، أي في الآخرة. وقوله تعالى: (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة - ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون - (النحل / ٩٧)، أي في الآخرة. وقوله عز من قائل: (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا (الإسراء / ٨٣).

عزة الدين عند أهله وتضحياتهم لأجله

ولما كانت في الدين حياة البشر الحقيقية روحا وجسما دنيا وآخره لذلك كان الدين أعز - عند أهله الحقيقيين من رسل وأنبياء وأوصياء - من كل شئ بعد الله العزيز الكريم فتراهم يتحملون أنواع المكاره والصعاب لأجل إحياء دينهم، الذي به حياة أممهم، خصوصا نبينا نبي الرحمة محمد (ص) وأهل بيته الأطهار صلوات الله عليهم الذين ما اكتفوا لأجل حفظ الدين بما بذلوا من جهاد متواصل في سبيله وتلقي أنواع المحن والمصائب لإحيائه، بل ضحوا بأنفسهم العزيزة دونه كما هو معلوم من سيرتهم المباركة وتضحياتهم الغالية بالغالي والنفيس.

إذن.. فعلىنا الاقتداء بهم واتباع نهجهم في إعزاز الدين ونظمه والعمل به والموالاة لأهله المخلصين له، وقد أحسن من قال:

فاختر سبيلك أيها الإنسان لك في السماء الخالق الديان (١).
بالدين تبلغ مجدها الأوطان لا تنحرف عن منهج قد سنه.

البحث الثاني: -

القرآن كله شفاء وجميعه رحمة
قال عز من قائل: (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا
خسارا)

(من) التبعية و (من) الجنسية البيانية
في قوله تعالى: (وننزل من القرآن... (لفظة (من) وهنا ليست للتبعيض بل هي للجنس
وإليك البيان:

إن (من) تارة تدخل في الكلام ويراد بها التبعية أي أنها تشمل بعض الشيء دون
الآخر وتسمى (من) التبعية، وتارة تدخل في الكلام ويراد بها الجنس أي أنها تشمل
الجنس كله وتسمى (من) الجنسية ويقال لها أيضا (من) البيانية، وكل منهما كثيرة
الاستعمال في القرآن المجيد والسنة النبوية ولغة العرب التي أنزل القرآن بها.
مثال (من) التبعية

(١) مطلع قصيدة للعلامة السيد محمد السيد علي نقى الحيدري.

وللإيضاح نقول: مثال (من) التبعية في القرآن المجيد قوله تعالى: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا [الأحزاب / ٢٤]، وقد تكررت (من) التبعية في هذه الآية الكريمة ثلاث مرات: الأولى في قوله تعالى: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه (أي بعض المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه لا كلهم، وقوله: (فمنهم من قضى نحبه (أي بعضهم قضى نحبه، وقوله: (ومنهم من ينتظر (أي بعضهم ينتظر. فيمن نزلت آية (من المؤمنين رجال....)

وتوضح ذلك الأحاديث التي تذكر فيمن نزلت هذه الآية الكريمة، فقد جاء في حديث روته الخاصة والعامّة أن عليا أمير المؤمنين (ع) سئل وهو على المنبر بالكوفة عن هذه الآية فيمن نزلت فقال: اللهم غفرا هذه الآية نزلت في وفي عمي حمزة وفي ابن عمي عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، فأما عبيدة فإنه قضى نحبه شهيدا يوم بدر وأما عمي حمزة فإنه قضى نحبه شهيدا يوم أحد، وأما أنا فانتظر أشقاها يخضب هذه من هذا وأشار إلى لحيته ورأسه، عهد عهده إلي حبيبي أبو القاسم (ص) (١). وفي حديث آخر روته أيضا الخاصة والعامّة عن ابن عباس وعن الإمامين الباقر والصادق (ع) أنهم قالوا: قال علي (ع): كنا عاهدنا الله ورسوله أنا وحمزة وجعفر وعبيدة بن الحارث على أمر ووفينا به لله ورسوله (ص)

(١) (الصواعق المحرقة) لابن حجر ص ٨٠ و (الفصول المهمة) لابن الصباغ المالكي ص ١١٣ و (نور الأبصار) للشبلنجي الشافعي ص ٩٨ ونقله عنهم السيد مرتضى الفيروز آبادي في (فضائل الخمسة) ج ١ ص ٢٨٧.

فتقدمني أصحابي وخلفت بعدهم فأنزل الله سبحانه وتعالى فينا: (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه) وهم حمزة وجعفر وعبيدة، (ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا)، أنا والله المنتظر وما بدلت تبديلا (١).
والجدير بالذكر أن هذه الآية وإن نزلت في أفراد من سادات المؤمنين وهم علي وحمزة وعبيدة وجعفر أو فيهم وفي أفراد آخرين من شهداء يوم أحد - علي ما في بعض الروايات - ولكنها تجري بعدهم فيمن كان على شاكلتهم من أصحاب الإيمان العميق الثابت والتضحية في سبيل الله والوفاء بعهده حتى يقضي نحبه على ذلك دون غيرهم من سائر المؤمنين، فالآية الكريمة نزولها وجريانها - إلى يوم القيامة - في بعض المؤمنين لا جميعهم ولذلك استشهدنا بها لبيان ما تضمنته من ذكر (من) التبعية ودلالة تكرارها ثلاث مرات.

مثال (من) الجنسية البيانية

أما مثال (من) الجنسية في القرآن المجيد قوله تعالى: (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور) [الحج / ٣١] فقد أمرنا الله تعالى في هذه الآية الكريمة أولا أن نجتنب الرجس، ثم أبان لنا المراد من هذا الرجس في الآية فقال: (من الأوثان) (فمن) ههنا بيانية جنسية يراد منها جنس الأوثان وهي الأصنام والمعنى اجتنبوا الأوثان لأنها رجس.

(١) راجع (ينابيع المودة) للشيخ سليمان الحنفي باب ٢٣ ص ٩٦ نقلا عن الحافظ أبي نعيم عن ابن عباس وعن الإمامين الباقر والصادق (ع) وأشار إليها علي بن عيسى الأربلي في (كشف الغمة) ج ١ ص ٣٠٨ والشيخ محمد حسن المظفر في (دلائل الصدق) ج ١ ص ١٦٤، وغيرهم كثير.

وفي ذكره نفس الأوثان دون عبادتها والتوجه إليها والتقرب بها مع أن الاجتناب إنما يتعلق - على الحقيقة - بالأعمال دون الأعيان لأجل المبالغة من اجتناب عبادتها والإخلاص بالعبادة لله وحده لا شريك له وهذا مما يدل دلالة واضحة على أن (من) ههنا بيانية جنسية لا تبعيضية، كما أن من المعلوم أن الله لا يأمر باجتناب بعض الأوثان - أي عبادتها - دون بعضها الآخر بل يأمر باجتناب كافة الأوثان بكل أنواعها، ثم قال: (واجتنبوا قول الزور) وهو قول الباطل بكل أنواعه.

ومن الأمثلة القرآنية أيضا ل (من) الجنسية قوله تعالى: (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) [البقرة / ١٨٦] فإن لفظة (من) ههنا أيضا جنسية بيانية تبين لنا أن القرآن كله بينات من جنس الهدى والفرقان، لا أن القرآن بعضه فيه بينات من الهدى وبعضه لا بينات فيه ولا هدى بل كله بينات للهدى والفرقان الذي يفرق فيه بين الحق والباطل، وهكذا قوله تعالى في الآية المبحوث عنها (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) (فمن هنا جنسية بيانية تبين لنا أن القرآن كله شفاء وجميعه رحمة للمؤمنين لا أن بعضه يكون شفاء ورحمة وبعضه لا يكون.

آيتان أخريان تذكران أن في القرآن الشفاء وهناك آيتان أخريان تذكران أن القرآن قد جعله الله شفاء، فالأولى في سورة فصلت وهي صريحة في أن القرآن هدى وشفاء للمؤمنين وهي قوله تعالى: (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم

وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد [فصلت / ٤٥]، أي إن الذين لا يؤمنون بالله وآياته في آذانهم وقر وهو الثقل في الأذن أو فقدان للسمع فلا يسمعون نصائحه وما تضمنه من هدى وشفاء وهو عليهم عمى أي كأنهم عميان لا يبصرون ما به من الهدى والشفاء وأن أولئك الذين لا يؤمنون كأنهم ينادون من مكان بعيد لذلك لا يسمعون.

والآية الأخرى في سورة يونس وهي تصف ما جاء من الله في القرآن بأنه موعظة وشفاء لما في الصدور أي في النفوس وأنه هدى ورحمة للمؤمنين حيث قال عز من قائل: (يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) [يونس / ٥٨] فعبرت هذه الآية الشريفة عن القرآن بأنه موعظة وشفاء وهدى ورحمة.

الأحاديث التي تنص أن القرآن فيه الشفاء وأما الأحاديث والأخبار الواردة عن النبي (ص) وعلي وسائر أهل البيت " في مدح القرآن وما تضمنه من المنافع والتي منها الشفاء، فهي كثيرة، منها:
١ - ما ورد عن النبي (ص) أنه قال: القرآن مأدبة الله فتعلموا مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن هو جبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع فاقرأوه فإن الله عز وجل يؤجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إنني لا أقول (ألم) حرف واحد... ولكن ألف ولام وميم ثلاثون حسنة (١).

(١) المأدبة ما يصنع من الطعام المنوع للمدعوين وكون القرآن مأدبة الله أي فيه الغذاء المنوع للإنسان روحاً وجسماً، وقد دعانا الله إليه فعلياً أن نتعلمه. راجع الحديث في (البحار) للمجلسي ج ٩٢ ص ١٩ نقلاً عن (جامع الأخبار).

٢ - وقال (ص): أن هذا القرآن هو النور المبين والحبل المتين والعروة الوثقى والدرجة العليا والشفاء الأشفى والفضيلة الكبرى والسعادة العظمى من استضاء به نوره الله ومن عقد به أموره عصمه الله ومن تمسك به أنقذه الله ومن لم يفارق أحكامه رفعه الله ومن استشفى به شفاه الله ومن آثره على ما سواه هداه الله ومن جعله شعاره ودثاره أسعده الله ومن جعله إمامه الذي يقتدي به ومعوله الذي ينتهي إليه آواه الله إلى جنات النعيم والعيش السليم... الخ (١).

٣ - وقال (ص): من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله (٢).

٤ - وقال أمير المؤمنين (ع) في بعض خطبه الطوال بعد ذكر بعثة النبي (ص): ثم أنزل عليه الكتاب نورا لا تطفأ مصابيحها وسراجا لا يخبو توقده وبحرا لا يدرك قعره ومنهاجا لا يضل نهجه وشعاعا لا يظلم ضوؤه وفرقانا لا يخمد برهانه وتبيانا لا تهدم أركانه وشفاء لا تخشى أسقامه وعزا لا تهزم أنصاره وحقا لا تخذل أعوانه، فهو معدن الإيمان وبحبوحته وينابيع العلم وبحوره إلى أن قال:

(ودواء ليس بعده داء ونورا ليس معه ظلمة وحبالا وثيقا عروته ومعقلا منيعا ذروته وعزا لمن حاج به وحاملا لمن حملة ومطية لمن أعمله وآية لمن توسم وجنة لمن استلأم - أي إنه كالجنة الحافظة لمن إدرع ولبس لآمة الحرب - وعلمنا لمن وعى وحديثا لمن روى وحكما لمن قضى... الخ (٣).

(١) (البحار) ج ٩٢ ص ٣١ نقلا عن التفسير للإمام الحسن العسكري (ع)، ص ٢٠٣ - ٢٠٤.
(٢) راجع تفسير (الكشاف) للزمخشري ج ٢ ص ٦٩٨.
(٣) (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٥٦٦، و (البحار) للمجلسي ج ٩٢ ص ٣٢، نقلا عن النهج.

٥ - وقال (ع) في خطبة أخرى: وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب واستشفوا به فإنه شفاء الصدور وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص وإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله بل الحجة عليه أعظم والحسرة له ألزم وهو عند الله ألوم (١).

٦ - وقال (ع) في خطبة أخرى: واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش والهادي الذي لا يضل والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى أو نقصان من عمى، واعلموا إنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ولا لأحد قبل القرآن من غنى فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على لأوائكم - أي شدتكم - فإن فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغى والضلال، فاسألوا الله به وتوجهوا إليه بحبه ولا تسألوا به خلقه أنه ما توجه العباد إلى الله تعالى بمثله، واعلموا أنه شافع ومشفع وقائل مصدق وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة صدق عليه... الخ (٢).

٧ - وقال (ع) في خطبة أخرى: عليكم بكتاب الله فإنه الجبل المتين والنور المبين والشفاء النافع والعصمة للمستمسك والنجاة للمتعلق، ولا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعب ولا تخلقه كثرة الرد وولوج السمع (٣).
من قال به صدق ومن عمل به سبق... الخ (٤).

(١) (شرح النهج) ج ٢ ص ٢٣٧.

(٢) (شرح النهج) ج ٢ ص ٥١٠.

(٣) أشار بهذا إلى ما صرح به النبي (ص) بقوله: كلام الله غض جديد طري.. الخ. راجع كتابنا (القبس) ص ٣٤٤.

(٤) (شرح النهج) ج ٢ ص ٤٦١، و (البحار) ج ٩٢ ص ٢٣.

٨ - وروى الكليني في (الكافي) بسنده عن أبي جعفر الباقر (ع) أنه قال: قرأ القرآن ثلاثة، رجل قرأ القرآن فأتخذه بضاعة واستدر به الملوك واستطال به على الناس، ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيع حدوده وأقامه إقامة القدح فلا كثر الله هؤلاء من حملة القرآن، ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه فأسهر به ليله وأظمأ به نهاره وقام به في مساجده وتجافى به عن فراشه، فبأولئك يدفع الله العزيز الجبار البلايا وبأولئك يدبيل الله من الأعداء وبأولئك ينزل الله الغيث من السماء، فوالله لهؤلاء في قراءة القرآن أعز من الكبريت الأحمر (١).

استخلاف النبي (ص) القرآن والعترة علي أمته
والقرآن هو الذي خلفه النبي (ص) علي أمته من بعده مع العترة الطاهرة علي ما جاء في أحاديث الثقلين والخليفتين المتواترة من طرق الخاصة والعامة حيث قال (ص): إني تارك فيكم خليفتين كتاب الله جبل ممدود ما بين السماء والأرض - أو ما بين السماء إلى الأرض - وعترتي أهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض.
وقال أيضا (ص): إني أوشك أن أدعى فأجيب وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عز وجل وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما (٢).

(١) نقله المولى محسن الفيض في (المحجة البيضاء) ج ٢ ص ٢١٨ عن (الكافي) ج ٢ ص ٦٢٧.
(٢) وإذا أردت أن تقف على نصوص أحاديث الثقلين ومصادرها الكثيرة، راجع كتاب (محمد وعلي وبنوه الأوصياء) ج ١ من ص ١١٧ - ٢٣٩ لتعلم تواتره عند جميع المسلمين.

ولقد أجاد من قال:
في أفق هذا الكون للإسلام خير البرية منبع الأحكام بين السما والأرض جبل سلام
ولصد تيار الضلال الطامي من كل ما يخشاه من أسقام.
نوران للإرشاد شع سناهما نور الكتاب ونور عترة أحمد فهما ورب العزة الجبل الذي
فتمسكوا بهما لنيل نجاحكم فهما الشفاء لمن أراد شفاءه.
وروى العياشي في (تفسيره) عن مسعدة بن صدقة قال: قال أبو عبد الله الصادق (ع):
إن الله جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن وقطب جميع الكتب، عليها يستدير محك
القرآن وبها نوهت الكتب وبها يستبين الإيمان، وقد أمر رسول الله (ص) أن يقتدى
بالقرآن وآل محمد، وذلك حيث قال في آخر خطبة خطبها:
(إني تارك فيكم الثقلين الثقيل الأكبر والثقل الأصغر فأما الأكبر فكتاب ربي، وأما
الأصغر فعترتي أهل بيتي فاحفظوني فيهما فلن تضلوا ما تمسكن بهما... الخ) (١).
وإنما ترى قبل الآن وقبل استيلاء الضلال وسيطرته على البشرية في الكرة الأرضية
لابتعادهم عن هذين الثقلين العظيمين وعدم التمسك والاستشفاء بهما.
من كل ما يخشاه من أسقام.
فهما الشفاء لمن أراد شفاءه.

(١) (تفسير العياشي) ج ١ ص ٥٥، ونقله عنه المجلسي في (البحار) ج ٩٢ ص ١٢٧.

البحث الثالث: -
القرآن شفاء للأمراض الروحية في العقائد الباطلة
قال عز من قائل: (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا
خسارا)
علمنا مما تقدم أن القرآن كله شفاء وجميعه رحمة من تحليل وتفسير الآية الكريمة.
معنى الشفاء والرحمة
من معلوم أن الشفاء إنما يكون عن مرض ومن المعلوم أيضا أن للإنسان صحة واستقامة
روحية ومعنوية وأن له صحة واستقامة جسمية صورية وله أمراض وأدواء روحية كما أن
له أمراضا وأدواء جسمية ولكل داء دواء ولك مرض شفاء، فالقرآن فيه: الشفاء من
الأمراض الروحية كما أن فيه الشفاء من الأمراض الجسمية، ولكن حيث أن الإنسان
إنسان بروحه لا بجسمه لذلك اعتنى القرآن بالأمراض الروحية أكثر من اعتناؤه
بالأمراض الجسمية إذ أن علم الأديان مقدم على علم الأبدان، كما قد ورد: العلم
علمان علم الأديان وعلم الأبدان.
أما كون القرآن رحمة أي إنه يفيض على متبعيه ما يتمم به النقص وينور به القلب بنور
العلم واليقين ويحليه بالملكات الفاضلة والحالات

الشريفة الزاكية بعدما يغسل عنها أوساخ الهيئات الرديئة والصفات الخسيسة ومن هنا قدم الشفاء على الرحمة.

أنواع الأمراض الروحية

والأمراض الروحية في الإنسان كثيرة ومنوعة وتجمعها الاعتقادات الباطلة والعبادات الفاسدة والأخلاق الذميمة السيئة والشكوك وعدم اليقين فيما هو الصحيح فيها وغير الصحيح والاعتقادات الباطلة كثيرة بل لا عد لها ولا حصر لكثرتها، ولكن أشدها فسادا وأكثرها ضررا الاعتقادات المتعلقة بأصول الدين الخمسة من التوحيد الإلهي وعدله والنبوة والإمامة والمعاد يوم القيامة، وما يتفرع من هذه الأصول كالقضاء والقدر والجبر والاختيار وأمثال ذلك من المعارف الإسلامية في العقائد (١).
والقرآن هو كتاب الله العزيز المشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب كلها وإبطال المذاهب الباطلة فيها (٢).

تصدي القرآن الكريم لدحض الظنون التعصبية

بل تصدى القرآن الكريم لدحض كثير من الظنون والأوهام التي استولت وتغلبت على عقول أهل الأديان والتي كان منشؤها التعصب المذهبي المقيت والجهل بالحقائق الحقة والتقليد الأعمى للأسلاف كاليهود والنصارى حيث يعتقدون أن الجنة خاصة بهم دون غيرهم وأنهم هم أبناء الله وأحباؤه دون عامة الخلق فجاء القرآن الكريم داحضا لأقوالهم.

(١) راجع هذه المعارف الإسلامية وأمثالها في كتابنا الحقائق الكونية بجزأيه الأول والثاني.

ادعاء اليهود والنصارى أنهم أبناء الله والرد عليهم
يقول تعالى: (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم
بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والأرض
وما بينهما وإليه المصير) [المائدة / ١٩].
فترى في هذه الآية الكريمة أن الله قد حكى أولا قول اليهود والنصارى وادعائهم أنهم
أبناء الله وأحباؤه، وأرادوا بذلك كونهم من الله بمنزلة الأبناء من الأب لا أنهم يدعون
البنوة الحقيقية بل يريدون أن يميزوا أنفسهم ويشرفوها باختصاصهم بالقرب من الله
كما يكون أبناء الملوك مثلا بالنسبة إلى سائر الرعية مقربون عندهم، ويغضون النظر
عما يصدر منهم من الجرائم، وجاء عطف (وأحباؤه) على قوله: (أبناء الله) (كعطف
تفسير، وغرضهم من هذا الاختصاص بالبنوة المجازية والمحبوبة إثبات لازمها وهو
أنه لا سبيل إلى تعذيبهم وعقوبتهم مهما صدر منهم من أفعال وأقوال سيئة بل يكون
مصيرهم إلى النعمة والكرامة لأن تعذيبه تعالى إياهم - بزعمهم - يناقض ما خصهم به
من المزية وحباهم به من الكرامة فهم - عند أنفسهم - شعب الله المختار ولذلك جاء
الرد عليهم بالحجة ثانيا بقوله تعالى مخاطبا رسوله (ص): (قل فلم يعذبكم بذنوبكم
(أي إذا كنتم صادقين بدعواكم أنكم أبناء الله وأحباؤه إذا فما هذا العذاب الواقع عليكم
من مسخ بعضكم قردة وخنازير وضرب الذلة والمسكنة على آخرين إلى غير ذلك من
أنواع العذاب الدنيوي المشاهد في العيان وبعده في الآخرة بالنار جزاء جرائمكم من
قتلكم أنبياءه ونقضكم

موثيقه المأخوذة منكم وتحريفكم الكلم إلى غير ذلك من جرائمكم الكبيرة والكثيرة جدا.

ثم جاء بعد هذه الحجة بحجة أخرى توجيهية وواقعية بقوله تعالى: (بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء (أي إن النظر في حقيقتكم يؤدي إلى بطلان دعواكم أنكم أبناء الله وأحباؤه إذ أنكم بشر من جملة خلقه لا تمازون عنهم بشيء وإذا كان كذلك فله سبحانه أن يغفر لمن يشاء منهم ممن يستحق المغفرة ويعذب من يشاء منهم ممن يستحق العذاب طبق ميزان ما يصدر منهم من أفعال وأقوال ونوايا حسنة أو سيئة، وهو مالك الملك وإليه مصير الجميع لذا قال في خاتمة الآية: (ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير .)

ادعائهم أن الجنة خاصة بهم والرد عليهم
ومن الآيات التي جاءت داحضة لأقوال اليهود والنصارى قوله تعالى في سورة البقرة: (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين (١١١) بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ([البقرة / ١١٢ - ١١٣]).

هاتان آيتان من سورة البقرة. ففي الآية الأولى حكى الله دعواهم بأنه لا يدخل الجنة إلا اليهود والنصارى (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى (ثم ذكر أن هذه الدعوى منشؤها التمني، والتمني - كما يقال - رأس مال المفلس، ويقول الشاعر:

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

ما كل ما يتمنى المرء يدركه.

لذا قال: (تلك أمانيتهم) (أي هذا ما يتمنونه ثم طالبهم بالبرهان والدليل إذا كانوا صادقين بدعواهم، لأن الدعاوى إذا لم يقم عليها صاحبها الحجة والبرهان يضرب بها عرض الحائط ولا يصدقون بها ولا تجديهم نفعاً، لذا قال: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين).)

ثم جاءت الآية الثانية بالتوجيه الصحيح والدواء الناجع النافع فقال: (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (أي من يسلم وجهه لله خاضعاً لامثال أوامره والانتهاة عن نواهيه وهو محسن في سلوكه مع ربه ومع الناس فله أجره عند ربه دنيا وآخرة وأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ادعأؤهم النبوة لعزير والمسيح والرد عليهم

ومن الآيات التي جاءت داحضة لأقوالهم قوله تعالى: (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون) (٣٠) اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) (التوبة / ٣٠ - ٣١).

في الآية الأولى حكى الله عز وجل قول اليهود إن عزيراً ابن الله وهو الذي يسميه اليهود عزيراً، وغيرت اللفظة عند التعريب، وقول

النصارى المسيح ابن الله وهو الذي يسميه النصارى يسوع فغيرت عند التعريب. أما السبب الذي دعا اليهود إلى هذا الادعاء فهو أن عزيرا هو الذي جدد لليهود أسفار التوراة وكتبها لهم بعدما أفقدت في غائلة بخت نصر ملك بابل الذي فتح بلادهم وخرب هيكلهم وأحرق كتبهم وقتل رجالهم وسبى نساءهم وذريتهم. وعزير هذا أيضا الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه بعد الموت وأحياه وقد ألهمه الله عز وجل - بعد إحيائه - علوم التوراة فأملأها لهم عن ظهر قلب معجزة له ولكنهم قالوا: ما جعل الله التوراة في قلب رجل بعدما ذهبت إلا أنه ابنه، فقالوا: عزير ابن الله. ولعل ادعاءهم النبوة لعزير ادعاء تشريفي له لا أنه ابن حقيقي كادعائهم أنهم أبناء الله وأحبأوه.

أما السبب الذي دعا النصارى إلى القول بأن المسيح ابن الله فهو أن الله خلقه من أم فقط وهي مريم، وأجرى له معجزات تدل على نبوته ورسالته كان منها إحياءه الموتى وإبرأؤه الأكمه - أي الأعمى - وأنه يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا وكل ذلك - وغير ذلك - بإذن الله الذي هو على كل شئ قدير، ولكنهم ادعوا له النبوة التي بمعنى أن فيه من جوهر الربوبية أو هو مشتق منه أو هو هو (١).

(١) راجع عقيدة التثليث عند النصارى في كتابنا (القبس) ص ٥٠ - ٥٢.

وعلى كل فالله حكى قولهم بقوله تعالى: (وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) ثم قال: (ذلك قولهم بأفواههم) (أي إن قولهم هذا ما هو إلا لقلقة لسان لا حقيقة له ولا دليل عليه وإنما هي شبهات قد اغتروا بها وقلد اللاحق بها السابق وقد جرتهم تلك الشبهات إلى هذا الادعاء الباطل الذي لا واقع له ولا عقل سليم يرتضيه. ثم قال: (يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) (والمضاهات تعني المشاكلة والمماثلة أي إنهم بأقوالهم هذه يشابهون أقوال من تقدمهم من الأمم الكافرة، وهم الوثنيون من عبدة الأصنام، فإن من آلهتهم عندهم من هو إله وأب إله ومن هو إله وابن إله.

فالنصارى بادعائهم البنوة للمسيح يشابهون أقوال هؤلاء الكافرين الوثنيين. ثم دعا عليهم بقوله: (قاتلهم الله أنى يؤفكون) (أي لعنهم الله، والإفك هو كل مصروف عن وجهه الذي حق أن يكون عليه فمعنى يؤفكون أي إلى أي جهة يصرفون في اعتقادهم. نعم إنما يصرفون عن الحق إلى الباطل "والحق أحق أن يتبع".

اتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابا
ثم قال في الآية الثانية: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم).

الأحبار جمع حبر بفتح الحاء وكسرها وهو العالم وغلب استعماله في علماء اليهود، والرهبان جمع راهب وهو المتلبس بلباس الخشية والخوف وغلب استعماله على المتنسكين من النصارى.

والمراد من اتخاذهم الأحرار والرهبان أربابا من دون الله هو اصطفاؤهم وإطاعتهم لهم من غير قيد أو شرط في حين لا يطاع له كذلك إلا الله سبحانه أو من أمر الله بإطاعته مطلقا كالرسل والأنبياء وأوصيائهم المعصومين، قال تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) [النساء / ٦٥]، وقال: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) [النساء / ٨١]، وقال تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) [النساء / ٦٠]، وأولوا الأمر هم المعصومون كعصمة الرسول لذلك قرن أطاعتهم بإطاعة الرسول وأوجب إطاعتهم بدون قيد أو شرط، وهم الأئمة الاثني عشر من أهل بيت النبي لا غير.

أما اليهود والنصارى فقد أطاعوا أحرارهم ورهبانهم - وهم غير معصومين - بكل ما أمرهم به ولو كان ذلك مخالفا لأمر الله سبحانه. أما اتخاذ النصارى بالخصوص المسيح ابن مريم ربا من دون الله قولهم بألوهيته بنحو كما هو معروف من مذاهبهم بمعنى أن فيه شيئا من جوهر الربوبية أو هو مشتق منه أو هو هو.

وفي إضافة المسيح إلى مريم بقوله: (والمسيح ابن مريم) إشارة واضحة إلى عدم كونهم محققين في هذا الاتخاذ لكونه إنسانا ابن امرأة، ففيه إذا رد وشفاء لا دوائهم لو كانوا يفتقرون.

ولكون الاتخاذين مختلفين من حيث المعنى فصل بينهما فذكر أولا اتخاذهم الأحرار والرهبان أربابا من دون الله ثم عطف عليه قوله: (والمسيح ابن مريم) فالكلام فيه دلالة على اختلاف الربوبيتين، فالأول

المراد منه الطاعة والخضوع بدون قيد أو شرط، والثاني المراد منه أنهم جعلوا المسيح فقط ربا أي أنه من جوهره أو مشتق منه أو هو هو.

ثم جاء الرد عليهم بقوله: (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو) وهي جملة حالية، أي إنهم اتخذوا لهم أربابًا عديدين والحال إنهم مأمورون أن يعبدوا إلهًا واحدًا وهو الله لا إله إلا هو.

ولقد كان مقتضى الظاهر أن يقول: وما أمروا إلا ليتخذوا ربا واحدًا ولكنه سبحانه أراد بذلك بيان أن الطاعة المطلقة هي عبادة والمعبود المطلق هو الله وحده لا شريك له.

وفي قوله: (لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) (تتميم لكلمة التوحيد التي تضمنها قوله: (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا) إذ أن عبادة إله واحد أمر لا يتم به التوحيد إلا مع العقيدة والقول بأن لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون.

وهكذا جاء القرآن داحضا كل اعتقاد باطل وشبهة مزيفة وموجهها إلى كل ما هو حق وواقع صحيح، فهو إذا الشفاء من كل داء وهو الرحمة بكل ما للرحمة من معنى في العقائد الحققة.

الشفاء فيما جاء عن العترة الطاهرة في العقائد

وهكذا جاء عن العترة الطاهرة " من أهل بيت النبوة التي استخلفها النبي (ص) على أمته من بعده مع القرآن المجيد، جاءت أحاديثهم ومحاجاتهم داحضة أيضا لكل اعتقاد باطل وشبهة مزيفة، وموجهة إلى كل ما هو حق وواقع صحيح. وهذا باب واسع كبير بل هو بحر زاخر بأنواع الشفاء والرحمة كبحر القرآن المجيد.

وعلى سبيل المثال نذكر محاجة واحدة قصيرة من محاجات واحد من العترة الطاهرة هو الإمام أبو الحسن الرضا (ع) مع عالم كبير من علماء النصارى وهو ابن قرّة النصراني.

محاجة الإمام الرضا (ع) مع ابن قرّة النصراني
روى لنا ابن شهر آشوب في كتابه (المناقب) نقلا عن كتاب (الصفواني) إنه:
قال الإمام الرضا لابن قرّة النصراني: ما تقول في المسيح؟ قال يا سيدي أقول: إنه من الله، فقال (ع): ما تريد بقولك من الله؟ و (من) على أربعة أوجه لا خامس لها، أتريد بقولك (من) كالبعض من الكل فيكون مبعضا، أو كالخل من الخمر فيكون على سبيل الاستحالة، أو كالولد من الوالد فيكون على سبيل المناكحة، أو كالصنعة من الصانع فيكون على سبيل المخلوق من الخالق، أو عندك وجه آخر فتعرفناه؟ فانقطع (١).
تري في هذه المحاجة أن الإمام (ع) يسأل بن قرّة عن قوله في المسيح ما تقول فيه؟ يجيبه: انه من الله، في حين أن أقوالهم الثابتة على ألسنة الكثير منهم إنه ابن الله ولكن ابن قرّة هنا غير العبارة بقوله: من الله، فقال له الإمام (ع): ما تريد بقولك من الله؟ و (من) هنا على أربعة أوجه لا خامس لها، أتريد بقولك من كالبعض من الكل فيكون مبعضا أي كالرأس من بعض البدن والوجه بعض الرأس والعينان بعض الوجه مثلا،
فيعسى

(١) راجع (المناقب) لابن شهر آشوب ج ٤، ص ٣٥١.

بعض وجزء من الله تعالى الله أن يكون مبعوضا ومجزأ، وهذا المعنى لا تقول به النصارى ولا غيرهم وهو غير جائز بحكم العقل.
أو تقول: كالخل من الخمر فيكون على سبيل الاستحالة، أي أن الخل استحال إلى خمر، فالحقيقة الإلهية استحالت إلى حقيقة عيسى وزالت الحقيقة الإلهية من الله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وهذا أيضا لا تقول به النصارى ولا غيرهم وهو غير جائز بحكم العقل.

أو تقول: انه من الله كالولد من الوالد، وهو قولكم إنه ابن الله، ولا يكون ذلك إلا على سبيل المناكحة والله سبحانه وتعالى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، بل هو كما اتنى على نفسه: (لم يلد ولم يولد (٣) ولم يكن له كفوا أحد (٤)، فالقول بأنه ابن الله غير جائز بحكم العقل.

أو تقول: كالصنعة من الصانع، فيكون على سبيل المخلوق من الخالق، وهذا هو الصحيح، فعيسى مخلوق خلقه الله كما خلق غيره والله هو الخالق الصانع المتعال ولا خالق ولا صانع سواه قال تعالى: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) [آل عمران / ٦٠]، وقال تعالى: (ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) [مريم / ٢٦].

العلة في اختلاف خلق آدم وعيسى وسائر الخلق
نعم في نهاية هذا البحث ولمواصلة الشفاء بالرحمة نقول: إنا يجب أن نعلم بأن الله الواحد الأحد على كل شيء قدير وأنه لا يعجزه شيء في كيفية خلقه كيفما شاء ومن أي شيء شاء.

لذا تارة يخلق الإنسان من أبوين ذكرا وأنثى، وبهذا جرت العادة المطردة في خلق بني الإنسان. قال تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) [الحجرات / ١٤].

وحيث ان لله خوارق العادات فقد خلق آدم لا من ذكر ولا أنثى بل خلقه من طين مكون من تراب وماء ونفخ فيه من روحه فسواه بشرا. قال تعالى: (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين (٧١) فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (٧٢) فسجد الملائكة كلهم أجمعون (٧٣) إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين) [ص / ٧٢ - ٧٥].

(ومريم بنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) [التحريم / ١٣].

نفخة الروح في آدم وعيسى لا تخصهما فقط

نرى هنا ان الله قال في خلق آدم: (ونفخت فيه من روحي) (وقال في خلق عيسى: (فنفخنا فيه من روحنا)، فنسب النفختان إليه تعالى. فهل هاتان النفختان تخصان آدم وعيسى فقط؟ الجواب لا، بل ان هذه النفخة حاصلة لكل بني الإنسان، قال تعالى: (الذي أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين (٧) ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين (٨) ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) [السجدة / ٧ - ١٠].

فإذن، النفخة من روح الله لم تخص عيسى وحده حتى تجوز القول بأنه ابن الله ولا تخصه مع آدم فقط بل تعم بني الإنسان جميعا. وتارة يخلق من أبوين هرمين يائسين من الذرية كما خلق يحيى، قال تعالى حاكيا على لسان زكريا لما بشر بيحيى: (قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا (٨) قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تكن شيئا (مريم / ٩ - ١٠)).

وكذلك كانت ولادة إسحاق من أبوين هرمين إبراهيم وزوجته سارة، قال تعالى في عرض بشارة الملائكة لسارة: (وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب (٧١) قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب (٧٢) قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد (هود / ٧٢ - ٧٤)).

فهذا كله دال دلالة واضحة على قدرة الله الباهرة وإنه لا يعجزه شيء مطلقا. ويؤيد ذلك ما رواه شيخنا الصدوق في (علل الشرائع) بسنده عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله (ع): لأي علة خلق الله عز وجل آدم من غير أب وأم وخلق عيسى من غير أب وخلق الناس من الآباء والأمهات؟ فقال (ع): ليعلم الناس تمام قدرته وكمالها ويعلموا إنه قادر على أن يخلق خلقا من أنثى من غير ذكر كما هو قادر على أن يخلقه من غير ذكر ولا أنثى، وأنه عز وجل فعل ذلك ليعلم إنه على كل شيء قدير (١).

(١) راجع (علل الشرائع) ج ١ ص ١٥.

أم كيف يجحده الجاحد وفي كل تسكينة شاهد تدل على أنه واحد (١).
فواعجا كيف يعصى الإله ولله في كل تحريكة وفي كل شئ له آية.

البحث الرابع: -

القرآن شفاء للأمراض الروحية في العبادات الفاسدة: -
قال عز وجل من قائل: (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد
الظالمين إلا خسارا).

علمنا مما تقدم كيف أن القرآن شفاء من الأمراض الروحية في العقائد الباطلة، أما كونه
شفاء من الأمراض الروحية في العبادات الفاسدة فإن العبادات الصحيحة بكل معانيها
يجب أن تكون خالصة لله وحده لا شريك له إذ أن الشرك بالله وعدم الإخلاص له في
العبادة من أكبر الأدواء والأمراض النفسية للإنسان. قال تعالى مخاطبا رسوله الأكرم
(ص): (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين (٢) ألا لله الدين
الخالص (الزمر / ٣ - ٤)).

وقال تعالى في نفس السورة: (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين (الزمر /
١٢)).

(١) (مجمع البيان) للطبرسي ج ٥ ص ٤٦٧، أما الأبيات فتجدها في كتاب (حق اليقين) للسيد عبد الله شبر
ج ١ ص ٤.

العلة في وجوب الإخلاص لله بالعبادة
وإنما وجب على العبد الإخلاص لله في عبادته وعدم الشرك فيها لغيره لأن الله تعالى
هو الذي خلقنا وأوجدنا بعد العدم وأنعم علينا قبل إيجادنا وعند إيجادنا وبعد إيجادنا
بأنواع النعم التي لا تعد ولا تحصى. قال تعالى: (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها
(إبراهيم / ٣٥) و [النحل / ١٩] وهو مالكنا ولا مالك لنا غيره ثم يكون رجوعنا
أخيرا إليه وهذا معنى قولنا الذي يلزمنا أن نقوله بتدبر وإمعان، وقد حكاه الله تعالى على
لسان الصابرين من عباده في كتابه المجيد: (إنا لله وإنا إليه راجعون) [البقرة / ١٧٥].
وهذا المعنى قد حكاه الله أيضا على لسان العبد الصالح المعروف بصاحب ياسين الذي
يسميه النبي (ص) في بعض أحاديثه (حبيب النجار) (١) الذي يذكر الله قصته في
سورة (يس) بقوله: (وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون) [يس / ٢٣].
ولما كان مبدؤنا من الله ونعمنا منه وهو مالكنا دون غيره ورجوعنا أخيرا يكون إليه إذا
يلزمنا - بحكم العقل السليم - أن نخلص له في العبادة.
العلة في إيجاد الجن والأنس هي العبادة لله
هذا مع العلم أن الله سبحانه وتعالى ما أوجدنا بهذا الكون إلا لعبادته فقط، قال تعالى:
(وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدوني) [الذاريات / ٥٧].

(١) قال رسول الله (ص): " الصديقون ثلاثة ثلاثة حبيب النجار مؤمن آل ياسين الذي قال: " اتبعوا المرسلين " وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال: " أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله " وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم. رواه الكثير من الخاصة والعامة وهو حديث شهير عند الجميع.

ترى في هذه الآية الكريمة أن الله قد حصر العلة والسبب في إيجادنا بعد العدم بالعبادة له لا غير، مع أن الله غني عن عبادتنا لأنه تعالى لا تنفعه طاعة المطيعين ولا تضره معصية العاصين. قال تعالى: (إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد) [إبراهيم / ٩]، وقال بعد الآية التي ذكر فيها العلة من إيجاد الجن والأنس: (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعموني (٥٧) إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين .).
العبادة لله تعالى تكون في حدود الأحكام الخمسة

والعبادة لله معناها الطاعة له بعد معرفته ومعرفته دينه إذ العبادة بلا معرفة لا قيمة لها والطاعة لله لم يكن المقصود منها مجرد الصلاة والزكاة والحج والصوم وما شاكل ذلك من بقية الفرائض فقط، بل الطاعة لله تكون في حدود الأحكام الخمسة وهي الإتيان بالواجبات التي افترضها الله على عباده والتي إن تركها الإنسان استحق العقاب على تركها. والترك للمحرمات التي حرمها عليهم والتي إن ارتكبتها استحق العقاب على ارتكابها والإتيان بالمستحبات التي إن أتى بها الإنسان أثيب وأجر عليها وإن لم يأت بها لم يعاقب على تركها، وترك المكروهات التي ينبغي للعاقل تركها لما تشتمل عليه من بعض الأضرار وبتركها يسلم من أضرارها ويثاب أيضا على تركها، وتناول المباحات التي أباحها الله لعباده من أنواع النعم التي لا تعد ولا تحصى، فللإنسان أن يختار منها ما يشاء.

وكل ذلك يلزم أن يكون طبق حدود العقل والشرع والوقوف عندهما وبذلك يستطيع الإنسان أن يعبد الله عز وجل في مطلق تصرفاته إذا كانت تلك التصرفات في حدود العقل والشرع وبنوايا الامتثال لأمر الله والتقرب

إليه تعالى، ومن هنا قال رسول الله (ص) في وصيته لأبي ذر: يا أبا ذر ليكن لك في كل شئ نية صالحة حتى في النوم والأكل. (راجع البحار ج ٧٧ ص ٨٢، ومكارم الأخلاق للطبرسي ص ٥٤٤، والوصية بكاملها من ص ٥٣٧ - ٥٥٦). فهذه هي العبادة التي أوجدنا الله لأجلها في هذه الحياة الدنيا وهي على الإجمال مطلق الطاعة له جل وعلا في كل أوامره ونواهيه وابعاداته.

يروى لنا الشيخ الصدوق (ره) في (معاني الأخبار) بسنده عن خيثمة بن عبد الرحمن الجعفي إنه قال: سألت عيسى بن عبد الله القمي أبا عبد الله (ع) وأنا حاضر فقال: ما العبادة؟ قال (ع): حسن النية بالطاعة من الوجه الذي يطاع الله منه (١).

انحراف الإنسان عن عبادة الله إلا من عصم نعم هذا هو الحق الذي يسعد الإنسان في الدارين بأن يحسن نيته بالطاعة لله من الوجه الذي يطاع الله منه ولكن هذا الإنسان ينحرف دائما عن عبادة ربه ومالكه ورازقه إلى عبادة غيره إلا من عصم الله كمن يعبد نفسه الأمانة بالسوء أو يعبد الشيطان أو رؤساء الكفر والضلال أو الأبحار والرهبان وعلماء السوء أو يعبد الدنيا وأموالها وزخارفها أو يرأى بعبادته بان يتظاهر بحسن عبادة الله أمام الآخرين ليمدحوه أو يعظموه، فكل من يعبد هذه المعبودات المزيفة وغيرها هي عبادة باطلة زائفة وتعد شركا بعبادة الله أو كفرا به ولذلك يقول عز من قائل: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) [يوسف / ١٠٧]. ويقول تعالى

(١) معاني الأخبار ص ٢٢٨.

مخاطبا رسوله (ص) يأمره أن يقول للناس: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) [الكهف / ١١١]، ويستثنى من ذلك من يطيع وينحضع لغير الله بأمر الله فإن هذه الطاعة والخضوع بحقيقتهما طاعة وخضوع لله عز وجل وحده لا شريك له لأنها امتثال لأمره وخضوع له لا لغيره.

وحيث أن هذا الموضوع خطير والناس فيه مختلفون ولا سيما الأمة الإسلامية فيما بينهم حتى أن بعض فرقهم قد تكفر الأخرى وحيث أن العبودية للغير لها معان عديدة لذا يلزمنا بعض التوسع والتفصيل لهذا الموضوع حتى نعرف كيف أن القرآن شفاء للأمراض الروحية في العبادات الفاسدة وكيف يكون رحمة للمؤمنين من العباد ونعرف المخلصين العابدين من غيرهم فنقول:

معاني العبودية في القرآن واللغة والاصطلاح
إن العبودية للغير لها معان عديدة في القرآن واللغة والاصطلاح الشرعي والعرفي، منها العبودية بمعنى التأليه ومعنى المملوكية والخضوع والطاعة، وإليك البيان والتفصيل:
١ - العبودية بمعنى التأليه:

وهي أن يتخذ الإنسان له إلهًا، والعبودية بهذا المعنى تختص بالله سبحانه وحده لا شريك له ولم يجعلها الله لأحد من المخلوقين مطلقا وإيها

تشير عدة آيات منها قوله تعالى: (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أَدْعُو وإليه مآب [الرعد / ٣٧]).

وإلى هذا المعنى ينصرف لفظ العبادة في العرف العام إذا أطلق دون قرينة فالله هو المعبود - بكل ما للعبودية من معنى كما سيأتي التفصيل - وهو الإله ولا إله سواه ولا معبود غيره وهو الخالق والرازق والمكون والمدبر والعليم الخبير الذي بيده الأمور كلها وهو على كل شيء قدير. قال تعالى: (ذلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللّٰطِيفُ الْخَبِيرُ [الإنعام / ١٠٣ - ١٠٤]).

وهذا هو التوحيد الخالص الذي أرسلت به جميع الرسل والأنبياء وأوصيائهم، وأنزلت لأجله الكتب، قال تعالى: (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون [آل عمران / ٦٥]، وإليك تفسيرها:

تفسير آية: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم)
(قل يا أهل الكتاب (أي قل يا محمد لأهل الكتاب من يهود ونصارى وغيرهم الذين يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل الله من الكتاب على رسله.
(تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم (وهي كلمة التوحيد كلمة لا إله إلا الله. وتسمى أيضا بكلمة الإخلاص.

(ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا (أي نعبده بتأليهه وتوحيده فلا نشرك به شيئا من أنواع الشرك، لا في العقيدة ولا في العمل.
(ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله (كاليهود الذين قالوا عزير ابن الله والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله واتخذوهما آلهة من دون الله، أي من دون أمره وتشريعهم. (فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (أي موحدون لله خاضعون له بتوحيده وإن توليتم وأعرضتم عن توحيده.
فالإيمان بالله لن يجتمع مع تأليه غيره كائنا من كان ذلك الغير من نبي أو وصي أو إمام أو غير ذلك من كل مخلوق مطلقا وسواء أن المدعي زعم بتعدد الآلهة الخالقة وأنكر توحيده الله بالذات أو إنه يزعم إن هناك آلهة أخرى تكون وسائط بينه وبين الله وإن هذه الوسائط تقربه إلى الله زلفى - أي درجة - كعبدة الأصنام وغيرهم ممن عبد غير الله أو أشرك به.
فهذا كله قد أبطله القرآن بعشرات الآيات وبأدلة عقلية وفطرية، إذ أن توحيده الله أمر فطري وعقلي. قال تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون (الأنبياء / ٢٣). وقال تعالى: (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون (المؤمنون / ٩٢).

وعلى الإجمال نقول: لا شك لمسلم في أن من عبد غير الله وأتخذة ربا وإلها كان كافرا مشركا، والمسلمون في ذلك كلهم على حد سواء لم يتخذوا إلها غير الله وحده لا شريك له.

وخصوصا الشيعة الإمامية فإنهم موحدون لله ومخلصون له في عقائدهم بل نستطيع أن نقول: إنهم أكثر إخلاصا في العقيدة بذلك من غيرهم.

فالعبودية بمعنى التأليه لم يقل بها مسلم لغير الله جل وعلا لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره المشركون، لا إله إلا الله ربنا ورب آباءنا الأولين، لا إله إلا الله وحده وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده فله الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

٢ - العبودية بمعنى المملوكية:

وتأتي العبودية بمعنى المملوكية للغير فالمملوك عبد لمالكه ومما لا ريب فيه عند كل عاقل موحد لله أن المملوكية المطلقة - أولا وبالذات - هي لله عز وجل فهو خالقنا ومالك لنا ولكل شيء من السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما ملكا حقيقيا إذ هو الخالق الموجد وهو المالك لما خلق وأوجد وحده لا شريك له. قال تعالى: (ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) [البقرة / ١٠٨].

وقال تعالى: (ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير) [المائدة / ١٨].

هكذا عشرات الآيات بهذا المعنى، نعم قد يملك المخلوق شيئاً مما ملكه الله - حسب تشريعاته الحكيمة - فينسب ذلك الملك إلى ذلك المخلوق نسبة - في حقيقتها - وقتية وعرضية كمن يحوز أرضاً خراباً فيعمرها فتصبح شرعاً وعرفاً - ملكاً له يتصرف فيها كيف يشاء ويبيعها أو يسكنها أو يزرعها، وإذا باعها على أحد انتقلت الملكية للمشتري فيقال: هذا ملك هذا، وهكذا بقية المملوكات الأخرى من أنواع المال والعقار.

ومن المعلوم أن الإنسان وما ملكه الله - مما قل أو كثر - كله عرض زائل وملك مؤقت.

فتزود لما إليه المصير.

كل شيء إلى الفناء يصير.

حكم الرق في الإسلام

أما ملك الإنسان للإنسان فهل يصح بحكم الشرع؟

الجواب نعم.

قد يملك إنسان إنساناً آخر ذكراً أو أنثى فيكون المملوك عبداً لملكه والمملوكة أمة

لملكها وهو المعبر عنه في القرآن ب (ملك اليمين) والمعروف بالرق.

والرق كان في الأمم الماضية وبالأخص أيام الجاهلية متفشياً فتشياً فظيعاً إذ كان الغزو

والاعتداء بين القبائل والبلدان والأفراد أمراً طبيعياً عندهم، بل كان عندهم مبعثاً

للفخر والاعتزاز لدى الفريق المنتصر، فكل غلبة عندهم - فردية أو قبلية - على الخصم

سبب مشروع للإسترقاق.

أما الإسلام - بتشريعاته الحكيمة السامية - فلم يحرمه تحريما باتا ولكن قد قلص دائرته وضيقتها على بني الإنسان إلى أضيق ما يمكن مما تقتضيه المصلحة العامة، فلا إسترقاق في الإسلام إلا في الحروب المشروعة طبق نظامه المستقيم كما أنه لا إسترقاق إلا إذا لم يسلم الأسير قبل الحرب أو أثناءها ولا إسترقاق أيضا إذا علم قائد المسلمين عدم الخطر من المن على الأسير بإطلاقه أو قبول الفداء منه إذ إن لقائد المسلمين نبيا أو إماما أن يمن على من أسر بإطلاقه، كما إن له أن يأخذ منه الفداء إذا أمن منه الضرر على الإسلام والمسلمين، ومع حصر الإسلام للإسترقاق في هذه الدائرة الضيقة فقط فتح في سبيل محو الرقية أو تقليصها طرقا عديدة لسنا الآن بصدد ذكرها (١).

ولكن الغرض ان الإنسان قد يملك إنسانا فيكون عبدا مملوكا له، ويلزم العبد إطاعة مالكة في حدود الشرع.

والعبودية بهذا المعنى منصوص عليها في القرآن المجيد نصا صريحا بقوله تعالى: (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم) [النور / ٣٣] وإليك تفسيرها.
تفسير آية (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم)

(١) راجع تفسير (الميزان) للأستاذ العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، ج ٦ ص ٣٥٧ - ٣٧٨ في أحد عشر فصلا تحت عنوان (كلام في الرق والاستعباد).

الأيامى جمع أيم وهي المرأة التي لا زوج لها سواء كانت بكرا أو ثيبا، وكذلك يقال للرجل الذي لا زوجة له أيم. والإنكاح التزويج الشرعي، فالله سبحانه أمر عباده في هذه الآية الكريمة بالإنكاح وأغناهم به عن السفاح فقال: (وأنكحوا الأيامى منكم) (ومعناها: أيها المؤمنون زوجوا من لا زوج له من أحرار رجالكم ونسائكم، ثم قال: (والصالحين من عبادكم وإمائكم) (أي وزوجوا أيها الأحرار من لا زوج له أيضا الصالحين من عبيدكم وهم المملوكون لكم من الذكور وإمائكم وهن المملوكات لكم من الإناث).

(إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم) (وهذا وعد منه سبحانه وتعالى وعد به الفقراء من الأحرار والعبيد والإماء أن يوسع عليهم عند التزويج وبعده حتى لا يؤخروا زواجهم أو يتركوه بحجة الفقر.

ومن هنا قال الإمام أبو عبد الله الصادق (ع): من ترك التزويج مخافة العيلة (أي الفقر) فقد أساء الظن بربه لقوله سبحانه: (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) (١). وشاهدنا من الآية الكريمة إن الله أضاف فيها العبودية إلى الإنسان المالك لإنسان مملوك، فالمالك حر والمملوك عبد.

وإلى ذلك تشير آية أخرى وهي قوله تعالى: (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) (النحل / ٧٦).

(١) راجع (مجمع البيان) للشيخ الطبرسي م ٤ ص ١٤٠.

هل الشيعة تدعي أنها مملوكة للنبي (ص) والأئمة؟
وبهذه المناسبة نقول متسائلين: هل أن شيعة أهل البيت " يدعون أنهم مملوكين للنبي (ص) والأئمة كملك رق وملك يمين؟ الجواب: لا. وهل إن النبي (ص) والأئمة ادعوا أنهم مالكون للناس؟ قطعاً لا، لم يقل هذا أحد منهم مطلقاً. نعم إن شيعتهم المخلصين لعلمهم بعظيم مقام النبي (ص) والأئمة من أبنائه عند الله عز وجل تراهم ينزلون أنفسهم بمنزلة العبيد المملوكين لهم إخلاصاً بالانقياد والطاعة التي فرضها الله على عباده، وإلا في الحقيقة لم يدعوا أنهم مملوكون للنبي (ص) والأئمة، ولا النبي والأئمة ادعوا إنهم مالكون لهم أو لغيرهم من الناس إلا ما ملكوا من أفراد معدودين من عبيد وإماء أما بالحرب أو بالشراء أو من أي طريق آخر مشروع كالهديّة والهبة.
سيرة النبي (ص) والأئمة الحميدة مع ممالئهم
ولكن هلم وأنظر إلى سيرتهم - صلوات الله عليهم - الحميدة مع هؤلاء المملوكين:
أولاً: - كانوا لا يستخدمونهم إلا بأقل ما يطيقون من الخدمة فلا يكلفونهم خدمة شاقة أبداً، وهذا لا يحتاج إلى الاستدلال عليه لوضوحه من سيرتهم الحميدة وإنسانيتهم الفذة وتعاليمهم الحكيمة، يقول أمير المؤمنين (ع) في وصفه المتقين حينما سأله همام ذلك: وحوائجهم خفيفة ونفوسهم عفيفة (١).

(١) راجع (صفات الشيعة) للشيخ الصدوق المطبوع مع كتاب (علي والشيعة) للشيخ نجم الدين العسكري، ص ١٧٣.

ومعلوم أن النبي (ص) وأهل بيته الكرام هم مثال التقوى وقدوة المتقين ولذلك ما كانوا يكلفون مماليتهم إلا بأقل مما يطيقون.

ثانياً: - كانوا يحترمون لهم الإنسانية تمام الاحترام إلى حد إذا نصبت مائدة أحدهم (ع) يجلس الإمام معهم كما جاء في أحوال الإمام أبي الحسن الرضا (ع): إنه كان إذا جلس على مائدته أجلس معه مماليتهم كلهم حتى السائس والبواب ويأكل معهم فيقال له: يا بن رسول الله لو عزلت لهؤلاء مائدة؟ فيقول: إن الرب واحد والأب واحد والأم واحدة والجزاء بالأعمال، فقليل له: يا بن رسول الله أنت والله خير الناس وما على وجه الأرض أشرف منك، فقال (ع): يا هذا لا تحلف بالله، خير مني من كان أتقى لله وأطوع له ما نسخت هذه الآية: (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) [الحجرات / ١٤] (١).

ولعل الإمام الرضا (ع) عنى بالأتقى والأطوع منه الخمسة أهل الكساء. ثالثاً: - إذا صدرت من أحد مماليتهم عبيداً أو إماء إساءة أو مخالفة لا يشتمونهم ولا يضربونهم أبداً بل يسيرون معهم بالرفقة واللطف والتوجيه الصحيح والتعليم النافع، بل الثابت في سيرتهم " جميعاً إنهم يعفون عن ظلمهم ويحسنون لمن أساء إليهم كائناً من كان ذلك المسئى وخصوصاً مع عبيدهم وإمائهم جاء في أحوال الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) إنه دعا مملوكه ذات يوم مرتين فلم يجبه فدعاه ثالثاً فأجابه فقال

(١) راجع (البحار) ج ٤٩ ص ٩١ وص ٩٥ نقلاً عن (عيون أخبار الرضا) للصدوق ج ٢ ص ١٨٤ وص ٢٣٦ و (نور الأبصار) للمازندراني، ص ٧٧.

له: يا بني أما سمعت صوتي؟ قال بلى، قال: فما بالك لم تجبني؟ قال: أمنتك، فقال الإمام: الحمد لله الذي جعل مملوكي يأمني (١).
وكانت جارية له تسكب له الماء فنعتت فسقط الإبريق من يدها فشحه فرفع رأسه إليها فقالت: "والكاظمين الغيظ" قال: كظمت غيظي، قالت: "والعافين عن الناس" قال: عفا الله عنك، قالت: "والله يحب المحسنين"، قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله (٢).

رابعاً: - إنهم "ربما يشترون العبيد والإماء وما بهم إليهم حاجة ولكنهم يشترونهم ليعتقوا رقابهم فيقومون بتعليمهم دينهم ويزودونهم بالأموال الكافية ليكتسبوا بها ولا يكونون عالة على غيرهم.
ولقد أعتق علي أمير المؤمنين (ع) من ماله ألف مملوك في طلب وجه الله والنجاة من النار مما كد بيديه ورشح منه جبينه، كما ورد ذلك ضمن حديث طويل عن الإمام الصادق (ع) (٣).

سيرة الإمام زين العابدين مع مماليكه
وبهذه المناسبة هلم معي لنقرأ مثالا من سيرة الإمام زين العابدين (ع) لتتعرف بأي الوسائل كان يتقرب إلى الله تعالى ويطلب غفرانه ورضوانه

(١) (الإرشاد) للمفيد ص ٢٧٥ و (المناقب) لابن شهر آشوب ص ١٧٥ و (إعلام الوری) للطبرسي ص ٢٥٦، ونقله المجلسي في (البحار) ج ٤٦ ص ٥٦.
(٢) (الأمالی) للصدوق ص ١٢١، والطبرسي في (الإعلام) ص ٢٥٦.
(٣) راجع (البحار) ج ٤٦ ص ٧٥ نقلا عن (الإرشاد) للمفيد ص ٢٧٢، ورواه البرقي في (المحاسن) ص ٥١٠ مختصراً كما اختصرناه.

فلم يكتف بالصلاة والصوم والحج والصدقات المنوعة والإرشاد إلى أنواع الخيرات والعفو عن أساء إليه إلى غير ذلك من أنواع الطاعات التي لا تعد ولا تحصى.

لم يكتف بها كلها بل يتقرب إلى الله سبحانه أيضا بالإحسان إلى المستضعفين وإعطاء الحرية للمستعبدين فكان (ع) يشتري العبيد والإماء وما به إليهم من حاجة ولكنه إذا ملكهم قام بتعليمهم بالتعاليم الإسلامية الحقة، وإذا أذنب عبد من عبيده أو أمة من إماءه يكتب أسم المذنب ونوع الذنب والوقت الذي حصل فيه ولم يعاقب المذنب أو يعاتبه حتى إذا كانت آخر ليلة من شهر رمضان من كل سنة جمعهم حوله ونشر الكتاب وذكر كل واحد منهم بذنبه فيقر ويعترف له، ثم يقول لهم: ارفعوا أصواتكم وقولوا: يا علي بن الحسين إن ربك قد أحصى عليك كلما عملت كما أحصيت علينا كل ما عملنا ولديه كتاب ينطق عليك بالحق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وتجد كل ما عملت لديه حاضرا كما وجدنا علمنا لديك حاضرا فأعف واصفح كل ما ترجوا من المليك العفو.. واذكر يا علي بن الحسين ذل مقامك بين يدي ربك الحكم العدل الذي لا يظلم مثقال حبة من خردل فأعف واصفح يعف عنك المليك ويصفح، هذا وهو واقف بينهم يبكي وينوح ويقول: رب إنك أمرتنا أن نعفو عن ظلمنا وقد عفونا كما أمرتنا فاعف عنا فإنك أولى بذلك منا، ثم يقول لهم: قد عفوت عنكم فهل عفوتم عني مما كان مني من سوء ملكة؟ فيقولون: قد عفونا عنك يا سيدنا وما أسأت معنا شيئا.

ثم يقول لهم: قولوا: اللهم أعف عن علي بن الحسين كما عفا عنا وأعتقه من النار كما أعتق رقابنا، فيقولون ذلك وهو يبكي ويقول: اللهم آمين.

وما من سنة إلا ويعتق فيها في آخر ليلة من شهر رمضان ما بين عشرين رقبة إلى أقل أو أكثر، وإذا كان يوم الفطر أعطاهم الجوائز التي تصونهم وتغنيهم عما في أيدي الناس فيخرج منه المملوك حرا بعدما كان عبدا وعارفا بعدما كان جاهلا وغنيا بعدما كان فقيرا وعزيزا بعدما كان ذليلا (١).

٣ - العبودية بمعنى الخضوع:

عودا لموضوعنا نقول: وتأتي العبودية بمعنى الخضوع والتذلل وهي بهذا المعنى مشار إليها في القرآن ومنصوص عليها في اللغة والاصطلاح الشرعي والعرفي. قال تعالى حاكيا عن لسان فرعون وقومه: (فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون [المؤمنون / ٤٨] أي خاضعون متذللون. ومن هنا يقال للطريق الذي يكثُر المرور عليه لسهولته إنه طريق معبد أي خاضع للمارة، وقد تعارف بين الناس خضوع الضعيف للقوي (٢).

ومما لا ريب فيه لا بد للإنسان المخلوق من أن يخضع ويتذلل خضوعا وتذلا مطلقا لخالقه المتعال الذي خضع وتذلل له كل شيء من مخلوقاته. قال تعالى: (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) [حم فصلت / ١٢] أي

(١) ما نقلناه من سيرة الإمام زين العابدين (ع) مقتطف من حديث طويل عن الإمام الصادق (ع) ينقله المجلسي في (البحار) ج ٤٦ ص ١٠٢ عن (الإقبال) للسيد ابن طاووس ويشير إليه الشيخ محمد جواد مغنية في (الشيعة والتشيع) ص ٢٤٥ كما يذكر بعضه ابن شهر آشوب في (المناقب) ج ٤ ص ١٥٨.
(٢) راجع تفسير (الميزان) ج ١٠ ص ٢٨٢: (الإقبال إلى الله بالعبادة).

خاضعين متذللين. وقال تعالى: (تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً) ([الإسراء / ٤٥]).

فالإنسان العاقل والمختار غير المجبور يلزمه أن يخضع لخالقه فإن ذلك مما حكم به العقل وألزم به الشرع، وإذا تمرد العبد ولم يخضع - باختياره - لخالقه يكون قد عرض نفسه لسخطه وعذابه وهذا لا ريب فيه.

تقسيم الخضوع إلى ما يصح وما لا يصح

أما الخضوع والتذلل للمخلوق فهل يصح أم لا؟

قطعاً يصح لبعض ولا يصح لبعض آخر إذ الخضوع والتذلل للمخلوق له أقسام عديدة: أحدها وأولها الخضوع لمخلوق له إضافة خاصة إلى الله، وقد شرع الله لعباده وأمرهم بالخضوع لذلك المخلوق.

أ - الخضوع للرسول والأنبياء وأوصيائهم

كالخضوع للرسول والأنبياء وأوصيائهم، وهذا واجب يلزم العبد القيام به وإذا تكبر

عليهم ولم يخضع لهم فقد تكبر على الله ولم يخضع لله، إذ الخضوع لهم " في

الحقيقة خضوع خالص لله وإظهار لعبوديته وحده لا شريك له، فمن اعتقد بالوحدانية

الخالصة لله واعتقد إن الإحياء والإماتة والخلق والرزق والقبض والبسط والمغفرة

والعقوبة كلها وما سواها بيده سبحانه، ثم اعتقد بأن النبي (ص) وأوصيائه الكرام (عباد

مكرمون) (٢٦) لا

يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ([الأنبياء / ٢٧ - ٢٨] وتوسل بهم إلى الله وأظهر الخضوع لهم وجعلهم شفعاء إليه - بتشريع منه - تجليلاً لشأنهم وتعظيماً لمقامهم، لم يخرج بذلك عن حد الإيمان ولم يعبد غير الله.

ولعل إلى هذا المعنى تشير عبارات بعض زيارات الأئمة التي تتضمن التصريح بالعبودية لهم بعد الإقرار بتوحيد الله وتقديسه كقولك في زيارة أمير المؤمنين (ع): (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له...) إلى أن تقول مخاطباً الإمام: (يا مولاي يا أمير المؤمنين وابن عبدك، وابن أمتك جاءك مستجيراً بدمتك...) (١) أي يا سيدي أنا خاضع لك متذللاً أمامك إمتثالاً لأمر الله الذي عظم شأنك ونصبتك حجة علي وعلى أهل الأرض بعد الرسول الأعظم (ص).

ب - الخضوع للقرآن والحجر الأسود وسائر الأماكن المقدسة ومن هذا القسم من الخضوع، الخضوع إلى كل ما له إضافة خاصة إلى الله تعالى توجب له الحرمة كالقرآن المجيد وبيت الله الحرام والحجر الأسود وسائر الأماكن المقدسة من بقية المساجد ومن بيوتات النبي (ص) وأهل بيته الطاهرين ومشاهدهم المشرفة بهم، وكلها تعظيم لشعائر الله وأوليائه، قال تعالى: (ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) [الحج / ٣٣].

وقال تعالى: (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال (٣٦) رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله

(١) راجع (مفتاح الجنات) للسيد محسن الأمين ج ٢ ص ٤٧.

وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار (٣٧) ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ([النور / ٣٧ - ٣٩].

ومن هنا كان رسول الله بنفسه يقبل الحجر الأسود ويستلمه بيده ويقبله بضمه إجلالا لشأنه وتعظيما له امتثالا لأمر الله وعبودية خالصة له.

قصة ظريفة تتعلق بتقبيل النبي (ص) للحجر الأسود

وبهذه المناسبة أسجل قصة ظريفة تتعلق بتقبيل النبي (ص) للحجر الأسود روتها الصحاح من الأحاديث والسنن كما ذكرتها بعض كتب التاريخ والحديث أذكرها بالنص الذي رواه الحاكم في (مستدرک الصحيحين) بسنده عن أبي سعيد الخدري (رض) إنه قال: حججنا مع عمر بن الخطاب فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال: إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولو لا إني رأيت رسول الله قبلك ما قبلتك ثم قبله، فقال له علي بن أبي طالب: بلى إنه يضر وينفع. قال: بم؟ قال: بكتاب الله تبارك وتعالى، قال: وأين ذلك من كتاب الله؟ قال: قال الله عز وجل: (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ([الأعراف / ١٧٣]، ثم قال (ع): خلق الله آدم ومسح على ظهره فقررههم (أي قرر أرواح ذريته) بأنه الرب وإنهم العبيد واخذ عهودهم ومواثيقهم وكتب ذلك في رق وكان لهذا الحجر عينان ولسان فقال له: افتح فاك قال: ففتح فاه فألقمه ذلك الرق وقال: اشهد لمن وافاك

بالموافاة يوم القيامة وإني اشهد لسمعت رسول الله (ص) يقول: يؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود له لسان ذلق يشهد لمن يستلمه بالتوحيد فهو يضر وينفع، فقال عمر: أعود بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن (١).

ج - خضوع الولد للوالدين والمتعلم لمعلمه والمؤمن للمؤمن:
والقسم الثاني هو الخضوع للمخلوق دون إضافة ذلك المخلوق بإضافة خاصة إلى الله ولكن الله تعالى قد شرع الخضوع لهم وأمر به كخضوع الولد لوالديه والمتعلم لمعلمه، كما قد قيل: من علمني حرفا ملكني عبدا، والمؤمن للمؤمن الآخر والمضيف لمضيفه وخدمته له، يقول الشاعر المقنع الكندي:

وما شيمة لي غيرها تشبه العبد.

وإني لعبد الضيف ما دام نازلا.

إلى غير ذلك من أنواع الخضوع المتداول بين الناس.

ولا شك في رجحان هذا القسم وجوازه بحكم الضرورة والبداهة ما لم يرد فيه نهي خاص كالسجود الذي لا يصح لغير الله، بل قد يكون

(١) مصادر القصة: (مستدرك الحاكم) ج ١ ص ٤٥٧، و (تلخيص المستدرك) في الذيل للذهبي، و (سيرة عمر) لابن الجوزي ص ١٠٦، و (عمدة القارئ) للعيني ج ٤ ص ٦٠٦، و (إرشاد الساري) للقسطلاني ج ٣ ص ١٩٥ نقلا عن تاريخ مكة للأزرقي، والسيوطي في تفسيره (الدر المنثور) ج ٣ ص ١٤٤ نقلا عن كل من الخجندي في (فضائل مكة) = = وأبي الحسن القطان في (المطولات) والبيهقي في (شعب الإيمان) وغيرهم، و (الجامع الكبير) للسيوطي أيضا كما في (ترتيبه) ج ٣ ص ٣٥ عن مصادر عديدة ومنهم (ابن حيان، والفتوحات الإسلامية) لأحمد زيني دحلان ج ٢ ص ٤٨٦، و (شرح النهج) لابن أبي الحديد ج ٣ ص ١٢٢، و (كنز العمال) للمتقي الهندي الحنفي ج ٥ ص ٩٣، و (أخبار الدول) للإسحاق ص ٣١، و (أرجح المطالب) للشيخ عبيد الله ص ١٢٢ وغير هؤلاء، راجع (الغدير) للأميني ج ٦ ص ٩٥ و (إحقاق الحق) ج ٨ ص ٢٠٨ - ص ٢١٠، و (علي والخلفاء) للشيخ نجم الدين العسكري ص ١١٢ - ص ١١٧

الخضوع في بعض هذه الموارد واجبا لا جائزا فقط. قال تعالى بالنسبة لخضوع الولد للوالدين: (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا [الإسراء / ٢٥]، فقد أمر تعالى بالخضوع للوالدين وخفض الجناح ذلا لهما كما تفعله صغار الطير وهكذا الخضوع للعلماء ولسائر المؤمنين الصالحين فإنه محبوب لله وعليه سيرة عقلاء البشر، ومنه تقبيل أيدي العلماء وتقبيل أيدي الوالدين. قال تعالى: (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين [الشعراء / ٢١٦]. وقال تعالى: (واخفض جناحك للمؤمنين [الحجر / ٨٩]. وقال تعالى: (من یرتد منكم عن دینه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين [المائدة / ٥٥]. أفترى أن خفض الجناح ذلا للوالدين وللمؤمنين ولا سيما العلماء منهم شركا بالله وقد أمر الله به؟
قطعا لا.

إذن فكيف بالتذلل والخضوع للنبي (ص) وعلي والأئمة الطاهرين من أبنائهما ولفاطمة بضعة رسول الله فهو من باب الأولى.
ومعلوم أن لا فرق في تعظيمهم والخضوع لهم سواء في حياتهم أو بعد وفاتهم إذ إنهم بلا ريب (أحياء عند ربهم) وهكذا تعظيم سائر الشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله وزيارة مشاهدهم المشرفة. قال تعالى: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون [آل عمران / ١٧٠] فهذان قسمان من الخضوع الواجب والمستحب. قال

تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) [آل عمران / ٣٢].

د - الخضوع لأهل الأديان والمذاهب الأربعة
والقسم الثالث من الخضوع للمخلوق باعتقاد أن له إضافة خاصة إلى الله يستحق من اجلها أن يخضع له مع أن العقيدة باطلة كما في خضوع أهل الأديان الباطلة والمذاهب الفاسدة لرؤسائهم، ولا ريب في أن هذا الخضوع محرم بالأدلة الأربعة كتابا وسنة وإجماعا وعقلا، بل هو إدخال في الدين ما لم يكن منه وهو من البدع المفتراة على الله.

قال الله تعالى حاكيا عن لسان أهل الكهف: (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) [الكهف / ١٦].
وعلى الإجمال لا خضوع في الإسلام إلا ما يرجع إلى الله تعالى وان يقصد به وجهه الكريم.

معرفة الحق والمحقين في أحاديث وتعاليق

١ - حديث أمير المؤمنين (ع) للحارث الهمداني
ومن هنا قال أمير المؤمنين (ع) للحارث الهمداني حين دخل عليه وكان مريضا
وكانت له منه منزلة فقال أمير المؤمنين (ع): كيف تجدك يا حارث؟ قال: نال الدهر
مني يا أمير المؤمنين وزادني أوارا وغليلا اختصام أصحابك ببابك. قال: وفيهم
خصومتهم؟ قال: في شأنك والبلية من

قبلك، فمن مفرد غال ومقتصد تال ومن مرتاب لا يدري أيقدم أم يحجم، قال (ع):
فحسبك يا أخا همدان، ألا أن خير شيعتي النمط الأوسط، إليهم يرجع الغالي وبهم
يلحق التالي. فقال الحارث: لو كشفت فذاك أبي وأمي الرين (أي الشك الغالب) عن
قلوبنا وجعلتنا في ذلك على بصيرة من أمرنا، قال: فذاك فإنك امرؤ ملبوس عليك، ثم
قال: ان دين الله لا يعرف بالرجال بل بآية الحق فاعرف الحق تعرف أهله، يا حارث
ان الحق أحسن الحديث والصادع به مجاهد، وبالحق أخبرك فارعني سمعك ثم خبر به
من كانت له حصانة (وفي نص) حصافة من أصحابك (١).
ألا إني عبد الله وأخو رسوله وصديقه الأول في أمتكم حقا فنحن الأولون ونحن
الآخرون.

ألا وأنا خاصته يا حارث وخالصته وصنوه ووصيه ووليه صاحب نجواه وسره، أوتيت
فهم الكتاب وفصل الخطاب وعلم القرآن والأسباب واستودعت ألف مفتاح يفتح كل
مفتاح ألف باب يفضي كل باب إلى ألف عهد وأيدت أو قال: أمددت بليلة القدر نفلا
(أي زيادة) وأن ذلك ليجري لي ومن استحفظ من ذريتي ما جرى الليل والنهار حتى
يرث الله الأرض ومن عليها. وأبشر يا حارث ليعرفني - والذي فلق الحبة وبرئ النسمة
- وليي وعدوي في مواطن شتى، ليعرفني عند الممات وعند الصراط وعند الحوض
وعند المقاسمة، قال: وما المقاسمة يا مولاي؟ قال: مقاسمة النار أقاسمها قسمة
صحاحا أقول: هذا وليي وهذا عدوي.

(١) المراد من الحصانة أي متحصن بالدليل والحصافة استحكام العقل.

ثم أخذ أمير المؤمنين (ع) بيد الحارث وقال: يا حارث أخذت بيدك كما أخذ رسول الله (ص) بيدي فقال لي: - وقد اشتكيت له حسدة قريش والمنافقين -: إنه إذا كان يوم القيامة أخذت بحبل - أو بحجزة يعني عصمة - من ذي العرش تعالى وأخذت أنت يا علي بحجزتي وأخذت ذريتك بحجرتك وأخذت شيعتكم بحجرتكم، فماذا يصنع الله بنبيه وما يصنع بوصيه، خذها إليك يا حارث قصيرة من طويلة أنت مع من أحببت ولك ما احتسبت - أو قال: ما اكتسبت - قالها ثلاثاً: فقال الحارث - وقام يجر رداءه جذلاً: ما أبالي وربى بعد هذا متى لقيت الموت أو لقيني.

قال الراوي وهو جميل بن صالح: فأنشد لي السيد الحميري بن محمد في كتابه: كم ثم أعجوبة له حملاً من مؤمن أو منافق قبلاً بنعته واسمه وما عملاً (١) فلا تخف عثرة ولا زللاً تخاله في الحلاوة العسلا دعيه لا تقبلي الرجال حبلاً بحبل الوصي متصلاً أعطاني الله فيهم الأمل (٢).

قول علي لحارث عجب يا حار همدان من يمت يرني يعرفني طرفه وأعرفه وأنت عند الصراط تعرفني أسقيك من بارد على ظمأ أقول للنار حين توقد للعرض دعيه لا تقربيه إن له هذا لنا شيعه وشيعتنا.

(١) كون علي (ع) يعرف من يحضره عند الاحتضار من مؤمن ومنافق باسمه ونعته (أي صفته وعمله) لم يكن قول شاعر مغال أو وهمي خيالي بل هو الواقع المدعم بالأدلة القطعية من الكتاب والسنة حيث أن صحائف الأعمال تعرض على رسول الله (ص) والأئمة الطاهرين من أهل الدنيا، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: " وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون " [التوبة / ١٠٦] فصحائف الأعمال تعرض على النبي وأهل بيته في كل يوم وفي الأسبوع مرتين وتعرض عليهم أخيراً عند حضور آجال أربابها، راجع (البحار) ج ٢٣ ص ٣٣٣ - ٣٥٣ باب عرض الأعمال عليهم " وأنهم هم الشهداء على الخلق.

وإلى قول أمير المؤمنين (ع) للحارث: ألا ان خير شيعتي النمط الأوسط، إليهم يرجع الغالي وبهم يلحق التالي، أشار بعض السادة الشعراء حيث يقول:
وسيدها الحاكم المقسط وفي حبه هلك المفرط وشيعته النمط الأوسط.
إمام الهدى وغيث الورى إمام به هلك المبغضون كلا الجانبين عدو له.
٢ - أحاديث للإمام الصادق (ع)
قال الإمام الصادق (ع): من أخذ دينه من أفواه الرجال أزالته الرجال، ومن أخذ دينه من الكتاب والسنة زالت الجبال ولم يزل.
وقال (ع) أيضا: إياكم والتقليد فإنه من قلد في دينه هلك، إن الله تعالى يقول: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله (فلا والله ما صلوا

لهم ولا صاموا ولكنهم أحلوا لهم حراما وحرموا عليهم حلالا فقلدوهم في ذلك فعبدوهم وهم لا يشعرون.

التقليد فيما يصح وما لا يصح

إن التقليد للغير الذي يحذر منه الإمام الصادق (ع) - في أمور الدين - بقوله: إياكم والتقليد، هو التقليد الأعمى في العقائد من أصول الدين الخمسة وما يتفرع منها من سائر المعارف الإسلامية كالقضاء والقدر والجبر والاختيار وأمثالها وكذلك فيما أحل الله أو حرم بلا بينة أو دليل، كما لا يجوز التقليد في تفسير القرآن المجيد إذا كان مجرد رأي، والتقليد في اختيار فرقة من الفرق الإسلامية إلا بعد التأكد من نجاتها لا تبعا للآباء أو لغيرهم وإنما قلنا: التقليد الأعمى، أي إنه تقليد للغير بلا دليل صحيح، أما إذا أقام المدعي على شيء من ذلك دليلا صحيحا من كتاب ظاهر الحجة أو سنة ثابتة أو إجماع أو عقل فحينئذ لا يكون تقليدا لذلك الغير بل رجوعا إلى الدليل الشرعي. أما التقليد في كيفية أحكام العبادات والمعاملات والعقود فإنه واجب على كل مكلف لم يبلغ مرتبة الاجتهاد، ولا يستطيع العمل بالاحتياط فإنه يتعين عليه أن يقلد من اجتمعت فيه شرائط التقليد التي يذكرها فقهاء الشيعة العدول في الرسائل العملية وفي كتب الاستدلال من البلوغ والعقل والإيمان والذكورة والاجتهاد والعدالة وطهارة المولد والحياة، فلا يجوز عندهم تقليد الميت ابتداء، فإذا قلد أحد من اجتمعت فيه هذه الشرائط عليه أن يعمل برأي مقلده لأن حصول الاجتهاد والمقدرة على العمل بالاحتياط لا يستطيعه سائر الناس.

قال الإمام الحسن العسكري نقلا عن آبائه عن الإمام الصادق (ع) إنه قال: فأما من كان من الفقهاء صائنا لنفسه حافظا لدينه مخالفا لهواه مطيعا لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه، وذلك لا يكون إلا بعض فقهاء الشيعة لا جميعهم... الخ (١).

وحيث أن يكون الرجوع لذلك المقلد رجوعا صحيحا لأنه قلده على بصيرة ومعرفة لعلمه باجتهاده وعدالته، ولو فرضنا أن المجتهد العادل كان مخطئا في بعض ما أفتى به في الواقع فالمقلد معذور، والمجتهد العادل معذور أيضا فيما إذا كان باذلا جهده في استنباط الحكم من أدلته ولو كان مقصرا في ذلك فيكون هو المسؤول عن تقصيره. وقال (ع): من أجاب ناطقا فقد عبده فإن كان الناطق عن الله تعالى فقد عبد الله وأن كان الناطق عن الشيطان فقد عبد الشيطان (٢).

٣ - أحاديث عن الإمام الرضا عن آبائه عن النبي (ص)
روى الشيخ الصدوق في كتابه (عيون أخبار الرضا) بسنده عن إبراهيم بن أبي محمود عن علي بن موسى الرضا عن أبيه موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين بن علي " قال: قال رسول الله (ص): يا علي أنت المظلوم من بعدي فويل لمن ظلمك واعتدى عليك وطوبى لمن تبعك ولم يختر عليك. يا علي أنت المقاتل بعدي فويل لمن قاتلك وطوبى لمن قاتل

(١) راجع الاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ٢٦٣ هو من الأحاديث المتسالم عليها عند فقهاءنا.
(٢) راجع أحاديث الصادق (ع) في كتاب (أوائل المقالات في المذاهب والمختارات) للشيخ المفيد ص ٢١٩، ط الحيدرية، النجف.

معك. يا علي أنت الذي تنطق بكلامي وتتكلم بلساني بعدي فويل لمن رد عليك وطوبى لمن قبل كلامك. يا علي أنت سيد هذه الأمة بعدي وأنت إمامها وخليفتي عليها من فارقتك فارقتني يوم القيامة ومن كان معك كان معي يوم القيامة. يا علي أنت أول من آمن بي وصدقني وأنت أول من أعانني على أمري وجاهد معي عدوي وأنت أول من صلى معي والناس يومئذ في غفلة الجهالة. يا علي أنت أول من تنشق عنه الأرض معي وأنت أول من يجوز على الصراط معي، وإن ربي عز وجل أقسم بعزته أنه لا يجوز عقبه الصراط إلا من معه براءة بولايتك وولاية الأئمة من ولدك وأنت أول من يرد حوضي تسقي منه أوليائك وتذود (أي تطرد) عنه أعدائك وأنت صاحبني إذا قمت المقام المحمود تشفع لمحبيك فتشفع فيهم وأنت أول من يدخل الجنة ويبيدك لوائي وهو لواء الحمد وهو سبعون شقة الشقة منه أوسع من الشمس والقمر وأنت صاحب شجرة طوبى في الجنة أصلها في دارك وأغصانها في دور شيعتك ومحبيك.

قال الراوي إبراهيم بن أبي محمود: فقلت للرضا: يا ابن رسول الله إن عندنا أخبارا في فضائل أمير المؤمنين (ع) وفضلكم أهل البيت وهي رواية مخالفيكم ولا نعرف مثلها عندكم أفنديين بها؟ فقال: يا بن أبي محمود أخبرني أبي عن أبيه عن جده أن رسول الله (ص) قال: من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله عز وجل وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس. ثم قال الرضا: يا بن أبي محمود إن مخالفينا وضعوا أخبارا في فضائلنا وجعلوها (أي الأخبار الموضوعية والمكذوبة) على ثلاثة أقسام أحدها الغلو وثانيها التقصير في أمرنا وثالثها التصريح

بمثالب (أي لوم وعيب) أعدائنا فإذا سمع الناس الغلو فينا كفروا شيعتنا ونسبوههم إلى القول بربوبيتنا وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا وقد قال الله عز وجل: (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) [الأنعام / ١٠٩]، ويا بن أبي محمود إذا أخذ الناس يميننا وشمالا فألزم طريقتنا فإنه من لزمنا لزمناه ومن فارقنا فارقناه وإن أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان أن يقول للحصاة: هذه نواة ثم يدين بذلك ويبرء ممن خالفه. يا بن أبي محمود احفظ ما حدثتك به فقد جمعت لك خير الدنيا والآخرة (١).

قال عز من قائل: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) [التوبة / ١٢٠].
٤ - العبودية بمعنى الطاعة: -

أما العبودية بمعنى الطاعة فمشار إليها في القرآن المجيد ومنصوص عليها في اللغة والاصطلاح الشرعي والعرفي ومنه قوله تعالى: (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين) [يس / ٦١] فإن عبادة الشيطان المنهي عنها في هذه الآية الكريمة إنما هي إطاعته لا غير.

ولا شك في أن العبودية بمعنى الطاعة أولا وبالذات يجب أن تكون لله عز وجل في كل ما أمر به ونهى عنه إذ إن إطاعته مقدمة على كل إطاعة، وقد تكرر في القرآن وعد الله لمن أطاعه بالثواب ووعد به لمن عصاه بالعقاب.

(١) راجع (عيون أخبار الرضا) ج ١، ص ٣٠٣.

أقسام إطاعة غير الله من سائر مخلوقاته
الأول: - الإطاعة المطلقة وغير المشروطة
الأول: - أن تكون إطاعة ذلك الغير بأمر من الله وتشريعه إطاعة مطلقة وغير مشروطة بشرط أصلا كما في إطاعتنا للرسول والأنبياء وأوصيائهم"، وهذه الطاعة في حقيقتها إطاعة لله سبحانه إذ هو أمر عباده بإطاعتهم في كل ما دعوا إليه وأمروا به ونهوا عنه فهي إذن واجبة بحكم العقل والشرع، قال تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) [النساء / ٦٥]، وقال تعالى: (من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) [النساء / ٨١]. ومن هنا نرى أن الله يقرن دائما إطاعة رسوله محمد (ص) بإطاعته تماما في كثير من الآيات القرآنية ولم يفرق بين الطاعتين إلا بواو العطف فيعطف طاعة الرسول على طاعته، كقوله تعالى: (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم) [النساء / ١٤]. وقوله تعالى: (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) [النور / ٥٣]، وقوله عز من قائل: (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) [الأحزاب / ٧٢] إلى غير ذلك من الآيات الأخرى.
ومن هنا نعلم أن من ادعى أنه مطيع لله ولكنه لم يطع الرسول بما أمر به وثبت عنه (ص) لم يكن من الفائزين إذ أن الفوز العظيم لا يتحقق إلا

لمن أطاع الله ورسوله معا وآمن بهما جميعا. قال عز من قائل: (والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما) [النساء / ١٥٣].

حكم إطاعة الأئمة الطاهرين "

أما إطاعة الأئمة الطاهرين من أهل بيته فقد قرنها الله بإطاعة الرسول الذي قرن إطاعته بإطاعته في قوله تعالى مخاطبا عباده المؤمنين: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) [النساء / ٦٠] فمن أولوا الأمر (أي أهل الأمر والشأن) هؤلاء الذين أمر الله بإطاعتهم وقرنها بإطاعة رسوله (ص) تماما بحيث لم يفرق بين الإطاعتين بل جعلهما معا في ميزان واحد وأمر واحد: (وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) (ولا بد أن يكون أولوا الأمر معصومين كعصمة الرسول فمن هم؟ نعم إنما هم الأئمة من أهل بيته الطاهرين فهم المعصومون وهم أهل الأمر والشأن وهم خلفاؤه على أمته من بعده وهم الذين قرن الله إطاعتهم بإطاعة رسوله (ص) وهم علي أمير المؤمنين والحسن والحسين والأئمة التسعة من ولد الحسين كما تضافرت النصوص الصريحة والصحيحة بذلك عن النبي (ص) وأهل بيته فراجع (١).

(١) (إحقاق الحق) للسيد شهاب الدين ج ٣ ص ٤٢٤ - ٤٢٦ نقلا عن مصادر عديدة ومهمة، و (إكمال الدين) للصدوق ص ٢٤٦ ط النجف وص ٣٦٥ ط طهران و (البحار) ج ٢٣ ص ٢٨٣ - ٣٠٤ باب وجوب طاعتهم " وغيرها.

فنحن إذن عبيد لهم بالطاعة التي افترضها الله علينا وعلى جميع عباده البر منهم والفاجر
والمؤمن منهم والكافر إطاعة خالصة له جل وعلا.
رد الإمام الرضا (ع) على من يدعي أن الأئمة يقولون:
(إن الناس عبيد لنا)

وبهذا المعنى صرح الإمام الرضا (ع) في حديث رواه الثقة من المحدثين كالكليني
والطوسي وغيرهما بأسانيدهم عن محمد بن زيد الطبري إنه قال: كنت قائما على رأس
علي بن موسى (ع) بخراسان وعنده جماعة من بني هاشم وفيهم إسحاق بن موسى
العباسي فقال الإمام له: يا إسحاق بلغني إنكم تقولون: إنا نزعم أن الناس عبيد لنا، لا
وقرأتي من رسول الله (ص) ما قلته قط ولا سمعته من أحد من آبائي ولا بلغني من
واحد منهم قاله ولكننا نقول: الناس عبيد لنا بالطاعة موال لنا في الدين فليبلغ الشاهد
الغائب (١).

التعليق على رد الإمام الرضا (ع) ومفاده
يكشف لنا هذا الحديث الشريف أن هذه الشبهة (٢) أو هذا الادعاء من أن الأئمة
يقولون: إن الناس عبيد لنا، وإن شيعتهم يزعمون ذلك إنما هي

(١) راجع (أصول الكافي بشرحه الشافعي) ج ٣ ص ٦٤، و (أمالي) الشيخ الطوسي ج ١ ص ٢١، و (بشارة
المصطفى) لأبي جعفر الطبري الإمامي ص ٨٤، ونقله عن الكليني الشيخ علي الخنيزي في (الدعوة
الإسلامية) ج ١ ص ٦٠.

(٢) تعريف الشبهة كما عرفها أمير المؤمنين (ع) بقوله في بعض خطبه، وإنما سميت الشبهة شبهة لأنها
تشبه الحق فأما أولياء الله فضيأؤهم فيها اليقين ودليلهم سمت الهدى وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال
ودليلهم العمى (شرح نهج البلاغة لابن الحديد ج ١ ص ٢١٢).

شبهة قديمة وادعاء قديم. ومع الأسف نرى هذا الادعاء لا يزال موجودا يردده الكثير من الناس لجهلهم بالحقائق فالإمام الرضا (ع) يقول في هذا الحديث لإسحاق بن عباس بن موسى العباسي: يا إسحاق بلغني إنكم (أي يا بني العباس) تقولون: إنا نقول: إن الناس عبيد لنا، ثم ينكر هذا وينفيه ويقسم على نفيه بقرابته من رسول الله (ص) (١) بقوله: لا وقرابتي من رسول الله (ص) ما قلته قط ولا سمعته من أحد من آبائي قاله ولا بلغني عن أحد منهم قاله، ثم استدرك (ع) فقال: لكننا (أنا وآبائي) نقول: الناس عبيد لنا في الطاعة موال لنا في الدين (أي أتباع لنا في الدين) فليبلغ الشاهد الغائب. ذلك لأن إطاعتهم مفترضة من الله على عباده كما مر وكذلك موالاتهم وأتباعهم أيضا مفترضة من الله لأنهم أولياء الله، ولذلك يأمر الناس بإطاعتهم وموالاتهم امتثالا لأمر الله عز وجل، فمن أطاعهم فقد أطاع الله ورسوله ومن عصاهم فقد عصى الله ورسوله ومن والاهم فقد والى الله ورسوله ومن عاداهم فقد عادى الله ورسوله، كما تواتر هذا كله وغيره بالنص والمعنى عن الصادق الأمين (ص) من جميع طرق فرق المسلمين والحمد لله رب العالمين (٢).

الثاني: الإطاعة المشروطة وغير المطلقة: -

(١) إن قسم الإمام (ع) بقرابته يدل بوضوح على جواز القسم بغير الله. نعم الحانث بقسمه بغير الله لا تلزمه الكفارة إلا ما عقد يمينه بالله عز وجل.

والقسم الثاني من أقسام الطاعة للمخلوق إطاعة بأمر من الله وإذن تشريعي منه تعالى ولكنها إطاعة مشروطة ومقيدة غير مطلقة كإطاعة الولد لوالديه وإطاعة علماء الدين الصالحين بل وإطاعة سائر المؤمنين.

وإنما كانت إطاعة هؤلاء مشروطة ومقيدة غير مطلقة لأنهم لم يكونوا معصومين كعصمة الرسول وأهل بيته الطاهرين "، لذا تكون واجبة فيما إذا أمروا بواجب، ومستحبة إذا أمروا بمستحب، ومحرمة فيما إذا أمروا بمحرم ومكروهة إذا أمروا بمكروه ومباحة بل راجحة إذا أمروا بمباح.

نعم الوالدان خصوصا لو ألزموا أولادهم بشيء وإن كان مباحا راجحا مع ذلك يلزمهم الإطاعة لهم لأن الله تعالى أمر وأوصى بالطاعة والشكر والإحسان للوالدين بالخصوص. وإلى هذا كله يشير قوله تعالى: (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير (١٤) وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون (لقمان / ١٥ - ١٦).

الثالث: الإطاعة المحرمة ومصاديقها: -

والقسم الثالث من أقسام الطاعة للمخلوق إطاعة محرمة وذلك فيما إذا كانت إطاعة ذلك المخلوق منهيها عنها من الله ورسوله (ص) وأهل بيته " ولها مصاديق عديدة، وإليك البيان:

أ - إطاعة الإنسان لنفسه الأمانة بالسوء

فمن مصاديق الطاعة المحرمة إطاعة الإنسان لنفسه الأمانة بالسوء واتباع هواها في كل ما تأمر به من معاصي الله وترك طاعته من دون أن يرجع إلى أوامر ربه وبذلك يكون هذا الإنسان قد اتخذ نفسه إلها من دون الله. قال تعالى: (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا) [الفرقان / ٤٤]. وقال تعالى أيضا: (أرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) [الجاثية / ٢٤].

الاستشفاء بقوله تعالى: (وأضله الله على علم) فلنأخذ هنا الاستشفاء من هذه الآية الكريمة ونتدبر معناه فنقول: معنى قوله تعالى: (أرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم) (أي ألا تعجب ممن يعبد هواه بإطاعته واتباعه له وهو يعلم إن له إلها غير هوى نفسه وهو الله الذي يجب عليه أن يعبده ويطيعه ولكنه - مع علمه هذا - جعل معبوده ومطاعة هوى نفسه دون الله لذلك كان جزاؤه من الله أن يضله الله مع علمه بوجوب تقديم إطاعة ربه على إطاعة هوى نفسه. ومن هنا نعلم إنه قد يجتمع الضلال مع العلم بالسييل المستقيم ومعرفته ويكون هذا الإنسان مصدقا لقول الله عز وجل: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) [النمل / ١٥].

ذلك لأن العلم لا يلزم الهدى، ولا الضلال يلزم الهدى، بل الذي يلزم الهدى هو العلم مع التزام العالم بمقتضى علمه فيتعقبه حينئذ الاهتداء وأما إذا لم يلتزم العالم بمقتضى علمه لإتباعه الهوى فلا موجب حينئذ لإهتدائه بل هو الضلال وإن كان معه علم.

فالمتبع لهوى نفسه دون اتباعه لربه مع علمه بتقديم اتباع ربه يكون مستحقا بأن يضله الله ولا يهديه، أما كيف يضله الله فهذا يكون من جهة بأن يجعل هذا الإنسان يرى المحاسن، في العقل والشرع - قبائح والقبائح - محاسن والفضائل فيهما رذائل والرذائل فيهما فضائل، ويرى ما هو نافع له مضرا وما هو مضر له نافعا، كل ذلك بسبب إعراضه عن عبادة ربه. قال تعالى: (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون) [النمل / ٥].

ومن جهة أخرى يضله الله بأن يكله إلى نفسه وشيطانه فيحسن له الشيطان كل قبيح ويقبح له كل حسن ويعده ويمنيه على مستقبله كذبا وزورا. قال أمير المؤمنين (ع) في بعض خطبه: الشيطان موكل به يزهى له المعصية ليرتكبها ويبغض له الطاعة ليجتنبها ويمنيه التوبة ليسوفها.

وإلى هذا المعنى يشير القرآن المجيد في العديد من آياته منها قوله تعالى: (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم) [النحل / ٦٤]، ولذلك يستحق هذا الإنسان المنحرف أن يطمس الله ويختتم على منافذ النور منه من سمعه وقلبه ويجعل على بصره غشاوة ليبقى متخبطا في متاهات الضلال لأنه

ترك اتباع الأصل الثابت وهو الله الحق المبين واتبع الهوى المتقلب وهو هوى نفسه الأمانة بالسوء، ولذلك يقول تعالى في خاتمة الآية الكريمة: (وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون .) ومن تذكر صحا وتنبه وتخلص من ربة الهوى وعاد إلى النهج الثابت الواضح الذي لا يضل سالكه.

كم نفوس لها الهوى أرهاها فأحذر أن تتبعن هواها.
خالف النفس إن ترد إحيائها فبنص التنزيل أمانة بالسوء.

ب - إطاعة الإنسان للشيطان مطلقا

ومن مصاديق الطاعة المحرمة إطاعة الإنسان للشيطان المنهي عنها مطلقا بقوله تعالى: (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين (٦٠) وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم (ثم بين لهم جل وعلا العلة في نهيه عن عبادة الشيطان (أي إطاعته) بقوله: (ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون) [يس / ٦١ - ٦٣] ومعنى جبلا أي خلقا وعنى أضل أي أتاه إذ الضال هو التائه الذي لا يعرف طريقه فهو بدعوته وأوامره يضل خلقا كثيرا ولذلك كانت إطاعته محرمة، وعلة أخرى لتحريم إطاعته هي كونه عدو للإنسان (إنه لكم عدو مبين) والعدو لا يريد إلا الضرر بعدوه فعلينا إذا أن نحذره أشد الحذر، وقد

أخبرنا الله عز وجل في آية أخرى عن عداوته وحذرنا من متابعتة وأخبرنا عن هدفه بدعوته وهي جرننا معه إلى عذاب النار فقال تعالى: (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) [فاطر / ٧].

ج - إطاعة رؤساء الكفر والضلال فيما يخالف أمر الله ومن مصاديق الطاعة المحرمة إطاعة رؤساء الكفر والضلال فيما يخالف أمر الله قال تعالى: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) [النحل / ٣٧] أي اجتنبوا عبادة الطاغوت.

والطاغوت مفرد ويراد به الجمع وهم كل متبوع لا يرضى الله باتباعه وفي طليعتهم الرؤساء الطغاة الذين لا هم لهم إلا تثبيت أركان ملكهم وسلطانهم وسيطرتهم على الشعوب المستضعفة علوا واستكبارا.

ولذلك لا تجوز الطاعة ولا الخضوع لهم ولأوامرهم ودعوتهم إلا فيما دعا إليه الرسول المرسل من قبل الله عز وجل وبذلك يكون الإنسان عابدا لربه لا لهم، أما الطاعة والخضوع لهم من دون الرجوع إلى أوامر الله ودعوة رسله فهو عبادة وتأليه لهم واتخاذهم أولياء له من دون الله. ومعلوم إن المعبود والإله والولي الحقيقي والواقعي هو الله لا غير وبيده الأمور كلها لا بيد غيره إلا من باب التملك المؤقت الزائل الذي يمدهم الله به اختبارا وامتحانا لهم ولمتبعيهم، فالله هو المعبود وهو مالك الملك، ولكن قسما من الناس من عبدة الهوى والشيطان - مع علمهم بذلك - اتخذوا لهم

أولياء من الطغاة والمستكبرين من رؤساء الكفر والضلال خلافا للحق والحقيقة فكانت عاقبتهم - معا من التابع والمتبوع - الخسران والذل والهوان في الدارين دنيا وآخرة قال تعالى في أواخر سورة مريم: (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا (٨١) كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا (٨٢) ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا (٨٣) فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا (مريم / ٨٢ - ٨٥).

تعليق وتفسير لآيات من سورة مريم في الموضوع

هذه أربع آيات من سورة مريم ترتبط بعضها ببعض قد نشاهد مصاديقها بالوجدان والعيان ولكننا نغفل عن ذلك، الآية الأولى تقول: (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا (والمراد من الآلهة هنا كل متبوع ومطاع من دون الله على ما يقول المفسرون، وفي طليعة أولئك الآلهة رؤساء الكفر والضلال من الناس الذين يخدعون الشعوب المستضعفة بحيلهم ومكرهم وخداعهم وينسبونهم إليهم بأنهم شعوب لهم مكرًا وخداعًا فيخدع الكثير من تلك الشعوب بهم ويتخذونهم آلهة يخضعون لهم ويطيعونهم ويؤيدونهم ليعتزوا وينتصروا بهم باعتبار إن بيدهم القوة والسلطان ووسائل الإعلام لذلك قال تعالى: (ليكونوا لهم عزا (فجاء الجواب لهم بالنفي المؤكد لما كانوا يزعمون من تحصيل العزة بسببهم بالآية الثانية فقال: (كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا (وظاهر السياق أن ضميري (سيكفرون (و (يكونون (راجعان إلى الآلهة وضميري (بعبادتهم (و (عليهم (راجعان إلى متبعيهم الذين اتخذوهم آلهة من دون الله وأطاعوهم فيما دعوهم إليه.

قال الإمام الصادق (ع): ليست العبادة هي السجود ولا الركوع وإنما هي طاعة الرجال، ومن أطاع مخلوقا في معصية الخالق فقد عبده (١). ومعنى الآية: ستكفر الآلهة بعبادة متبعيهم وأخيرا ستكون الآلهة ضدهم ومعادين لهم، وهكذا الآلهة من الرؤساء أنفسهم أيضا يتبع الأضعف منهم الأقوى ويتخذها إلهة له وأخيرا سيكفر الأقوى بالأضعف ويكون ضده، ذلك لأنهم يبنون قضاياهم على مصالحهم الشخصية الدنيوية دون وازع ورادع من دين أو ضمير. ولم تذكر الآية متى تكون الآلهة ضد متبعيها، هل هذه الضدية تكون في الدنيا أم في الآخرة؟ والظاهر إنها ستكون في الدنيا أولا وفي الآخرة ثانيا لذلك قال: (سيكفرون) (وما قال: سوف يكفرون، حيث تستعمل السين للقريب وسوف للبعيد، وهذا ما يشاهد في العيان والوجدان أن الطغاة شأنهم دائما الغدر والخيانة والإذلال للمستضعفين وتفريق كلمتهم وتمزيق وحدتهم - باسم الوحدة - لتتم السيطرة عليهم كما قيل: (فرق تسد) ولذلك قال تعالى في الآية الثالثة: (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا) (فقوله: (ألم تر) يفيد معنى الاستشهاد بالرؤية العينية أو العينية والقلبية، وقوله: (أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا) (لعل المراد من الشياطين شياطين الأنس والجن لا شياطين الجن فقط ويؤيد ذلك قوله تعالى في آية أخرى: (شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) [الإنعام / ١١٣] فهؤلاء الشياطين يرسلهم الله - بمشيئته - إرسالا تكوينيا لا تشريعا على الكافرين من التابعين والمتبوعين على طريق المجازاة لهم على

(١) راجع (تفسير القمي) ج ٢، ص ٥٥.

كفرهم فيجازيهم بزيادة الكفر والضلال والشياطين تؤزهم أزا أي تهيجهم تهيجا وتحركهم تحريكا شديدا على الكفر والضلال وتهيج بعضهم على بعض بالاعتداء والضدية والشر والفساد.

أحاديث توضيحية في الموضوع

ويوضح هذا المعنى ما جاء في بعض الأحاديث الشهيرة إنه: من استعان بغير الله ذل، وان من أعان ظالما على ظلمه سلطه الله عليه. وجاء في بعض الأحاديث القدسية إن الله تعالى يقول: الظالم سيفي أنتقم به وانتقم منه. ويقول نبينا محمد (ص): لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر والتقوى فإذا لم يفعلوا ذلك رفعت عنهم البركات وسلط بعضهم على بعض ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء.

هذا جزاؤهم في الدنيا، وفي الآخرة يبرأ بعضهم من بعض ويعاتب بعضهم بعضا وأخيرا يكون مصير الجميع إلى النار والعذاب بعد دقة الحساب.

يقول تعالى مبينا حال الظالمين من التابعين والمتبوعين في سورة سبأ: (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين (٣١) قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين (٣٢) وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا

الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون (سبأ / ٣٢ - ٣٤) (١).

وأشار الله تعالى إلى سوء عاقبة هؤلاء الكافرين في الآخرة في الآية الرابعة من الآيات المبسووث عنها من سورة مريم بقوله: (فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا (أي لا يضق صدرك بهم فإنهم ممهلون إلى أجل قريب فإننا نعد عليهم أنفاسهم وأعمالهم عدا دقيقا، فيا ويل من يعد الله عليه أنفاسه وذنوبه ويتبعها كلها ليحاسبه عليها الحساب العسير ويصيره أخيرا إلى عذاب السعير).

إنه لتصوير رهيب بسوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة يقول تعالى: (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير (١٣) إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم (أي في الدنيا) ويوم القيامة يكفرون بشركم ولا ينبئك مثل خبير (فاطر / ١٤ - ١٥).

والآيات القرآنية التي تستعرض عبادة الطواغيت المستكبرين وخياناتهم وسوء عواقبهم في الدارين كثيرة جدا وما ذكرناه فيه الكفاية لمن تدبر واعتبر.
د - إطاعة الأحرار والرهبان وعلماء السوء المخالفين لحكم الله

(١) نرى في هذا النص القرآني " بل مكر الليل والنهار " إشارة إلى وسائل الإعلام الحديثة التي بسببها يواصل الظالمون مكرهم دائما بلا انقطاع ليلا ونهارا، والله أعلم.

ومن مصاديق الطاعة المحرمة إطاعة الأحرار والرهبان وعلماء السوء وحكامهم الذين قد يحرمون حلالا ويحللون حراما والذين يحكمون بغير حكم الله وان تسموا باسم الإسلام أو بغير الإسلام من الأديان الأخرى، إذ ان كل حكم يخالف حكم الله عز وجل يعد كفرا وشركا بالله وعبادته في جميع الأديان السماوية وبحكم الأدلة الأربعة كتابا وسنة وإجماعا وعقلا قال تعالى في سورة المائدة: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون (٤٤) وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون (المائدة / ٤٥ - ٤٦)).

وقال بعد آية أخرى منها: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون .) فانظر كيف حكمت هذه الآيات الثلاث على من لم يحكم بحكم الله بأنهم كافرون وظالمون وفاسقون، هذا بالنسبة إلى الحكام أنفسهم أما إطاعتهم فيما حكموا به مما خالفوا فيه حكم الله فهو عبادة لهم من دون الله وشركا في العبادة وقد نهى الله عنه أشد النهي في العديد من الآيات قال تعالى في أول سورة الأحزاب (بسم الله الرحمن الرحيم (١) يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما (وقال أيضا جل شأنه: (فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا (الإنسان / ٢٥)).

الأحاديث الناهية عن إطاعة من أمر بمعصية الله

أما الأحاديث في ذلك فهي أكثر من ان تحصي، منها ما جاء في الحديث الشهير المتفق عليه الوارد عن النبي (ص) وأهل بيته وأصحابه الكرام أنهم قالوا: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وجاء هذا النص أيضا في نهج البلاغة للإمام علي أمير المؤمنين (ع) وإليك ما شرحه وعلق عليه ابن أبي الحديد في شرحه قال بما نصه: هذه الكلمة قد رويت مرفوعة (أي عن النبي (ص)) وجاء في كلام أبي بكر (رض):
أطيعوني ما أطعت الله فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم.

موقف جرى لصحابي مع معاوية

ثم قال ابن أبي الحديد: قال معاوية لشداد بن أوس (وهو أحد الصحابة الذين أوتوا العلم والحلم (١) قال له: قم فأذكر عليا فانتقصه، فقام شداد فقال: الحمد لله الذي افترض طاعته على عباده وجعل رضاه عند أهل التقوى أأثر من رضا غيره، على ذلك مضى أولهم وعليه مضى آخرهم، ثم قال: أيها الناس ان الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر (وهو الله) وان الدنيا أكل حاضر يأكل منها البر والفاجر وان السامع المطيع لله لا حجة عليه وان السامع العاصي لا حجة له وانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وإذا أراد الله بالناس خيرا استعمل عليهم

(١) شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي الأنصاري ابن أخي حسان بن ثابت شاعر النبي (ص) يكنى أبا يعلى، نزل الشام بناحية فلسطين ومات بها سنة ثمان وخمسين وهو ابن خمس وسبعين سنة، وقال فيه أبو الدرداء: إن أبا يعلى شداد بن أوس ممن آتاه الله العلم والحلم، وقال سعيد بن عبد العزيز: وفضل شداد بن أوس الأنصاري بخصلتين بيان إذا نطق ويكظم إذا غضب، وجاء في ترجمته إنه كانت له عبادة واجتهاد في العمل. راجع ترجمته في (الإصابة) لابن حجر العسقلاني ج ٢ ص ١٣٨، و (الاستيعاب) لابن عبد البر ج ٢ ص ١٣٤ ط مصطفى محمد بمصر.

صلحاءهم وقضى بينهم فقهاؤهم وجعل المال في سمحائهم، وإذا أراد بالعباد شرا عمل عليهم سفهاؤهم وقضى بينهم جهلاؤهم وجعل المال عند بخلائهم، وان من صلاح الولاة ان يصلح قرباها

ثم التفت إلى معاوية فقال: نصحك يا معاوية من أسخطك بالحق، وغشك من أرضاك بالباطل، فقطع معاوية عليه كلامه وأمر بإنزاله ثم لطفه وأمر له بمال فلما قبضه قال له: الست من السمحاء الذين ذكرت؟ فقال: إن كان لك مال غير مال المسلمين أصبته حالالا وأنفقته إفضالا فنعم، وان كان مال المسلمين احتجبتهم دونهم أصبته اقترافا وأنفقته إسرافا فإن الله يقول: (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) (الإسراء / ٢٨) [١].

حقا لقد وقف هذا الصحابي الجليل موقفا جريئا أمام معاوية وأمام مجلسه وأبان الحق في وجوب تقديم طاعة الله الخالق على طاعة غيره من المخلوقين، وما أعطى معاوية ما أراد منه من انتقاص علي أمير المؤمنين وأخيرا شاء الله أن يحظى هذا الرجل بالسلامة من معاوية بل حظي - بموقفه ذاك - بخير الدنيا والآخرة لأنه كان مع الله، ومن كان مع الله كان الله معه، قال عز من قائل: (واعلموا أن الله مع المتقين) (التوبة / ٣٨).

ومن الأحاديث الناهية عن إطاعة من يأمر بمعصية الله قوله (ص): "السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة" (٢).

(١) (شرح النهج) لابن أبي الحديد ج ٤ ص ٣٢٢.

(٢) راجع كتاب (نظام الحكم والإدارة في الإسلام) للعلامة الشيخ باقر القرشي ص ٥٤ وص ٢٤٨.

وقال (ص): " إنما الطاعة في المعروف فمن أمر بمعصية فلا تطيعوه " (١).
ومنها ما ورد عن الإمام الباقر (ع) إنه قال: لا دين لمن دان بطاعة من عصى الله، لا تسخطوا الله برضا أحد من خلقه ولا تتقربوا إلى أحد من الخلق بالتباعد من الله عز وجل فإن الله ليس بينه وبين أحد شيء يعطيه به خيرا أو يصرف عنه سوءا إلا بطاعته وابتغاء مرضاته وإن طاعة الله مفتاح كل خير يبتغى ونجاة من كل شر يتقى وإن الله يعصم من أطاعه ولا يعتصم منه من عصاه ولا يجد الهارب منه مهربا (٢)، وروى المحدثون الثقة بأسانيدهم عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده (ع) إنه قال: أن رجلا من أهل الكوفة كتب إلى الحسين بن علي (ع) يقول: يا سيدي أخبرني بخير الدنيا والآخرة، فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإنه من طلب رضا الله بسخط الناس كفاه الله أمور الناس ومن طلب رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، والسلام (٣).

إيضاح وتعليق لحديث الحسين (ع)
أقول ما أبلغ هذا الجواب من سيد شباب أهل الجنة وما أصدقه على هذا السؤال، يقول السائل: أخبرني عن خير الدنيا والآخرة فيجيبه (ع): بأن من طلب رضا الله بسخط الناس كفاه الله شر الناس وذلك لأن طلب رضا الله أعلى شيء يحظى به العبد في دنياه وأخراه ويؤيده قول الله عز وجل: (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين

(١) المصدر السابق ص ٢٤٨.

(٢) نقلنا الحديث عن كتاب (محاضرات في تفسير القرآن) للسيد إسماعيل الصدر، ص ٤٧.

(٣) راجع (أمالي الصدوق) مجلس ٣٦ ص ١٢١، و (الاختصاص) للمفيد ص ٢٢٠، ونقله عنه المجلسي في (البحار) ج ٧٨ ص ١٢٦.

فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ([التوبة / ٧٣].

فأنظر كيف جعل الله رضوانه أكبر من الجنة ونعيمها والخلود في مساكنها الطيبة. هذا مقام رضا الله وقطعا لا يحظى به إلا من قدم رضاه على رضا غيره، هذا في الآخرة وأما في الدنيا فإن طالب رضا الله المقدم له على رضا خلقه يكفيه الله بمشيئته شر الناس من خلقه وإذا كفاه الله شرهم فقد حظي بخير الدنيا والآخرة معا.

وبهذا صرح الإمام الباقر (ع) في الحديث السابق بقوله: فإن الله ليس بينه وبين أحد شيء يعطيه به خيرا أو يصرف عنه سوءا إلا بإطاعته وابتغاء مرضاته وان طاعة الله مفتاح كل خير يبتغى ونجاة من كل شر يتقى.. الخ.

ه - إطاعة أهل الدنيا عبادة لها ولأموالها

ولكن هنا يأتي دور النفس الأمارة بالسوء التي هي العدو الأكبر لصاحبها على ما ورد عن النبي (ص) إنه قال: أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك (١).

ويأتي دور عبادة الدنيا وأموالها وزخارفها الفانية فتوسوس له حينئذ نفسه - بإعانة الشيطان العدو الثاني للإنسان - بأن الدنيا خير عاجل

(١) (مجمع البحرين) للطريحي ص ١٩٣، و (البحار) ج ٧٠ ص ٦٤ نقلا عن (عدة الداعي).

حاضر وهي الآن بأيدي هؤلاء الملوك والحكام فأطعمهم وأيدهم حتى تنال من دنياهم فيستجيب لنفسه وشيطانه فيكون أخيرا عبدا للدنيا ولمن بيده شيء منها بعدما كان عبدا لنفسه وشيطانه، وقطعا كل هؤلاء أعداء له والأعداء شأنهم أخيرا الغدر والخيانة كما هو معلوم وبذلك يكون قد خسر الدنيا قبل الآخرة.

وهنا يتجلى لك قول الإمام الحسين (ع) في بقية جوابه: ومن طلب رضا الناس بسخط الله وكله إلى الناس وإذا وكله الله إلى الناس فلا يحظى بعدها إلا بالعناء والتعب وبخسران الدنيا والآخرة.

كما جاء في الحديث القدسي المروي عن الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين (ع): أوحى الله إلى داود (ع): يا داود تريد وأريد ولا يكون إلا ما أريد، فإن سلمت لما أريد أعطيتك مما تريد وان لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد (١).

وقال رسول الله (ص): من كانت الآخرة همه كفاه الله هم دنياه ومن كانت الدنيا همه وكله الله إليها وقال أمير المؤمنين في بعض خطبه بعد وصفه نعيم الجنة في الآخرة، قال: أقبلوا على جيفة (يعني الدنيا) قد افتضحوا بأكلها واصطلحوا على حبها، ومن عشق شيئا أعشى بصره وأمراض قلبه فهو ينظر بعين غير صحيحة ويسمع بأذن غير سمیعة قد خرقت الشهوات عقله وأماتت الدنيا قلبه (أي روحه) وولته عليها نفسه فهو عبد لها ولمن بيده شيء منها حيثما زالت زال إليها وحيثما أقبلت أقبل عليها لا يزدجر من الله بزاجر ولا يتعظ منه بواعظ وهو يرى المأخوذین

(١) راجع (كتاب التوحيد) للشيخ الصدوق، ص ٢٤٦.

على الغرة (أي على الغفلة) حيث لا إقالة ولا رجعة، كيف نزل بهم ما كانوا يجهلون وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون وقدموا من الآخرة على ما كانوا يوعدون... إلى آخر الخطبة (١).

وأوحى الله تبارك وتعالى إلى داود (ع): يا داود ان مثل الدنيا عندي كمثل جيفة اجتمعت عليها الكلاب يجرونها أفتحب أن تكون كلبا مثلهم فتجر معهم (الخطاب لداود والمقصود عبدة الدنيا).

ولقد أجاد الإمام الشافعي حيث يقول: (٢)
وسيق إلينا عذبا وعذابها كما لاح في أرض الفلاة سراها عليها كلاب همهن اجتذابها
وان تجذبها نازعتك كلابها.

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها فلم أرها إلا غرورا وباطلا وما هي إلا جيفة مستحيلة فإن
تجتنبها كنت سلما لأهلها.

نعم هذه هي الدنيا وهذه هي حقيقتها جيفة مستحيلة إلى هياكل مغرية وطالبوها -
بدون الرجوع إلى الله وإلى دينه الحق - كلاب مفترسة ولكن ويا للأسف الكثير من
الناس قد عبدوها من دون الله الخالق المتعال الذي بيده الدنيا والآخرة، قال تعالى:
(وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه
سبحانه وتعالى عما يشركون) [الزمر / ٨٦]. قال إمامنا الحسين (ع) عند نزوله إلى
كربلاء

(١) (نهج البلاغة) ص ٢٢٥ شرح محمد عبدة.

(٢) ديوان الإمام الشافعي، ص ٢١.

معربا عن واقع أكثر الناس الذين يدعون الإسلام فضلا عن غيرهم قال: الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معائشهم فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون (١).

تفسير وإيضاح لآية: (ومن الناس من يعبد الله على حرف)
وقول الإمام الحسين (ع) هذا يمكن أن يقال عنه أنه آية حسينية مستمدة من آية قرآنية إلهية وهي قوله تعالى في سورة الحج: (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) [الحج / ١٢].

فإن قول الحسين: الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم فيه إشارة إلى قوله تعالى: (ومن الناس من يعبد الله على حرف (وقوله (ع): يحوطونه ما درت معائشهم، فيه إشارة إلى قوله تعالى: (فإن أصابه خير اطمأن به (وقوله (ع): فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون، فيه إشارة إلى قوله تعالى: (وإن أصابته فتنة - أي محنة - انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين).
لكن في الآية القرآنية تمثيل حسي رائع لمن كانت عبادته مزيفة الهدف منها الدنيا وزخارفها وأموالها لأن قوله تعالى: (ومن الناس من يعبد الله على حرف (الحرف لغة هو الطرف والجانب من الشيء ففيه التمثيل الحسي لمن كان يتظاهر بالعبادة لله وغرضه منها الدنيا فهذا مثله

(١) راجع (البحار) ج ٤٤ ص ٢٨٣.

كمن وقف على طرف الجبل لا في وسطه إذ لو وقف على وسطه وأصابه عارض من هواء عاصف يسقطه أو عدو يدفعه يستطيع أن يقوم ويستقيم أما إذا وقف على طرف الجبل وأصابه عارض من هواء أو عدو أو غير ذلك فإنه يسقط إلى الوادي السحيق على وجهه.

هكذا مثلت الآية الكريمة هؤلاء المزيفين في عبادتهم، ومن الناس من يعبد الله على حرف نعم على حرف واحد وهو - بزعمه - خير لنفسه والحال هذا الحرف الذي اعتمده هو الذي يهلكه حيث جعل عبادته لربه كصفقة في سوق التجارة الدنيوية فإن أصابه خير في دنياه اطمأن به وقال إن ديننا فيه الخير فها هو يجلب النفع ويدر الضرع وينمي الزرع ويكفل الرواح وان أصابته فتنة وابتلاء لم يتماسك له انقلب على وجهه خاسرا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

إن حساب الربح والخسارة يصلح للتجارة الدنيوية فقط ولكنه لا يصلح أن يكون في طريق عبادة العبد لربه يجب أن تكون خالصة له تعالى والله هو الذي يجزي عباده بما شاء طبق حكمته وتفضله منه عليهم ولا يكون ذلك الجزاء إلا بعد استسلام المخلوق لخالقه الذي هو مصدر وجوده من الأساس وهو ربه ورب كل شئ قال تعالى: (رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) (مريم / ٦٦).
الرياء في عبادة الله عبادة لخالقه لا له تعالى

وممن يعبد الله على حرف الذين يعبدون الله بزعمهم وهم يراؤون الناس بعبادتهم لطلب المنزلة والسمعة في قلوبهم بما يقومون به من أعمال

البر والعبادة وهذا هو المعبر عنه بلسان الشرع ب (الرياء) وهو محرم في كافة الشرائع الإلهية.

ذم الرياء في الكتاب والسنة

بل يعد الرياء من كبائر الذنوب الموبقة والمعاصي المهلكة وقد تعاضدت الآيات والأحاديث على ذمه وقبحه، فمن تلك الآيات قوله تعالى:

(فويل للمصلين (٤) الذين هم عن صلاتهم ساهون (٥) الذين هم يراءون (٦) ويمنعون الماعون (الماعون / ٥ - ٨). (أي يأتون بالعبادات لمراءات الناس ويمنعون كل ما يعين الغير في رفع حاجياتهم من أنواع المعروف الذي يطلبونه أو يستعيرونه).

ومنها قوله تعالى: (كالذي ينفق ماله رياء الناس (البقرة / ٢٦٥) وقوله عز من قائل في وصف المنافقين: (يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (النساء / ١٤٣).

ويسمى الرياء الشرك الخفي أو الشرك الأصغر. قال رسول الله (ص): إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول الله عز وجل يوم القيامة للمرائين إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون لهم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء؟

وقال (ص): ويقول الله تعالى: من عمل لي عملا أشرك فيه غيري فهو له كله وأنا منه بريء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك (١).

(١) الحديث الأول والثاني في (جامع السعادات) للنراقي ج ٢ ص ٣٧٥ - ٣٧٦.

وقال (ص): إن ربكم يقول: أنا خير شريك فمن أشرك في عمله أحدا غيري تركت العمل كله له ولم أقبل إلا ما كان خالصا، ثم قرأ (ص): (فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) [الكهف / ١١١] (١).
وقال (ص): سيأتي على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم وتحسن فيه علانيتهم طمعا في الدنيا، لا يريدون به ما عند ربهم، يكون دينهم رياء، لا يخالطهم خوف، يعمهم الله بعقاب، فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجيب لهم (٢). إلى غير ذلك مما ورد في ذم الرياء عن النبي وأهل بيته الأطهار.

خاتمة البحث الرابع

ولنختتم هذا البحث الخاص بشفاء القرآن للأمراض الروحية في العبادات بخطبة جلييلة للإمام علي أمير المؤمنين (ع) تشتمل على بيان أنواع العبادات الباطلة والدعوة إلى الإخلاص بعبادة الله عز وجل والتي يذكر فيها بعثة النبي (ص) والأهداف منها ومدح القرآن الذي أنزل عليه وأنه يفرق به بين الحق والباطل ويستعرض فيها أخبار وأوصاف أهل آخر الزمان في مكرهم ومنكراتهم ويحث فيها على اتباع أئمة الهدى والإرشاد إلى غير ذلك مما تضمنته هذه الخطبة الجلييلة من المعارف الحقة التي يدل على صحتها الوجدان والعيان نذكرها كلها بنصها ليعتبر فيها من اعتبر فإن فيها الشفاء من أكبر الأدواء.

(١) (الدر المنثور) للسيوطي ج ٤ ص ٢٥٥ ونقله عنه الطباطبائي في (الميزان) ج ١٣ ص ٤٣٨.

الاستشفاء بخطبة رائعة لأمير المؤمنين (ع) في الموضوع وفي وصف أهل آخر الزمان وروى الشيخ الكليني في (روضة الكافي) بسنده أن أمير المؤمنين (ع) خطب بذي قار فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن الله تبارك وتعالى بعث محمدا (ص) بالحق ليخرج عباده من عبادة عباده إلى عبادته ومن عهود عباده إلى عهوده ومن طاعة عباده إلى طاعته ومن ولاية عباده إلى ولايته بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وبدءا وعذرا ونذرا، بحكم قد فصله وتفصيل قد أحكمه وفرقان قد فرقه وقرآن قد بينه ليعلم العباد ربهم إذ جهلوه وليقروا به إذ جحدوه وليثبتوه إذ أنكروه فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه فأراهم حلمه كيف حلم واراهم عفوه كيف عفا واراهم قدرته كيف قدر وخوفهم من سطوته وكيف خلق ما خلق من الآيات وكيف محق من محق من العصاة بالمثلات واحتصد من احتصد بالنقمات وكيف رزق وهدى وأعطى واراهم حكمه كيف حكم، وصبر حتى يسمع ما يسمع ويرى فبعث الله عز وجل محمدا (ص) بذلك.

ثم إنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس في ذلك الزمان شئ أخفى من الحق ولا أظهر من الباطل ولا أكثر من الكذب على الله تعالى ورسوله (ص) وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته ولا سلعة أنفق بيعا ولا أغلى ثمنا من الكتاب إذا حرف عن مواضعه وليس في العباد ولا في البلاد شئ أنكروا من المعروف ولا أعرف من المنكر وليس فيها فاحشة أنكروا ولا عقوبة أنكى من الهدى عند

الضلال في ذلك الزمان، فقد نبذ الكتاب حملته وتناساه حفظته حتى تمازت بهم الأهواء وتوارثوا ذلك من الآباء وعملوا بتحريف الكتاب كذبا وتكديبا فباعوه بالبخس وكانوا فيه من الزاهدين.

فالكتاب وأهل الكتاب في ذلك الزمان طريدان منفيان وصاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤو فحبذا ذاك الصاحبان واهما لهما ولما يعملان له فالكتاب وأهل الكتاب في ذلك الزمان في الناس وليسوا فيهم ومعهم وليسوا معهم وذلك لأن الضلالة لا توافق الهدى وان اجتماعا.

وقد اجتمع القوم على الفرقة وافترقوا عن الجماعة قد ولوا أمرهم وأمر دينهم من يعمل فيهم بالمكر والمنكر والرشا والقتل كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم لم يبق عندهم من الحق إلا اسمه ولم يعرفوا من الكتاب إلا خطه وزبره يدخل الداخل (أي في الدين) لما يسمع من حكم القرآن فلا يطمئن جالسا حتى يخرج من الدين ينتقل من دين ملك إلى دين ملك ومن ولاية ملك إلى ولاية ملك ومن طاعة ملك إلى طاعة ملك ومن عهد ملك إلى عهد ملك فاستدرجهم الله من حيث لا يعلمون وان كيده متين بالأمل والرجاء حتى توالدوا في المعصية ودانوا بالجور، والكتاب لم يضرب عن شيء منه صفحا ضلالا تائهيين قد دانوا بغير دين الله عز وجل وأدانوا لغير الله، مساجدهم في ذلك الزمان عامرة من الضلالة خربة من الهدى فقراؤها وعمارها أحناب خلق الله وخليقته، من عندهم جرت الضلالة وإليهم تعود فحضور مساجدهم والمشى إليها كفر بالله العظيم إلا من مشى إليها وهو عارف بضلالتهم فصارت مساجدهم من فعالهم على

ذلك النحو خربة من الهدى عامرة من الضلالة قد بدلت سنة الله وتعدت حدوده ولا يدعون إلى الهدى ولا يقسمون الفيء ولا يوفون بذمة، يدعون القتل منهم شهيدا على ذلك قد أتوا بالافتراء والجحود واستغنوا بالجهل عن العلم ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثلة، وسموا صدقهم على الله فرية وجعلوا في الحسنة العقوبة السيئة.

وقد بعث الله عز وجل إليكم رسولا من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم وانزل عليه كتابا عزيزا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد قرآنا عربيا غير ذي عوج لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، فلا يلهينكم الأمل ولا يطولن عليكم الأجل فإنما أهلك من كان قبلكم أمد أملمهم وتغطية الآجال عنهم حتى نزل بهم الموعود الذي ترد عنه المعذرة وترفع عنه التوبة وتحل معه القارعة والنقمة، وقد أبلغ الله عز وجل إليكم بالوعد وفصل لكم القول وعلمكم السنة وشرح لكم المناهج ليزيح العلة وحث على الذكر ودل على النجاة وانه من انتصح الله واتخذ قوله دليلا هداه للتي هي أقوم ووقفه للرشاد وسدده ويسره للحسنى فإن جار الله آمن محفوظ وعدوه خائف مغرور فاحترسوا من الله عز وجل بكثرة الذكر واخشوا منه بالتقى وتقربوا إليه بالطاعة فإنه قريب مجيب. قال الله عز وجل: (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) [البقرة / ١٨٧] فاستجيبوا لله وآمنوا به وعظموا الله الذي لا ينبغي لمن عرف عظمة الله ان يتعظم، فإن رفعة الذين يعلمون ما عظمة الله ان يتواضعوا له، وعز الذين يعلمون ما جلال

الله أن يذلوا له وسلامة الذين يعلمون ما قدرة الله أن يستسلموا له فلا ينكرون أنفسهم بعد حد المعرفة ولا يضلون بعد الهدى فلا تنفروا من الحق نفار الصحيح من الأجر والبارئ من السقيم وأعلموا انكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه ولن تتلوا الكتاب حق تلاوته حتى تعرفوا الذي حرفه ولن تعرفوا الضلالة حتى تعرفوا الهدى ولن تعرفوا التقوى حتى تعرفوا الذي تعدى فإذا عرفتم ذلك عرفتم البدع والتكلف ورأيتم الفرية على الله وعلى رسوله والتحريف لكتابه ورأيتم كيف هدى الله من هدى فلا يجهلنكم الذين لا يعلمون.

إن علم القرآن ليس يعلم ما هو إلا من ذاق طعمه فعلم بالعلم جهله وبصر به عماه واسمع به صممه وأدرك به علم ما فات وحيى به بعد إذ مات وأثبت عند الله عز ذكره الحسنات ومحا به السيئات وأدرك به رضوانا من الله تبارك وتعالى فاطلبوا ذلك من عند أهله خاصة فإنهم خاصة نور يستضاء به أئمة يقتدى بهم وهم عيش العلم وموت الجهل وهم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم وصمتهم عن منطقتهم وظاهرهم عن باطنهم لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه فهو بينهم شاهد صادق وصامت ناطق فهم من شأنهم شهداء بالحق ومخبر صادق لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه قد حلت لهم من الله السابقة ومضى فيهم من الله عز وجل حكم صادق وفي ذلك ذكرى للذاكرين.

فأعقلوا الحق إذا سمعتموه عقل رعاية ولا تعقلوه عقل رواية فإن رواة الكتاب كثير ورعاته قليل والله المستعان (١).

(وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد) [الحج / ٢٥].

البحث الخامس: -

شفاء القرآن للأمراض الروحية في الأخلاق الذميمة

قال عز من قائل: (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا).

ذكرنا في البحث السابق ما تيسر لنا ذكره من شفاء القرآن للأمراض الروحية في العبادات الفاسدة وما يتعلق بها، ونذكر الآن شفاءه للأمراض الروحية في الأخلاق الذميمة وما يتعلق بها فنقول:

أما كون القرآن شفاء للأمراض الروحية في الأخلاق الذميمة فالقرآن - كما هو معلوم - مشتمل على تفصيلها وتحريمها والنهي عنها وتعريف ما فيها من المفسد والأضرار الكثيرة المنوعة، كما اشتمل القرآن أيضا على الإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن والآداب المحمودة مع الله تعالى ومع النفس والأسرة والمجتمع الإنساني كله.

(١) راجع الخطبة في روضة الكافي للشيخ الكليني ص ٣١٧ - ٣٢٠، ونقلها عنه المجلسي في البحار ج ٧٧ ص ٣٦٥ - ٣٧٠ وفيه شرح بعض فقراتها وكلماتها.

ولا يسعنا قطعاً استيعاب هذا العلم - علم الأخلاق - الباحث في محاسن النفس
ومساوئها والحث على التحلي بالأولى والتخلي عن الثاني، وإنما نذكر ما تيسر لنا منه
والله المعين.

الأخلاق الحسنة والسيئة ومكانتهما في الفرد والمجتمع
ولا شك ان الأخلاق الفاضلة هي الدعامة الأولى لحفظ كيان الأمم، بل لا تستقيم
الأمم سالمة إلا بها كما قال الأديب الشهير احمد شوقي: (١)

فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت.

وقال الآخر:

فأقم عليهم مأتما وعويلا.

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم.

ولهذا اتفقت كلمة الباحثين والفلاسفة على وجوب الأخلاق الحسنة للفرد لصالح نفسه
وللمجتمع في جملته وعلى حرمة الأخلاق السيئة أيضا للفرد والمجتمع بأسره، إذ أن
الفرد كما يضره ويفسد من أعماله إذا كان دجالا كاذبا مرائيا حسودا شريرا ماكرا
نماما متكبرا ظالما باغيا.. الخ، كذلك تفسد المجتمعات بشيوع هذه الصفات في
آحادها.

وقد زخر التاريخ العالمي والإسلامي بأحداث مؤسفة صدرت من أفراد وجماعات
قديما وحديثا دلت بوضوح على ان فساد الأخلاق وتفسخها كان معولا هداما في
تقويض صروح الحضارات العامة

(١) راجع (تفسير المنار) ج ١٠ ص ٤٤.

والخاصة وانهيار الكثير من الدول والممالك وإشاعة الفرقة والاختلاف في الأمم والشعوب.

كل ذلك كان ويكون من أولئك المفسدين أفرادا وجماعات خلافا لأهداف بعثة نبينا نبي الرحمة محمد (ص) الذي جعل علة بعثته الدعوة إلى مكارم الأخلاق حيث قال (ص): إنما بعثت لأتمم مكارم الخلاق. وأخلاقه (ص) التي جاء بها وبعث من أجلها كلها ماثلة في القرآن الذي أنزله الله تعالى عليه، كما كانت تلك الأخلاق السيئة من أولئك المفسدين استجابة لرغبات النفس الأمارة بالسوء وخضوعا للشياطين من الآنس والجن. قال تعالى: (شياطين الآنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون (١١٢) ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون (١١٣) أفغير الله أتبعي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين (الأنعام / ١١٣ - ١١٥).

وجوب التحلي بفضائل الأخلاق والتخلي عن رذائلها ففضائل الأخلاق من المنجيات الموصلة إلى السعادة الأبدية ورذائلها من المهلكات الموجبة للشقاوة السرمدية، فالتخلي عن الثانية والتخلي بالأولى من أهم الواجبات التي توصل الإنسان إلى الحياة الحقيقية وبدونها تستحيل سلامة الحياة وسعادتها في الدارين دنيا وآخرة.

ولذلك يجب على كل عاقل يروم السعادة لنفسه والسلامة لها أن يجتهد - قدر
الإمكان - في اكتساب فضائل الأخلاق التي هي التوسط والاعتدال المبرأ من الإفراط
والتفريط كما قال رسول الله (ص): خير الأمور أوسطها، وقال بعض الأدباء:
وغير هذا غلط.

خير الأمور الوسط.

وعلى العاقل أيضا أن يجتهد في اجتناب رذائل الأخلاق ومساوئها، وما لم تحصل
التخلية لم يسعد أبدا كالمرأة ما لم تذهب الكدورات عنها لا تستعد لارتسام الصور
فيها وكالبدن ما لم تزل عنه العلة لا تتصور له إفاضة الصحة وكالثوب أو القماش ما لم
ينق عن الأوساخ لا يقبل لونا من الألوان.

الأخلاق الذميمة تحجب صاحبها عن المعارف

ذلك لأن الأخلاق الذميمة تحجب صاحبها عن المعارف الإلهية والنفحات القدسية إذ
هي بمنزلة الغطاء للنفوس والحجب لها عن الله وفيوضاته فإذا أزيل هذا الغطاء أو
الحجاب منها استعدت لقبول الفيوضات من رب الأرباب ولم يبق - لشدة القرب
بينهما - حجاب فترتسم فيها حينئذ صور حقائق الموجودات على ما هي عليها ويبقى
صاحبها سائرا على الطريق السوي.

فلا بد إذا من المجاهدة العظيمة للنفس الأمارة بالسوء في تزكيتها والتخلي عن رذائلها حتى تفتح لها أبواب الهداية ويتضح لديها سبيل المعرفة، كما قال تعالى: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) [العنكبوت / ٧٠] (١).

الاستشفاء التفصيلي بأية الظن والتجسس والغيبة من سورة الحجرات قال عز من قائل: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا

الله إن الله تواب رحيم) [الحجرات / ١٣].

الإنسان مدني بالطبع

تشتمل هذه الآية الكريمة من سورة الحجرات على العديد من البحوث التربوية والأخلاقية والاجتماعية التي يجب على الإنسان ان يعرف محاسنها من مساوئها ليتحلى بالأولى ويتخلى عن الثانية حتى يعيش سعيدا بين الناس ويعيش الناس معه أيضا بسعادة وهناء، ذلك لأن الإنسان - كما قيل - مدني بالطبع أي انه لا يستطيع ان يعيش منفردا بل لا بد له من الاجتماع مع أبناء نوعه وجنسه وإذا كان مضطرا للاجتماع مع

(١) لنا تفصيل مهم لهذه الآية في بحوث، ذكرناه في كتابنا "الحقائق الكونية بين الخالق والمخلوق" ج ٢ من ص ١٣٥ - ص ١٦٠ فراجع فإنه مهم في موضوع العقائد والعبادات والأخلاق وله صلة تامة بمواضيع هذا الكتاب.

الآخرين لاحتياجه لغيره واحتياج غيره له وخدمته لهم وخدمتهم له كما قيل:
بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم..

الناس للناس من بدو ومن حاضر.

إذن، يجب عليهم جميعاً - بحكم العقل الذي أوجده الله فيهم - أن يعرف بعضهم حقوق البعض الآخر ويؤدي بعضهم أيضاً حق البعض الآخر لينال كل ذي حق حقه وحينئذ تتعادل النسب والروابط بينهم بالعدل الاجتماعي وتسود فيما بينهم المدنية السليمة المسعدة للجميع.

تشريع الدين على أساس العلم والحق

ولذلك شرع الله تعالى لهم الدين بنظامه المحكم وقوانينه المتقنة على أساس العلم والحق من التوحيد الإلهي الخالص وسائر الاعتقادات الحقة والأخلاق السليمة وسائر المعارف المستقيمة، وأودعه - أي الدين - في كتابه العزيز الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) [فصلت / ٤٣].

وفي سنة نبيه الكريم (ص)، وأورثه بكامله - كتاباً وسنة - حججه على خلقه بعد رسوله (ص) وهم علي والأئمة الأحد عشر من أبنائه"، ولكن ويا للأسف جهل الكثير والكثير من الناس هذا الدين الحنيف وابتعدوا عنه وعن تعاليمه القيمة كما ابتعدوا عن حملته ودعائه إلا من عصم الله ورحم.

الإشارة إلى ما جاء من التعاليم في سورة الحجرات

ومن تلك التعاليم الأخلاقية الاجتماعية التي جاءت في سورة الحجرات من الأخلاق والآداب للعبد مع الله ومع رسوله كما في الآيات الخمسة الأولى منها. ومنها ما يتعلق بالإنسان مع أمثاله من حيث وقوعه في المجتمع الحيوي، ومنها ما يتعلق بتفاصيل الأفراد ومميزاتهم وسائر ملكاتهم، وهو من أهم ما ينتظم به الاجتماع المدني ويهدي الإنسان إلى الحياة السعيدة والعيش الطيب الهنيئ ويتميز به دين الحق من غيره من السنن الاجتماعية القانونية الأخرى.

وتختم السورة بالإشارة إلى حقيقة الإيمان والإسلام وامتنان الله تعالى بما يفيضه على من شاء بالإيمان... اقرأها بتدبر وإمعان وارجع إلى تفسيرها خصوصا في (الميزان) ج ١٨ من ص ٣٣١ - ص ٣٦٤.

وسنشير أثناء بحوث آية الظن والتجسس والغيبة إلى بعض آياتها الأخرى وإيضاح مفادها، كما أننا أضفنا إلى هذا الموضوع إضافات أخرى مهمة في كتابنا (دراسات موضوعية، في بحوث رمضانية) الحلقة ١٤، تحت هذا العنوان (الخطاب في القرآن، ومن وجه إليه) من ص ٦ - ص ١٨.

١ - الإشارة في الخطاب الموجه إلى المؤمنين: -
والبحث الأول من بحوث هذه الآية في الخطاب الموجه إلى المؤمنين بقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا) وقد فصلناه في كتابنا " الصلاة

على النبي وآله في الميزان " في بحث آية الصلاة على النبي (ص) وهو البحث الثالث من بحوثها تحت هذه العناوين: اختصاص الخطاب بالمؤمنين وحكمته، التكليف الإلهية والرسالة لبينا موجهان إلى الناس كافة، عدم صحة أعمال الكافرين وحكمته، اختصاص لفظ الذين آمنوا بهذه الأمة فقط، علي رأس المؤمنين وأميرهم وشريفهم فراجع إذا شئت فإنه مهم ومفيد.

٢ - في اجتناب الظن ومعناه ومجيئه في بعض الآيات: -
والبحث الثاني من بحوثها قوله تعالى: (اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم) (وفيه نقول: بعد ان وجه الله تعالى الخطاب إلى المؤمنين خاصة دون غيرهم من سائر الناس إعزازا وتعظيما لهم، ولأن العبادة لا تصح إلا منهم، بعدها أمرهم باجتنبوا كثيرا من الظن.

ومعنى اجتنبوا الشيء أي اطرحوه جانبا واتركوه وابتعدوا عنه، وقد جاءت هذه الكلمة (اجتنبوا) بصيغة الأمر في عدة آيات من القرآن الكريم منها قوله تعالى: (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور) (الحج / ٣١)، ومنها قوله عز من قائل: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) (النحل / ٣٧)، ومنها قوله عز اسمه: (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) (المائدة / ٩١)، ومنها الآية المبحوث عنها وهي قوله تعالى: (اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم).
وتدلنا مجموع هذه الآيات البيّنات دلالة واضحة على أن الشيء المحرم الذي يؤدي إلى الأضرار والمفاسد العظيمة الكثيرة في الدنيا،

والعقاب والعذاب في الآخرة روحا وجسما يأمرنا الله تعالى أن نجتنبه حفظا منه لنا وشفقة ورأفة علينا من تسرب تلك الأضرار والمفاسد إلى الفرد والمجتمع في الدارين للروح والجسم.

ففي الآية الأولى يقول: (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور) (والأوثان هي الأصنام، فالله يأمرنا أن نجتنب ونبتعد عن عبادتها، وأمره لنا باجتنب أعيانها مع ان المراد حقيقة هو اجتناب عبادتها ذلك للمبالغة في حرمة عبادتها، وقوله: (من الأوثان)) (من) هنا جنسية بيانية أي ان الاجتناب يجب ان يكون من مطلق جنس الأوثان وأعيانها من جماد أو حيوان أو إنسان، ومن هنا جاء في بعض الروايات ان اللعب بالشطرنج والنرد وسائر أنواع القمار من الأوثان أيضا. (١) ومعلوم ان عبادة الأوثان كفر وشرك بالله عز وجل والكافر والمشرك الذي يعبد الأصنام يصدر منه كل ضرر عليه وعلى مجتمعه، كذلك أمرنا ان نجتنب قول الزور وهو الكذب والباطل والتهم ومنه شهادة الزور، وروي انه يدخل في الزور أيضا الغناء وسائر الأقوال الملهية (٢).

ومعلوم ان الكذب وسائر الأقوال الباطلة مطلقا قبيحة ومضرة بالفرد وبالمجتمع ولذلك يأمرنا الله ان نجتنبها، ويروي شيخنا الطبرسي في مجمع البيان عن أيمن بن خزيم عن رسول الله (ص) انه قام خطيبا فقال: أيها الناس

(١) راجع مجمع البيان م ٤ ص ٨٢ ونقله عنه العلامة الطباطبائي في الميزان ج ١٤ ص ٤١٦.

(٢) المصدر السابق

عدلت شهادة الزور بالشرك بالله، ثم قرأ: (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور) (١).

وفي الآية الثانية التي ذكر الله تعالى فيها كلمة (اجتنبوا) هي قوله تبارك اسمه: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) [النحل / ٣٧] أي اجتنبوا عبادة الطاغوت.

وكلمة الطاغوت مأخوذة من الطغيان وهو التجاوز عن الحد واللفظ لا يخلو من المبالغة في المعنى، كالملكوت مبالغة في الملك والجبروت مبالغة في التجبر، والطاغوت مبالغة في الطغيان، ويستوي فيه التذكير والتأنيث والمفرد والجمع. قال تعالى: (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) [النساء / ٦١]، وقد جاء هنا بالمفرد المذكر، والمعنى هنا: يريدون ان يتحاكموا إلى الرئيس الطاغي الذي أمروا ان يكفروا به.

وقال تعالى: (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) [البقرة / ٢٥٦]، وقد جاء هنا بصيغة الجمع المذكر، والمعنى: ان الكافرين الذين اتخذوا رؤساء الكفر أولياء لهم، هؤلاء الرؤساء يخرجونهم من النور إلى الظلمات، والمراد من الظلمات هنا هو كل ما خالف حكم الله وتشريعاته الحكيمة في العقائد والاخلاق والعبادات.

(١) المصدر السابق

قال تعالى: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) (النساء / ٥٢)، فأشار إلى الطاغوت ب (هؤلاء) وهو ضمير الجمع المذكور، والمعنى هنا هو ان (الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) وهم أهل الأديان المخالفون لدينهم وكتابهم كاليهود والنصارى وغيرهما تراهم يؤمنون برؤساء الكفر ويقولون للآخرين من الكافرين: ان هؤلاء الرؤساء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ويقصدون بالذين آمنوا رؤساء المؤمنين المحقين الذين نصبهم الله حججا على خلقه.

وقال تعالى: (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها) (الزمر / ١٨) بصيغة الجمع المؤنث، وقد ذكرت لفظة (الطاغوت) في القرآن ثمان مرات (١). والظاهر لنا ان المراد من الطاغوت أولا وبالذات هم رؤساء الكفر والضلال وأئمة الجور والباطل الذين يحكمون بغير حكم الله وبما يخالف أمر الله وهم موجودون في كل أمة، فالله يأمرنا ان نعبده وحده لا شريك له أي نخضع له ونطيعه ولا نخضع للطواغيت من رؤساء الكفر وأئمة الضلال والجور فيما يخالف أمر الله إذ كما جاء في الحديث الشهير: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وهذا الحديث متفق عليه عند جميع المسلمين كما هو معلوم، فيلزمنا إذن ان لا نطيع المخالفين لأوامر الله فيما خالفوه به إلا في حالات ورد بها النص في الكتاب والسنة كالتقية التي شرعها الله لعباده المؤمنين بقوله تعالى: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين

(١) راجع المرشد ص ٣٤٧.

أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير ([آل عمران / ٢٩] وفيما عدا ذلك يلزمنا ان نجتنبهم ونبتعد عنهم وعن إطاعتهم والخضوع لهم، وقد بين جل وعلا لنا الحكم في ذلك في بعض الآيات القرآنية كآية الكرسي حيث يقول تعالى: (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) ثم يقول: (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ([البقرة / ٢٥٧ - ٢٥٨]).

ويقول تعالى: (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عبادي (١٧) الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ([الزمر / ١٨ - ١٩]).

والآية الثالثة التي ذكرت كلمة (اجتنبوا) هي قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ([المائدة / ٩١] والخمر هو كل مسكر وما اسكر كثيره فقليله حرام، والميسر هو القمار بأنواعه وسمي بالميسر - على الظاهر - لتيسير نفعه وضرره، والأنصاب هي الأصنام التي تنصب للعبادة لها والتي تنذر لها النذور، والأزلام هي قدامح الاستقسام وهي نوع من القمار الذي يعبر عنه ب (اليانصيب)، فهذه الأشياء الأربعة من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام يخبرنا الله تعالى بأنها رجس والرجس هو الشيء القدر والنجس وسائر الأعمال القبيحة التي يبتعد عنها

وانها من عمل الشيطان العدو للإنسان، ثم يأمرنا باجتنابها لعلنا نحصل على الفلاح وهو الأجر والثواب بعد النجاة من العقاب دنيا وآخرة، ومن هنا يظهر لنا جليا حرمة الخمر والميسر ذلك لأن الله قرنهما مع الأنصاب وهي الأوثان والأزلام، ولذلك قال رسول الله (ص): " شارب الخمر كعابد الوثن " (١).

تقسيم الظن إلى محمود ومذموم

والآية الرابعة التي ذكرت كلمة (اجتنبوا) هي التي نحن بصدد ذكر ما تشتمل عليه من البحوث وهي قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم (وإنما قال: (اجتنبوا كثيرا من الظن (ولم يقل: " اجتنبوا الظن لأن الظن على قسمين:

ظن محمود وظن مذموم، والظن المحمود هو ان تظن بالمؤمنين خيرا وهذا هو المطلوب من المؤمنين تجاه المؤمنين الآخرين في الشريعة الإسلامية ان يحسن الظن في أخيه وفي سائر إخوانه المسلمين ولا يسيء لهم في شئ يجد له تأويلا حسنا أو محملا جميلا، وقد روي: أحمل أخاك على سبعين محملا.

نعم هناك أناس فسقة متجاهرون بالفسق والفجور خصوصا في هذا الزمان لا مجال لحمل أعمالهم وأقوالهم على الصحة وان ادعوا الإيمان أو ادعوا حسن تصرفاتهم أو ادعوا انهم صادقون، ولكنك ترى منهم عدم الصدق والوفاء به وفي أمثال هؤلاء يقول بعض الأدباء:

فلم يبق منها محمل ما تكسرا.
حملتكم فوق المحامل كلها.

(١) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي وفيه سند الحديث، وراجع كتابنا (القبس) الفصل الخامس، تحليل الطيبات، وتحريم الخبائث في خصوص ما كتبنا عن الخمر ومضاره من ص ٢١١ إلى ص ٢٣٥.

وإنما قلنا خصوصا في هذا الزمان لأن زماننا هذا الغالب عليه الظلم والجور وهنا قد يحسن سوء الظن بمن لا نعلم ايمانه، وقد ورد عن الإمام علي الهادي (ع) أنه قال: إذا كان زمان العدل فيه أغلب من الجور فحرام - على أحد - ان يظن بأحد سوءا حتى يعلم ذلك منه، وإذا كان زمان الجور فيه أغلب من العدل فليس لأحد ان يظن بأحد خيرا ما لم يعلم ذلك منه (١).

وإلى الظن المحمود في المؤمنين الذين تعلم ايمانهم تشير هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا (النور / ١٣)، ولكن قل من يظن بإخوانه المؤمنين خيرا بل الغالب على الناس أنهم سيئون الظن بالمؤمنين، وهو ظن مذموم وهو الذي أمرنا الله باجتنابه وأخبرنا بأن هذا القسم من الظن إثم.

وإنما كان الظن السيء في المؤمنين إثم من حيث ما يترتب من آثاره السيئة كإهانة المظنون به أو قذفه بالسوء وبسائر الفواحش المحرمة ولذلك يكون إثما وإلا فمجرد الظن السيء دون ترتب أثر سيء عليه لم يكن فيه إثم بل قد يكون من حسن الفطن، والإثم محرم بصريح القرآن في قوله تعالى: (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم (الأعراف / ٣٤).

والخلاصة ان الظن الذي تترتب عليه آثار سيئة بالمظنون به هو الذي أمرنا الله باجتنابه وهو الذي فيه الإثم المحرم بقوله تعالى: (اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم .).

(١) البحار ج ٧٨ ص ٣٧٠ نقلا عن كتاب (إعلام الدين) مخطوط.

قصة الإمام موسى بن جعفر مع شقيق البلخي
وقد احتج الإمام موسى بن جعفر بهذه الفقرة من الآية على شقيق البلخي حينما ظن به
سوءاً وأقبل عليه يعاتبه ويوبخه على ما ظن به من سوء. وقصة شقيق مع الإمام موسى
(ع) من القصص الشهيرة ويرويها الكثير من إخواننا أهل السنة كابن حجر الهيتمي في
الصواعق المحرقة وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة ومحمد بن طلحة الشافعي
في مطالب السؤول وغيرهم كثير عن حاتم الأصم أنه قال: حدثني شقيق البلخي قال:
خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام سنة تسع وأربعين ومائة فنزلت القادسية فبينما أنا
أنظر إلى الناس في زينتهم وكثرتهم إذ نظرت إلى فتى حسن الوجه شديد السمرة
ضعيف البدن فوق ثيابه ثوب من صوف مشتمل بشملة وفي رجليه نعلان وقد جلس
منفرداً عن الناس فقلت في نفسي: إن هذا الفتى من الصوفية يريد أن يكون كلاً على
الناس في طريقهم، والله لأمضين إليه ولأوبخنه، فدنوت منه فلما رأني مقبلاً عليه قال:
يا شقيق (اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم) ثم تركني ومضى، فقلت في
نفسي: إن هذا الأمر عظيم قد تكلم بما في نفسي ونطق باسمي وما هذا إلا عبد صالح
لألحقنه ولأسألنه أن يحلني، فأسرعت في أثره فلم ألحق به وغاب عن عيني فلما نزلنا
واقصة إذا به يصلي وأعضاؤه تضطرب ودموعه تجري فقلت في نفسي: هذا صاحبي
أمضي إليه وأستحله، وصبرت حتى جلس فأقبلت نحوه فلما رأني مقبلاً قال: يا شقيق
أتل (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) [طه / ٨٣] ثم تركني
ومضى، فقلت في نفسي: إن هذا الفتى من الأبدال لقد تكلم

على سري ونطق باسمي مرتين فلما نزلنا زباله إذا بالفتى قائم على بئر يستقي ماء إذ سقطت الركوة من يده في البئر وأنا أنظر إليه فرأيتته وقد رمق السماء بطرفه وسمعته يقول:

وقوتي إذا عدت الطعاما.

أنت ربي إذا ظمئت إلى الماء.

إلهي وسيدي ومولاي مالي سواها فلا تحرمنيها، قال شقيق: فوالله لقد رأيت البئر وقد ارتفع ماؤها حتى مد يده وأخذ الركوة فملاها ماء فتوضأ وصلى أربع ركعات ثم مال إلى كتيب رمل فجعل يقبض بكفيه ويطرحه في الركوة ويحركه ويشرب فأقبلت إليه وسلمت عليه فرد علي السلام، فقلت: أطعمني من فضل ما أنعم الله به عليك فقال: يا شقيق لم تزل نعم الله علينا ظاهرة وباطنة فأحسن ظنك بربك، ثم ناولني الركوة فشربت منها فإذا هو سويق وسكر فوالله ما شربت قط ألد منه ولا أطيب رائحة فشبع ورويت وأقمت أياما لا أشتهي طعاما ولا شرابا ثم لم أره حتى دخلنا مكة فرأيتته ليلة إلى جنب قبة الشراب في نصف الليل قائما يصلي بخضوع وخشوع وانين وبكاء ولم يزل كذلك حتى ذهب الليل فلما رأى الفجر جلس في مصلاه يسبح ثم قام فصلى الغداة وطاف بالبيت وخرج فتبعته وإذا له حاشية وجماعة قد أحاطوا به يمينا وشمالا من خلفه ومن أمامه وخدم وحشم واتباع وهو على خلاف ما رأيتته في الطريق وقد دار الناس يسلمون عليه ويتبركون به فقلت لبعض من يقرب منه: من هذا الفتى؟ فقال: هذا موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين. فقلت: قد عجت ان تكون هذه العجائب إلا لمثل هذا السيد.

قال كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي وقد نظم واقعة شقيق بعض الشعراء المتقدمين في أبيات اقتصرت على ذكر بعضها وهي:
عائنه منه وما الذي كان أبصر شاحب اللون ناحل الجسم أسمر فما زلت دائبا أتفكر
ولم أدر أنه الحج الأكبر دون فيد على الكثيب الأحمر (١) فناديته وعقلي محير فعائنه
سويقا وسكر. قال هذا الإمام موسى بن جعفر (٢).
سل شقيق البلخي عنه وما قال لما حججت عائنت شخصا سائرا وحده وليس له زاد
وتوهمت انه يسأل الناس ثم عائنته ونحن نزول يضع الرمل في الإناء ويحسوه اسقني
شربة فناولني منه فسألت الحجيج من يك هذا.
وانظر كيف ظن شقيق سوءا بأفضل خلق الله عز وجل في زمانه وهو الإمام موسى بن
جعفر (ع) ولو لم يعلم منه الإمام ذلك ويعفو عنه لكان من الهالكين.

(١) فيد منزل بطريق مكة سمي بفيد بن حام وهو أول من نزل به، والكثيب التل من الرمل.
(٢) (مطالب السؤل) ص ٨٣ ط إيران ملحقا ب (تذكرة الخواص) وطبعة أخرى ص ٢١٥، و (تذكرة
الخواص) ص ٣٥٧، و (إثارة الغرام الساكن إلى أشرف المساكن) لابن الجوزي، و (صفوة الصفوة) ج ٢
ص ١٠٤ لابن الجوزي أيضا، و (كرامات الأولياء) للرامهرمزي ج ٢ ص ٢٢٩ و (معالم العترة النبوية)
للحافظ الجنازدي، و (أخبار الدول) للاسحاقى و (جوهرة الكمال) للقره غولي ص ١٤٠، و (مختار صفوة
الصفوة) = = ص ١٥٣ وابن الصباغ المالكي في (الفصول المهمة) ص ٢١٥، و (الصواعق المحرقة) لابن
حجر ص ١٢١، والشبلنجي الشافعي في (نور الأبصار) ص ١٣٦، و (مفتاح النجا) للبدخشي، و (كشف
الغمة) للأربلي ج ٣ ص ٣، و (المناقب) لابن شهر آشوب ج ٤ ص ٣٠٢ نقلا عن كتاب (أمثال
الصالحين)، وقد اختصرها وذكر الأبيات بعدها ص ٣٠٣، و (البحار) ج ٤٨ ص ٨٠ والقرشي في كتابه
(حياة الإمام موسى بن جعفر) ج ١ ص ١٤٥.

إخفاء أربعة في أربعة
نعم لأن الله تعالى أخفى وليه فيما بين عباده فلا يدري الإنسان من الولي كما جاء في
حديث مسند عن أمير المؤمنين أنه قال: ان الله تبارك وتعالى أخفى أربعة في أربعة.
أخفى رضاه في طاعته فلا تستصغرن شيئاً من طاعته فربما وافق رضاه وأنت لا تعلم،
وأخفى سخطه في معصيته فلا تستصغرن شيئاً من معصيته فربما وافق سخطه وأنت لا
تعلم، وأخفى إجابته في دعوته فلا تستصغرن شيئاً من دعائه فربما وافق إجابته وأنت لا
تعلم وأخفى وليه في عباده فلا تستصغرن عبداً من عبيد الله فربما يكون وليه وأنت لا
تعلم (١).

(١) (الخصال) للصدوق ص ٢٠٩.

٣ - التجسس ومعناه وما يتعلق به

وبعد قوله تعالى: (اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم) قال (ولا تجسسوا) وهذا البحث الثالث من بحوث الآية الكريمة الذي تضمن النهي عن التجسس. والتجسس بالجيم المعجمة هو تتبع ما استتر من أمور الناس للاطلاع عليها، ومثله التجسس بالحاء المهملة، والفرق بينهما هو ان التجسس بالجيم يستعمل في الشر كما هو شأن الكثير من الناس يتجسس بعضهم على بعض لينتقم بعضهم من بعض، أما التجسس بالحاء فإنه يستعمل في الخير كمن يتجسس ليعلم ما جهله من الأمور التي يحتاجها مما تتعلق بشؤونه أو ما يطلبه من إنسان أو حيوان أين هو، ولذلك أمر يعقوب (ع) بنيه بقوله: (يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون) [يوسف / ٨٨].

فقوله تعالى: (ولا تجسسوا) (أي لا تتبعوا عثرات المؤمنين ولا تبحثوا عما خفي من أعمالهم السيئة بصدد إيدائهم أو الانتقام منهم أو فضيحتهم أمام الآخرين فان ذلك يخالف الإيمان الحقيقي، كما جاء في رسالة للإمام الصادق (ع) أرسلها إلى عبد الله النجاشي جوابا على رسالته، جاء فيها: يا عبد الله وحدثني أبي عن آبائه عن علي (ع) إنه سمع رسول الله (ص) وهو يقول لأصحابه يوما: معاشر الناس إنه ليس بمؤمن من آمن بلسانه

ولم يؤمن بقلبه فلا تتبعوا عشرات المؤمنين فإنه من اتبع عشرة مؤمن اتبع الله عشرات يوم القيامة وفضحه في جوف بيته (١).
فهذا النص النبوي الشريف يدل بوضوح على إن من تتبع عشرات المؤمنين ليس بمؤمن حقيقي وإن الله سبحانه سيتتبع عشرات يوم القيامة ويفضحه في جوف بيته (أي في الدنيا).

وجاء في حديث آخر عن النبي (ص) إنه قال محذرا أمته: إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تحاسدوا ولا تنازروا ولا يفتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله إخوانا (٢).

نعم هكذا تعلمنا الشريعة الإسلامية الغراء والسنة النبوية الشريفة أن نكون متآخين متحابين ومتخلفين بالأخلاق الفاضلة التي تحبب بعضنا لبعض وتحذرنا من سوء الظن وتنهانا عن التجسس والتقاطع والتحاسد والتنازير والغيبة فإن هذه الخصال المنهي عنها تبعد بعضنا عن بعض وتبغض أحدنا للآخر، وانظر كلمة (عباد الله) التي ادخلها النبي (ص) بين كلمتي (كونوا) و (إخوانا) فكم فيها من عبرة إذ علل (ص) ضرورة كونهم إخوانا بكونهم عباد الله أي أنهم مريبون لرب واحد عابدون له وحده لا شريك له فعليهم إذن أن يتآلفوا ويتحابوا كما تتآلف وتتحاب الأخوة لأب واحد، ويقول (ص) موضحا هذه الحقيقة في حديث شهير: مثل المسلمين في

(١) راجع الرسالة بكاملها في (البحار) ج ٧٧ ص ١٨٩ - ١٩٤ نقلا عن كتاب (الغيبة) للشهيد الثاني المطبوع مع كشف الفوائد ص ٢٦٤ وما نقلناه منها تجده في (البحار) ص ١٩٢ وفي (الدر المنثور) ج ٦ ص ٩٣ من طرق عديدة.

توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا تألم عضو منه تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، فكأن المؤمن - حسب مفهوم هذا الحديث الشريف - نفس المؤمن الآخر وأخوه.

وقد حث القرآن المجيد حثا بالغا على أخوة المؤمنين فيما بينهم خصوصا في سورة الحجرات.

الآيات التي تدعو إلى توحيد المؤمنين وأخوتهم ومفادها والآن نستعرض لك الآيات التي سبقت آية الظن والتجسس والغيبة التي نحن بصدد ما تشتمل عليه من البحوث حيث جاءت هذه الآية من سورة الحجرات بعد آيات قبلها تهدف بتعاليمها ودعوتها إلى توحيد المؤمنين وأخوتهم، وتأميرهم بالإصلاح فيما بينهم مرة بعد أخرى وتنهاهم عن سوء الأخلاق التي تسبب تفريق كلمتهم وتمزيق وحدتهم من البغي والاعتداء والسخرية والاستهزاء واللمز والنبز بالألقاب فقال تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين (٩) إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون (١٠) يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون (الحجرات / ١٠ - ١٢).

لنقف قليلا عند هذه الآيات البيّنات ونتدبر مفادها ونستشفي بها فنقول: الخطاب في هذه الآيات الشريفة الثلاثة من سورة الحجرات موجه إلى الأمة الإسلامية المؤمنة, ففي الآية الأولى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) قد أمرهم الله فيها بأربعة أوامر لو طبقوها وامتثلوها كما أمرهم الله بها لسعدوا جميعا ولما قامت بينهم هذه الحروب الطاحنة التي تذهب ضحيتها الألوف المؤلفة، وهي أوامر واجبة وجوبا كفاءيا ان قام بها بعضهم ممن به الكفاية سقط عن الآخرين وان لم يقم بها البعض أثم الجميع وأصبحوا كلهم مسؤولين أمام الله يوم القيامة.

فالأمر الأول فيها قوله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) (قطعا من الطبيعي أن يقع بين بعض المؤمنين والبعض الآخر اختصام قد يؤدي إلى الاقتتال وهنا يأتي الأمر الإلهي للآخرين من المؤمنين أن يصلحوا بينهما أي بين الطائفتين المقتتلتين. (فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله)، ومعنى البغي الظلم والتعدي بغير الحق أي إن إحدى الطائفتين لو أصرت على البغي والظلم على الأخرى ولم تقبل الصلح الذي قام به المصلحون هنا يأتي الأمر الثاني بقتال تلك الطائفة الباغية المعتدية يقاتلها الآخرون مع الطائفة المحقة ويستمروا على قتالها إلى أن تفيء إلى أمر الله، أي إلى أن ترجع إلى ما أمر الله به وتنقاد إلى حكمه وقطعا سوف تنقاد إلى أمر الله وحكمه لأنها لا تقدر على مقاتلة جميع المسلمين وهنا تكون مضطرة إلى الرجوع إلى حكم الله وأمره (فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل) (هذا الأمر الثالث وهو الإصلاح بعد رجوع الطائفة المعتدية إلى أمر الله، ولكن لا إصلاح

بوضع السلاح وترك القتال فحسب بل إصلاحا متلبسا بالعدل بإجراء أحكام الله فيما تعدت به الطائفة المعتدية من دم أو عرض أو مال أو أي حق آخر ضيعته فيؤخذ منها حتى لا تعود مرة أخرى إلى البغي.

ثم يأتي الأمر الرابع: (وأقسطوا) والأمر بالأقساط هنا يعني إعطاء كل ذي حق حقه بصورة دائمة وعامة طبق ميزان العدل، وعطف بهذا الأمر على أمره السابق: (فأصلحوا بينهما بالعدل) (وهو من باب عطف المطلق على المقيد للتأكيد، قوله تعالى في خاتمة الآية: (إن الله يحب المقسطين) (تعليل يفيد تأكيدا على تأكيد كأنه قيل: أصلحوا بينهما بالعدل واعدلوا دائما في جميع الأمور لأن الله يحب العادلين لعدالتهم. وهنا قد يقال: لم أمر الله تعالى الأمة الإسلامية بهذه الأوامر من الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين أولا وبقتال الطائفة الباغية ثانيا وبالإصلاح بينهما بالعدل ثالثا والمسلمون ليسوا طرفا بهذا الخصام والقتال؟ الجواب يأتي في الآية الثانية بعدها وهي قوله تعالى: (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون). نعم هكذا شرع الله لنا وأخبرنا بهذا التشريع الإلهي الحكيم: (إنما المؤمنون إخوة) (وإنما) أداة حصر والمعنى أن المؤمن أخو المؤمن لا اشتراكهما في الإيمان وأن الطائفتين المتقاتلتين لوجود الأخوة بينهما يجب أن يستقر بينهما الصلح، والمصلحون لكونهم أخوة للمتقاتلين يجب أن يسعوا في إصلاح ما بينهما لذا قال: (فأصلحوا بين أخويكم) (نعم قال ذلك ولم يقل: فأصلحوا بين الأخوين وهذا من أوجز الكلام وألطفه حيث يفيد أن

المتقاتلين بينهما أخوة فمن الواجب أن يستقر بينهما الصلح وسائر المؤمنين أيضا أخوة للمتقاتلين فيجب عليهم ان يسعوا في الإصلاح بينهما.

وأخيرا تكون الفائدة للجميع من المتقاتلين والمصلحين معا وهي إيجاب الرحمة لهم لذا ختم الله الآية الكريمة بقوله: (واتقوا الله لعلكم ترحمون) (وسياتي الكلام عن التقوى إن شاء الله تعالى).

وقد حث الدين الإسلامي حثا بالغا على حقيقة الأخوة بين المؤمنين وما يترتب عليها من الآثار الاجتماعية، وعلى الإصلاح فيما بينهم وما يترتب عليه من الفضل والأجر، أما الأخوة فقد ورد عن النبي (ص) إنه قال: المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه أبوهما النور وأمهما الرحمة، أي أبوهما نور الإسلام وأمهما الرحمة الإلهية، وقد أحسن من قال: إذا افتخروا بقيس أو تميم.

أبي الإسلام لا أب لي سواه.

وعن أبي جعفر الباقر (ع) انه قال: المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه - ثم يقول - وذلك أن الله خلق المؤمن من طينة السماوات وأجرى فيهم - أي في المؤمنين - من روح رحمته وفي نص: من ریح روحه، فلذلك هو أخوه لأمه وأبيه (١).

وجاء عن أبي عبد الله الصادق (ع) انه قال: المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشه ولا يعده عدة فيخلفه (٢).

(١) (المحاسن) للبرقي ص ١٠١، ونقله عنه العلامة الأستاذ الطباطبائي في تفسيره (الميزان) ج ١٨ ص ٣٤٧.

(٢) المصدر السابق نقلا عن فروع الكافي للكليني.

أما الإصلاح وما يترتب عليه من الأجر والفضل فيكفي ما جاء في وصية أمير المؤمنين (ع) للحسنين ليلة وفاته حيث قال لهما: الله الله في الإصلاح فإنني سمعت جدكما رسول الله (ص) يقول: إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام. ومعنى عامة الصلاة والصيام أما ان يريد به تفضيله للإصلاح بزيادة أجره على مطلق الصلاة والصيام الواجب منهما الذي لا بد من أدائه والمستحب، أو يريد تفضيله على المستحب فقط، والأول هو الأظهر لنا والله العالم بمراده.

ثم تأتي الآية الثالثة التي تضمنت النهي عن عدة مساوئ أخلاقية اجتماعية مع علة النهي عنها فيقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم) (والسخرية هي الاستهزاء والاستخفاف والاستحقار والاستهانة بالآخرين بفعل أو قول أو إشارة، والقوم الجماعة من الرجال دون النساء لقيامهم بالأمر المهمة دونهن، فهذا النص ينهي الرجال أن يسخر بعضهم من بعض ويستهزئ به استخفافا واستحقارا له ثم يذكر الحكمة والعلة لهذا النهي وهي أن هذا الذي تسخر وتستهزئ به ربما هو خير منك عند الله لإيمانه وموالاته لأولياء الله، ومن هنا ورد عن النبي (ص) أنه قال: " لا تستخفوا بفقراء شيعة علي وعترته من بعده فإن الرجل منهم ليشفع يوم القيامة في مثل ربيعة ومضر "

وجاء في حديث عن المفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله (ع): أن الله عز وجل خلق المؤمنين من نور عظمته وجلال كبريائه فمن طعن

عليهم أو رد عليهم قولهم فقد رد على الله في عرشه وليس من الله في شيء إنما هو شرك شيطان (١).

ونقل السيوطي في تفسيره عن أبي حاتم عن مقاتل في ان قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم) قال: انها نزلت في قوم من بني تميم استهزؤا من بلال وسلمان وعمار وخباب وصهيب وابن فهيرة وسالم مولى أبي حذيفة (٢).
وحيث ان السخرية تصدر من النساء بعضهن من بعض كما تصدر من الرجال لذا قال تعالى: (ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن) (وهذا النص نزل في بعض نساء النبي (ص) حيث سخرن من أم سلمة كما عن أنس بن مالك، وذلك انها ربطت حقويها بسبية وهي ثوب أبيض وسدلت طرفها خلفها فكانت تجره فقالت عائشة لحفصة: انظري ماذا خلفها كأنه لسان كلب، فهذه كانت سخريتها، وقيل: انها غيرتها بالقصر وأشارت بيدها انها قصيرة عن الحسن (٣).
ثم تنهى الآية الكريمة عن اللمز وعن التنازب بالألقاب فيقول تعالى: (ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنازبوا) (واللمز هو الهمز وهو ذكر العيب لمن لا يجوز ان يؤذى بذكره وهو محرم بالنسبة للمؤمن مع المؤمن لذا قال:)

(١) راجع كتاب (المحاسن) للبرقي ص ١٠٠، و (أمالي) الشيخ الطوسي ج ١ ص ٣١٢ بسنده عن الصادق عن رسول الله (ص)، وثواب الأعمال للصدوق ص ٢٣٩ ونقله المجلسي في (البحار) عن هذه المصادر ج ٧٥ ص ٤٢ و ١٤٥ و ١٤٦.

(٢) (الدر المنثور) للسيوطي ج ٦ ص ٩١ ونقله عنه العلامة الطباطبائي في تفسيره (الميزان) ج ١٨ ص ٣٦٠.

(٣) (مجمع البيان) للطبرسي ج ٥ ص ١٣٥.

ولا تلمزوا أنفسكم (فعبر عن المؤمن من أنه نفس أخيه المؤمن الآخر أي انك إذا عبت وطعنت بأخيك المؤمن فقد طعنت وعبت نفسك).

وأما التناز بالألقاب فالمراد منه ان تلقب الآخرين بألقاب تدمهم بها أو تسميه باسم غير اسمه الحقيقي وهو يكرهه أو أنه كان على دين غير الإسلام ثم أسلم وأنت تنسبه إلى دينه السابق أو إلى دين آباءه السابقين وهذا كله مما يسبب العداة والبغض بين أبناء الدين الواحد وتحامل بعضهم على بعض ولذلك قال تعالى: (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان .).

وقد نزل هذا النص في بعض أمهات المؤمنين وهما عائشة وحفصة في موقفهما العدائي مع صفية بنت حي بن اخطب وذلك ان عائشة وحفصة كانتا تؤذيان صفية وتشتمانها وتقولان لها: يا بنت اليهودية فشكت ذلك إلى رسول الله (ص) فقال لها: ألا تجيبينهما؟ فقالت بماذا يا رسول الله؟ فقال: قولي: أبي هارون نبي الله وعمي موسى كليم الله وزوجي محمد رسول الله فما تنكران مني؟ فقالت صفية لهما ذلك فقالتا: هذا علمك رسول الله؟ فأنزل الله في ذلك: (لا يسخر قوم من قوم... إلى قوله ولا تنازوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ((١)).

وفي نص آخر عن صفية انها قالت: دخل علي رسول الله (ص) وأنا أبكي فقال: يا بنت حي ما يبكيك؟ فقالت: بلغني أن حفصة وعائشة تنالان مني وتقولان نحن خير منها نحن بنات عم رسول الله (ص) وأزواجه، قال:

(١) (تفسير القمي) ج ٢ ص ٣٢١، ونقله المجلسي في (البحار) ج ٧٥ ص ١٤٤.

ألا قلت: كيف تكونان خيرا مني وأبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد (ص)
(١).

وفي نص عن ابن عون قال: استبت عائشة وصفية فقال رسول الله (ص) لصفية: ألا قلت: أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد (ص) وكانت عائشة قد فخرت عليها
(٢).

ولعائشة مواقف عديدة مع أزواج النبي (ص) تنبئ عن شدة غيرتها وحدثها خصوصا مع أم سلمة وصفية وسودة ومليكة وأسماء ومارية، ومع ذكر النبي (ص) لخديجة ومع الواهبات أنفسهن لرسول الله (ص)، وقد ذكر لنا التاريخ تلك المواقف العدائية السيئة منها مما سبب ان ينزل فيها وفي صاحبته قوله تعالى: (ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن... (٣)).

ثم يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم .)

ومما يلزم إلفات النظر إليه هو ان الله تعالى ذكر المؤمنين في خاتمة آية النهي عن السخرية بقوله تعالى: (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون (وفي خاتمة آية الأمر باجتنباب الظن بقوله تعالى: (إن الله

(١) (المستدرک) للحاکم ج ٤ ص ٢٩ والذهبي في تلخيصه.

تواب رحيم (. وفي هذا التذكير من جهة فتح لباب الرحمة منه جل وعلا ووضع العلاج الحاسم لتلك الأدواء حتى لا يصر المؤمنون على الأخلاق السيئة فيما بينهم بل يتوبون منها، ومن جهة أخرى تحذيرا لهم من الإصرار على تلك الأخلاق وأن المصر منهم يكون من الظالمين.

ومما يلزم إلفات النظر إليه أيضا - من باب التدبر في كتاب الله العزيز - ان هذا التحذير جاء في الآية الأولى التي تنهى عن السخرية، والتحذير والنفى بعدم التوبة هو الذي يتلائم مع النهي، وجاء فتح باب التوبة بالأخبار: (إن الله تواب رحيم) (في خاتمة الآية التي تأمر باجتنب الظن كما تأمر بالتقوى، وهذا الاخبار هو الذي يتلاءم مع الأمرين.

وبعبارة أخرى ان فاتحة آية النهي عن السخرية تلائم خاتمتها بنفي عدم التوبة، وفاتحة آية الأمر باجتنب الظن تلائم خاتمتها بالأخبار: (إن الله تواب رحيم)، يلي ذلك قوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) (فالله خلقنا من ذكر وأنثى وهما آدم وحواء وجعلنا شعوبا وقبائل لتتعارف وتتألف وأخبرنا مؤكدا ان أكرمنا عنده اتقانا وانه عليم خبير بأفعالنا وأقوالنا، والأتقى هو الأكثر طاعة لله والأبعد عن معصيته.

ومن أعظم المعاصي التي تبعد الإنسان عن ربه وعن مجتمعه سوء الأخلاق الاجتماعية التي ذكرتها تلك الآيات البيّنات التي منها موضوع بحثنا وهو التجسس الذي غالبا ما يستعمله الرجال السياسيون لأغراضهم وغاياتهم السياسية من حكام الدنيا وأهلها من المفسدين في الأرض الحاكمين بغير حكم الله.

والعجيب في الأمر ان هؤلاء السياسيين ممن تسمى باسم الإسلام، أم كانوا غير مسلمين من شرقيين أو غربيين كلهم يعدون التجسس جريمة كبرى يعاقبون عليها أشد المعاقبة بحيث ينزلون بمن اتهم بالتجسس عليهم حكم الإعدام غالبا والسجن المؤبد أو النفي والطرده على الأقل وهم مع ذلك يتجسسون على شعوبهم وعلى الدول الأخرى وشعوبها ولا يعدونه بالنسبة إليهم جريمة بل يجعلونه حقا طبيعيا لهم، ويعلنون - خداعا ومكرا - ان هذا الحق انما هو لصالحهم وصالح شعوبهم، ومن هنا نراهم قد نصبوا له الدوائر العديدة المسماة بالاستخبارات والأمن، وحتى ان الدول الكبرى أحدثت لهم أقمارا اصطناعية للتجسس على الدول والشعوب، وهكذا تفشت هذه الجريمة بين جميع الدول وشعوبها باسم الصالح العام.

وإذا كان كذلك إذا لم يعاقبون المتجسسين الآخرين بأشد العقاب؟ (والله من ورائهم محيط) [البروج / ٢١].

قصة طريفة في التجسس

وقد استعمل التجسس أحد أمراء المسلمين في الصدر الأول من الإسلام ومن سمي نفسه ب (أمير المؤمنين) كما روى لنا ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) ومحب الدين الطبري الشافعي في (الرياض النضرة) والسيوطي في (الدر المنثور) والغزالي في (أحياء العلوم) وغيرهم: ان أحد أمراء المسلمين كان يعس ليلا - أي يطوف بالمدينة متجسسا - فمر ليلة بدار سمع فيها صوتا فارتاب وتصور على تلك الدار فرأى رجلا عنده امرأة وزق فيه خمر - أي إناء فيه خمر - فقال له: يا

عدو الله أظننت ان الله يستر عليك وأنت على معصيته؟ فقال: لا تعجل يا أمير المؤمنين ان كنت أخطأت في واحدة فقد أخطأت أنت في ثلاث، قال الله تعالى: (ولا تجسسوا) (وقد تجسست، وقال: (وأتوا البيوت من أبوابها) (وقد تسورت، وقال: (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) (وأنت دخلت بيت غيرك وما استأذنت وما سلمت - فأينا أكثر خطأ فقال: هل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال: نعم فقال: اذهب فقد عفوت عنك (١).

وانا ما أدري أكان هذا الرجل الذي لقب نفسه بأمر المؤمنين عارفا عالما بهذه الآيات ثم خالفها فيكون قد خالف كتاب الله المنزل على رسول الله (ص) وهو القانون الإسلامي، أم كان غير عالم عارف بها فيكون جاهلا بما في الكتاب من الأحكام التي أنزلت على سيد الأنام.

وان كان يدري فالمصيبة أعظم..

فإن كان ما يدري فتلك مصيبة...

وكيفما كان فإن الله تعالى قد نهانا بصريح القرآن عن التجسس فقال: (ولا تجسسوا).

٤ - الغيبة ومعناها وما يتعلق بها

(١) شرح النهج (لابن أبي الحديد) ج ١ ص ٦١، و (الدر المنثور) ج ٦ ص ٩٣ و (الرياض النضرة) ج ٢ ص ٦١ وفي طبعة أخرى ص ٤٦، و (الفتوحات الإسلامية) لأحمد زيني دحلان ج ٢ ص ٤٧٧، ولهذا الرجل قصص عديدة في التجسس نقل الشيخ الأميني منها في كتاب (الغدير) ج ٦ ص ١١١ - ١١٣ ست قصص عن مصادر عديدة بصحائف مرقمة فراجع.

ثم قال تعالى: (ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) وهذا هو البحث الرابع في الآية الكريمة.

والغيبة لها تعاريف عديدة مختصرة ومطولة، فمن تعاريفها المختصرة قولهم: الغيبة هي ذكر العيب بظهر الغيب، ومن تعاريفها أيضا قالوا: الغيبة ان تذكر أخاك بما فيه مما يكرهه لو سمعه، وهذا التعريف وان كان جامعا شاملا لكنه يحتاج إلى إيضاح إذ قولهم (أخاك) أي أخوك في الإيمان ومعنى هذا ان الكافر والفاسق المتجاهر بالكفر والفسق لا غيبة لهما لتجاهرهما بالكفر والفسق وبذلك تسقط حرمتهما، ويستفاد هذا المعنى من نفس النص القرآني في الآية الكريمة وهو قوله تعالى: (ولا يغتب بعضكم بعضا... (والخطاب فيها للمؤمنين كما تدل على ذلك جملة من الأخبار عن النبي (ص) وأهل بيته الأطهار، ومنها ما جاء عن النبي (ص) انه قال: من ألقى جلباب الحياء من وجهه فلا غيبة له (١).

وجاء عن أبي عبد الله الصادق (ع) انه قال: إذا تجاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة له ولا غيبة (٢).

كذلك لا حرمة لأهل البدع الذين يخاف منهم على الدين وأهله وان تسموا باسم الإسلام فهؤلاء يجوز اغتياهم بل يلزم تحذير المسلمين من سمومهم ودعوتهم الضالة، وقد وردت بذلك جملة من النصوص منها ما جاء عن داود بن سرحان عن أبي عبد الله الصادق (ع) انه قال: قال رسول الله (ص) إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم وأكثروا

(١) (جامع السعادات) ج ٢ ص ٣١٢.

(٢) (آفات اللسان) للسيد عز الدين الموسوي نقلا عن الوسائل.

من سبهم والقول فيهم والوقية في بدعهم يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة (١).

وعن أبي عبد الله عن أبيه (ع) انه قال: ثلاثة ليس لهم حرمة صاحب هوى مبتدع والإمام الجائر والفاسق المعفن الفسق (٢).

ويجوز للمظلوم اغتيااب ظالمه بقصد الانتصار عليه واسترجاع حقه ويدل على ذلك قوله تعالى: (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما) [النساء / ١٤٩].

ونعود لتعريف الغيبة في قولهم: أن تذكر أخاك ثم يقولون: بما فيه أي بعيوب موجودة فيه ومتصف بها سواء كانت تلك العيوب في دينه كقول المستغيب ظالم فاسق عاق لوالديه متهاون بالصلاة.. الخ، أو في بدنه كقوله: قصير أعمش أعرج أطرش... الخ، أو في أخلاقه كقوله: سئ الخلق متكبر بخيل لا يسلم أحد من لسانه.. الخ، أو في أفعاله كقوله: لا ينطق إلا بالكلام البذيء أو السب أو الكذب أو انه ثرثار.. الخ، أو في نسبه كقوله: خسيس النسب أو كان أبوه مجرما أو كانت أمه حقيرة أو هو من بيت لئيم، أو في غير ذلك مما يتعلق به وما فيه.

أما إذا عبته بعيوب لم تكن فيه أصلا فهذا هو البهتان. قال النبي (ص) في وصيته لأبي ذر: يا أبا ذر اعلم أنك إذا ذكرته بما فيه فقد اغتبه وإذا ذكرته بما ليس فيه فقد بهته (٣).

(١) (آفات اللسان) للسيد عز الدين الموسوي نقلا عن الكافي للكليني.

(٢) (آفات اللسان) للسيد عز الدين الموسوي نقلا عن قرب الإسناد.

(٣) راجع الوصية في (مكارم الأخلاق) للطبرسي ص ٥٣٧ - ٥٥٦ وتجد النص ص ٥٥٢.

ومعلوم ان البهتان أعظم وأشد من الغيبة قبحا لأنه يشتمل على الكذب الذي هو من أعظم الكبائر، وعلى الغيبة ان كان في غيبته، وعلى النميمة ان كان الغرض منه الفساد والسعاية ويسبب من الأخطار والمفاسد الاجتماعية أكثر مما تسببه الغيبة إذ ان المبهوت حين يعلم بما افتري عليه يتحمس أكثر من المغتاب له ولا يصبر على مرتكب البهتان منه وحينئذ قد تصدر منه نتائج سيئة لا مناص منها لهذا نهى الإسلام عن ارتكاب هذه الرذيلة وتوعد عليها أشد العقاب. قال الله تعالى: (ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً) [النساء / ١١٣].

وجاء عن الإمام الرضا عن آبائه " انه قال: قال رسول الله (ص): من بهت مؤمناً أو مؤمنة فقال ما ليس فيهما أقامه الله يوم القيامة على تل من نار حتى يخرج مما قال فيه (١).

وعنه (ص) أيضاً انه قال: من اغتاب مؤمناً بما ليس فيه فقد تقطعت العصمة بينهما وكان المغتاب في النار خالداً فيها وبئس المصير (٣).

ثم جاء في تعريف الغيبة بعد قولهم: أن تذكر أخاك بما فيه قولهم: مما يكرهه لو سمعه، فكل صفة وان كانت فيه وهو يكره نسبتها إليه أو ذكره بها فهي غيبة.

هل المستغيب سالم من كل عيب؟

وما أدري هذا المستغيب الذي يذكر عيوب إخوانه هل هو سالم من كل عيب؟ قطعاً لا. إذا لم لا يلتفت إلى عيوب نفسه فيصلحها.

(١) و (٣) (آفات اللسان) ص ٤٧ و ٤٨ نقلاً عن (الوسائل).

يقول بعض الأدباء:
ويعمى عن العيب الذي هو فيه.
أرى كل إنسان يرى عيب غيره.
وقال آخر:
ما عاب إنسان على الناس.
لو نظر الناس إلى عيبيهم.
وما أروع المثل السائر حين يقول: يرى أحدنا القذى في عين أخيه ولا يرى الخشبة في عينه.

ويقول المثل العامي: ان المعزة رأت سوءة النعجة حين قفزت على الصخرة فعابت عليها ذلك ولم تلتفت هي إلى سوأتها البارزة دائما وأبدا مدة حياتها، فهذا المستغيب يظهر عيبه بالغيبة قبل ان يظهر عيب أخيه ولو كان كاملا في الحقيقة لما استغاب أحدا من المؤمنين ولا اجتهد في أن يزيل ما به من العيوب. يقول رسول الله (ص): طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس من إخوانه (١).
ويقول أمير المؤمنين (ع): من نظر إلى عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره (٢).
ونرى بعض من يستغيب وهو يحاول أن يظهر إلى الناس بمظهر التدين فمثلا قبل ان يتعرض لمن يريد غيبته يتذمر أولا من الزمان وان

(١) (آفات اللسان) ص ٣٩ نقلا عن الوسائل.
(٢) (آفات اللسان) ص ٣٩ نقلا عن (مرآة الكمال).

زماننا هذا فيه ما فيه من المنكرات المتواصلة ثم يتوصل بمثل هذا الأسلوب إلى غيبة من يريد غيبته، فقل لهذا ولأمثاله:

وما لزماننا عيب سوانا ولو نطق الزمان بنا هجانا وها نحن نخادع من يرانا ويأكل بعضنا بعضا عيانا (١).

نعيب زماننا والعيب فينا وقد نهجوا الزمان بغير جرم فدنينا التصنع والتراخي وليس الذئب يأكل لحم ذئب.

وأشار بقوله: (ويأكل بعضنا بعضا عيانا) إلى قوله عز وجل: (أیحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) فشبه سبحانه وتعالى المستغيب لأخيه المؤمن بأنه يأكل لحم أخيه ميتا على جهة المبالغة في التشبيه ومن هنا يظهر لنا أن الغيبة معصية كبيرة وموبقة قبيحة بل هي أقبح القبائح كما انها أكثر انتشارا بين الناس حتى انه لا يكاد يسلم منها أحد إلا من عصم الله وهم قليل بل أقل من القليل.

لا فائدة بالغيبة سوى نقصان الحسنات وزيادة السيئات هذا مع العلم أن الغيبة لا فائدة فيها للمستغيب سوى نقصان حسناته من صحيفة أعماله وزيادة سيئاته. وقد أحسن من قال:

يأكل لحمهم بلا فائدة أم حسنات عنده زائدة.
ومستغيب الناس ما باله هل سيئاته أتت ناقصة.

(١) تنسب هذه الأبيات إلى الإمام الشافعي في ديوانه ص ٨٢.

أشار هذا الأديب بقوله: هل سيئاته أتت ناقصة أم حسنات عنده زائدة؟ إلى ما جاء عن النبي (ص) أنه قال: يؤتى بأحدكم يوم القيامة فيوقف بين يدي الله تعالى ويدفع إليه كتابه فلا يرى حسناته فيقول: إلهي ليس هذا كتابي فإني لا أرى فيه طاعتي، فيقول له: ان ربك لا يضل ولا ينسى ذهب عملك باغتيالك الناس. ثم يؤتى بآخر ويدفع إليه كتابه فيرى فيه طاعات كثيرة فيقول: إلهي ما هذا كتابي فإني ما عملت هذه الطاعات فيقول له: ان فلانا اغتابك فدفعت حسناته إليك (١).

واختصر هذا المعنى إمامنا الصادق (ع) حيث قال: الغيبة حرام على كل مسلم وإنها لتأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب (٢).

قصة الحسنين (ع) مع الشيخ الذي لا يحسن الوضوء
وعوض ان يستغيب أخاه المؤمن بما يعلم فيه من عيب أن يرشده ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر بالرفق واللين كما أمر الشرع المبين وبذلك يكون مقتديا بالحسنين (ع) اللذين شاهدا شيئا يتوضأ ولا يحسن وضوءه فأخذا بالتنازع بينهما أيهما أحسن وضوءاً من الآخر أمام ذلك الشيخ ثم طلبا منه أن يكون حكماً بينهما ثم توضيا أمامه، وهو ينظر إليهما ثم قال له: أينا يحسن الوضوء؟ قال: كلا كما تحسنان الوضوء ولكن هذا الشيخ الجاهل هو الذي لم يكن يحسن وقد تعلم الآن منكما وتاب على يديكما ببركتكما وشفقتكما على أمة جدكما (٣).

(١) (جامع السعادات) ج ٢ ص ٣٠٦.

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٥.

(٣) (البحار) ج ٤٣ ص ٣١٩ نقلاً عن (عيون المحاسن).

نعم هكذا يجب أن يكون المؤمن مع أخيه المؤمن الآخر منبها له على عيوبه وأخطائه مظهرا شفقتة عليه حتى يضيف إلى حسناته حسنات آخر وإلا فليستر عليه عورته وعييه فإنه بذلك يحظى بأجر عظيم أبانه لنا نبينا محمد (ص) حيث قال في بعض أحاديثه الشريفة: من رأى من مسلم عورة فسترها كان كمن أحيى مؤودة من قبرها. والمؤودة في اللغة هي الفتاة المدفونة وهي حية وقد كان الجاهلون يفعلون ذلك لإيثارهم الذكر على الأنثى وقد نقم الله عليهم ذلك بقوله تعالى: (وإذا المؤودة سئلت (٨) بأي ذنب قتلت [التكوير / ٩ - ١٠]، فالرسول الكريم (ص) يجعل في هذا الحديث ستر عورة المسلم أجره كأجر من ينقذ المؤودة من القتل والموت، وتدبر عظيم قوله (ص) في هذه الكلمة: من رأى من مسلم عورة فسترها ولم يقل من سمع بعورة مسلم فسترها أو من ستر عورة مسلم بل قال: من رأى من مسلم عورة فسترها وذلك لأن ستر العورة بعد اليقين بوجودها فيه ورؤيته لها أعظم أجرا عند الله من الستر عليها بغير اليقين بها، وتأمل أيضا في قوله (ص): من رأى من مسلم عورة ولم يقل من أحد، وفي قوله: كمن أحيى مؤودة ولم يقل مسلمة إذ لحظ ان التحابب والتآلف والتستر إنما يجب على المسلم تجاه المسلم الآخر، وأما إنقاذ الحياة من الموت فهو واجب الإنسان تجاه الإنسان الآخر لذلك قيد ستر العيب بالإسلام وأطلق إنقاذ المؤودة من أي قيد ديني أو مدني لأن الكرامة على الله في المؤودة سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة والكرامة على الله لمن ينقذها سواء كان مسلما أو غير مسلم فتبارك الله الذي بعث محمدا رحمة للعالمين.

وقال فيه: (ما ضل صاحبكم وما غوى (٢) وما ينطق عن الهوى (٣) إن هو إلا وحي يوحى (٤) علمه شديد القوى ([النجم / ٣ - ٦]).
وعلى كل يجب علينا حفظ ألسنتنا عن ذكر عيوب المسلمين وكشف عوراتهم في غيبتهم وقد أحسن الإمام الشافعي حيث يقول:
وعيشك موفور وعرضك صين فكلك عورات وللناس ألسن فصنها وقل يا عين للناس أعين وفارق ولكن بالتي هي أحسن (١).
إذا شئت ان تحيا سليما من الأذى لسانك لا تذكر به عورة امرئ وعينك إن أبدت إليك معائبا وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى.
ومما يلزم إلفات النظر إليه هو ان السامع للغيبة يجب عليه ان ينكرها على المستغيب بقدر ما يتمكن من الإنكار باللسان أو القلب وإلا إذا كان غير متمكن من الإنكار فعليه أن لا يسمع قول المستغيب بل يصون سمعه عن سماع الغيبة وإلا يكون شريك المستغيب بالإثم، يقول بعض الأدباء:
كصون اللسان عن النطق به شريك لقائله فأنتبه.
وسمعك صن عن سماع القبيح فإنك عند سماع القبيح.

(١) راجع ديوان الشافعي، ص ٨٤ بتغيير يسير.

وجاء عن النبي (ص) في بعض أحاديثه انه قال: ما عمر مجلس بالغيبة الا خرب من الدين، فنزهوا أسماعكم من استماع الغيبة فإن القائل والمستمع شريكان في الإثم (١). بل جاء في حديث آخر عنه (ص) انه قال: الا ومن تطول على أخيه في غيبة سمعها فيه في مجلس فردها عنه رد الله عنه ألف باب من الشر في الدنيا والآخرة فإن هو لم يردّها وهو قادر على ردها كان عليه كوزر من اغتابه سبعين ألف مرة (٢).

أما كفارة الغيبة فبالنسبة إلى حق الله عليه أن يندم ويتوب ويعزم في قلبه على أن لا يعود إليها فإن الله يتوب عليه، وأما بالنسبة إلى من استغابه فإن كان قد بلغه ذلك فيمضي إليه ويستحل منه ويرضيه وإن لم يكن بلغه ذلك أو كان المستغاب غائباً أو ميتاً أو لم يعرفه فيستغفر الله له فإن الله يغفر لهما وهو أرحم الراحمين، ويؤيد ذلك ما رواه شيخنا الطوسي في (أماله) بسنده عن انس بن مالك قال: قال رسول الله (ص): كفارة الاغتياب ان تستغفر لمن اغتبت (٣).

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذا المعنى بقوله: (ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) ثم قال بعدها: (واتقوا الله إن الله تواب رحيم) وهنا نذكر ما تضمنته الآية الكريمة من الأوامر والنواهي والارتباط بينهما فنقول:

-
- (١) آفات اللسان) نقلا عن جامع الأخبار.
(٢) آفات اللسان) نقلا عن الوسائل.
(٣) (أماله الشيخ الطوسي) ج ١ ص ١٩٥.

٥ - خاتمة الآية الكريمة وارتباط بعضها ببعض
بعد أن أمرنا الله تعالى باجتنباب الكثير من الظن وأخبرنا أن بعض الظن أثم ثم نهانا عن
التجسس ثم نهانا ان يغتاب بعضنا بعضا ثم شبه المستغيب بأكل لحم أخيه ميتا، بعد
ذلك أمرنا بالتقوى وأخبرنا انه تعالى تواب رحيم.
وفي مجموع ما في الآية الشريفة من الأوامر والنواهي والأخبار والتشبيه ارتباط وثيق
بعضها ببعض وبيان هذا الارتباط هو أن الله تعالى لما أمرنا أولا باجتنباب الظن السيء
بالمؤمنين بقوله: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم) (أي لا
تقولوا في حق المؤمنين سوءا بناءا على الظن وبدون علم، فهنا ربما يقول بعض الناس:
اني لا أظن سوءا بالمؤمنين ولكنني أتحرى ما بهم من سوء الأعمال والأقوال وابحث
عنها حتى أعملها فأكون سالما من سوء الظن بل متيقنا به، لذلك نهانا ثانيا عن
التجسس الذي هو تتبع آثار المؤمنين وعشراتهم، وربما يقول آخرون: إنا لا نظن السوء
ولا نتجسس لتحصيله ولكننا إذا علمناه علم اليقين وبدون تجسس ونريد ان نذكر ذلك
في غيبته فلذا نهانا ثالثا عن القول السيء فيهم مع العلم به وهو الغيبة، ففي الأول أمرنا
باجتنباب ما لا نعرف من السوء ثم نهى عن تطلب تلك المعرفة والتحري لها ثم نهى
عن ذكر ما عرف منه وحيث ان ذلك كله مناف للتقوى لذا قال بعد ذلك: (واتقوا الله
(أي احذروا الله وخافوا من عقابه في امثال ما أمر به والانتهاه عما نهى عنه.
حقيقة التقوى ومعطياتها العامة والخاصة للدنيا والآخرة

وهذه هي حقيقة التقوى وهي مأخوذة من الوقاية أي يقي الإنسان نفسه من العقاب المترتب على ترك الأوامر وارتكاب النواهي، ومن هنا جاء في الحديث ان الإمام الصادق (ع) سئل عن تفسير التقوى فقال: أن لا يفقدك الله حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك (١).

وإذا كان العبد متقيا ربه فقد حظي بكل خير يحلم به ويتطلبه سواء كان في الدنيا أو في الآخرة للروح أو للجسم لذلك ورد الحث الأكيد على التقوى والأمر بها في كثير من الآيات القرآنية حتى ذكرت التقوى بمادتها منطوقا ومفهوما في القرآن المجيد في أكثر من مئتين وخمسين مقاما (٢).

ومن هنا تظهر لنا أهمية التقوى وعظيم فوائدها ومعطياتها في الدارين للروح والجسم بحيث انها تمثل ببستان واسع كبير متنوع الشجر غزير الثمر يستطيع المالك له أو المحصل عليه ان يجتني من أنواع ما فيه من الأثمار اليانعة والفواكه النافعة.

الأدلة القرآنية على منافع التقوى
وإيضاح ذلك والدلالة عليه من الآيات القرآنية بإيجاز هو: ان الإنسان إذا كان طالبا قضاء حوائجه الشخصية والخروج من مضائق الأمور وضمان رزقه وسعته فبالتقوى لقوله تعالى: (ومن يتق الله يجعل له مخرجا (٢) ويرزقه من حيث لا يحتسب) [الطلاق / ٣ - ٤] وإذا أراد الخيرات والبركات العامة له ولأبناء نوعه فبالتقوى لقوله تعالى: (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن

(١) (البحار) ج ٧٠ ص ٢٨٥.
(٢) (المرشد) ص ٦٣٥ - ٦٣٨ مادة وقى.

كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون (الأعراف / ٩٦] وإذا أراد الكرامة والعزة عند الله وعند الناس فبالتقوى لقوله تعالى: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير (الحجرات / ١٤] وإذا أراد النصر على الأعداء فبالتقوى لقوله تعالى: (واعلموا أن الله مع المتقين (البقرة / ١٩٥] وفي سور غيرها. وإذا أراد قبول أعماله الخيرية فبالتقوى لقوله تعالى: (إنما يتقبل الله من المتقين (المائدة / ٢٨] وإذا أراد أن يميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل والصالح والطالح مع تكفير سيئاته وغفران ذنوبه فكل ذلك بالتقوى لقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم (الأنفال / ٣٠] وإذا أراد العاقبة الحسنة والذكر الخالد الجميل فبالتقوى لقوله تعالى: (والعاقبة للمتقين (الأعراف / ١٢٩] وغيرها وإذا أراد البشارة بالنجاة في الحياة الدنيا والآخرة فبالتقوى لقوله تعالى: (الذين آمنوا وكانوا يتقون (٦٣) لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم (يونس / ٦٤ - ٦٥] وإذا أراد الجواز على الصراط والنجاة من النار فبالتقوى لقوله تعالى: (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا (٧١) ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا (مريم ٧٢ - ٧٣] وإذا أراد دخول الجنة وحسن نعيمها فبالتقوى لقوله تعالى: (إن المتقين في جنات ونهر (٥٤) في مقعد صدق عند مليك مقتدر (القمر / ٥٥ - ٥٦] وإذا أراد ما هو أعلى من الجنة ونعيمها ومن كل شيء وهو رضوان الله الذي لا شيء أكبر منه والذي هو الفوز العظيم، كما قال تعالى: (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو

الفوز العظيم ([التوبة / ٧٣] فإذا أراد الفوز العظيم برضوان الله فبالتقوى لقوله تعالى: (قل أو نبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد) [آل عمران / ١٦].
فلهذه الفوائد العظيمة وغيرها العائدة لنا يأمرنا الله بالتقوى ويحثنا عليها في كثير من الآيات القرآنية ومنها الآية التي نحن بصدد ذكر بحوثها.

وحيث ان الإنسان غير معصوم وتصدر منه غالباً تلك الأخلاق السيئة والمعاصي والذنوب المنافية للتقوى ختم الآية الكريمة بقوله: (إن الله تواب رحيم) (إشارة منه تعالى إلى ان التائب من تلك الذنوب يتوب الله عليه ويعفو عن ذنوبه وهو أرحم الراحمين).

نعم ان الله الرؤوف الرحيم خلقنا ليرحمنا لا ليعذبنا ولذلك فتح لنا أبواباً للنجاة كثيرة لا تعد ولا تحصى ومنها التوبة والرجوع إليه سبحانه بالندم والاستغفار فإن التائب من الذنوب توبة نصوحاً كمن لا ذنب عليه. قال تعالى: (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون) [الشورى / ٢٦] بل بالإضافة إلى عفو عن التائب ومحو سيئاته من صحيفة أعماله يثبت له مكانها حسنات كما قال عز من قائل: (إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) [الفرقان / ٧١].

ومن أبواب الرحمة والنجاة التي فتحها الله لعباده التمسك بأهل بيت النبي (ص) لقوله الذي رواه علماء الحديث من الفريقين: إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق.. وفي نص: هلك، ومثل باب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له (١).
وقد أجاد من قال:

ومن تخلف عنها صار في تيه في حقهم ما تلى القرآن تاليه وصاحب البيت أدرى بالذي فيه.

هم السفينة فاز الراكبون بها وآية الرجس والتطهير نازلة البيت بيتهم والجد جدهم. الاستشفاء التفصيلي بالآية الكريمة الآمرة بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى والناهية عن الفحشاء والمنكر والبغى
قال عز من قائل: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) [النحل / ٩١].

(١) حديث السفينة من الأحاديث النبوية الشريفة والشهيرة والمتواترة بل تجاوز حد التواتر، وقد رواها الكثير من إخواننا علماء أهل السنة من المفسرين والمؤرخين والمحدثين بطرق عديدة وألفاظ متقاربة المعنى عن عدة من القراية والصحابة للرسول الأكرم (ص) فراجع كتاب (محمد وعلي وبنوه الأوصياء) للشيخ نجم الدين العسكري ج ١ ص ٢٣٩ - ٢٨٢ لتقف على بعض نصوص الحديث ومصادره بصحائف مرقمة ومضبوطة. والحمد لله أولاً وآخراً، " وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين " [يونس / ١١].

مزايا هذه الآية الكريمة وفضائلها

ذكر المفسرون مزايا وفضائل عديدة لهذه الآية الكريمة امتازت بها عن غيرها من الآيات القرآنية فهي تعد من الآيات الجامعة للأخلاق الحسنة والآداب مع الله والنفس والمجتمع، والناهية عن الأخلاق السيئة السائدة على سلوك الفرد والمجتمع لذلك أحببنا تفصيلها وما يتعلق بها في هذا البحث الأخلاقي، وإليك أولا مزاياها وفضائلها:

١ - انها أجمع آية للأمر بالخير والنهي عن الشر:

فمنها ان الله سبحانه وتعالى جمع فيها ما يتصل بتكليف النوع الإنساني فرضا ونفلا أي واجبا ومستحبا وما يتصل بالآداب والأخلاق عموما وخصوصا.

ومن هنا روى المفسرون عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود (رض) انه قال: أجمع آية في القرآن للأمر بالخير والنهي عن الشر هذه الآية: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان... (١)).

وروا عن سعيد بن جبير عن قتادة انه قال: ليس من خلق حسن كان يعمل به في الجاهلية ويعظمونه إلا أمر الله به في هذه الآية، وليس من خلق سيئ كان يعمل به ويتعابرون به إلا نهى عنه في هذه الآية، وانما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها (٢).

(١) (تفسير مفاتيح الغيب) للفخر الرازي ج ٥ ص ٣٤١، و (مجمع البيان) للطبرسي ج ٣ ص ٣٨٠، و (الدر المنثور) للسيوطي ج ٤ ص ١٢٨، و (تفسير ابن كثير) ج ٢ ص ٥٨٢، و (تفسير المراغي) ج ١٤ ص ١٣٠، و (تفسير الجواهر) للطنطاوي م ٨ ص ١٧٤، و (تفسير البضاوي) ج ٣ ص ١٩٠.

(٢) راجع المصادر السابقة.

ونقل السيوطي في (تفسيره) وغيره عن البيهقي في (شعب الإيمان) عن الحسن البصري انه قرأ الآية الكريمة ثم قال: ان الله جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئاً إلا جمعه وأمر به ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً إلا جمعه وزجر عنه (١).

وروى المفسرون من الخاصة والعامة ان علياً أمير المؤمنين (ع) مر بقوم يتحدثون فقال: فيم أنتم؟ فقالوا: نتذاكر المروءة. فقال: أو ما كفاكم الله عز وجل ذلك في كتابه إذ يقول: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان (فالعدل الأنصاف، والإحسان التفضل، فما بقي بعد هذا؟) (٢)

وروى القمي في تفسيره بسنده عن إسماعيل بن مسلم عن الإمام الصادق (ع) انه قال: ليس لله في عباده أمر إلا العدل والإحسان... الخ (٣).

ويستفاد من الحديثين عن علي وحفيده الإمام الصادق (ع) ان أوامر الله لعباده كلها منطوية تحت هذين الأمرين العدل والإحسان، كما ان نواهي الله ومعاصيه داخله في هذه النواحي من الفحشاء والمنكر والبغي، ويؤيد ذلك ما ورد عن النبي (ص) إنه قال: جماع التقوى في قوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر

(١) (الدر المنثور) ج ٤ ص ١٢٨ و (المراغي) ص ١٣٠.

(٢) (الدر المنثور) ج ٤ ص ١٢٨ و (تفسير العياشي) ج ٢ ص ٢٦٧ ونقله عنهما الطباطبائي في (الميزان)

ج ١٢ ص ٣٧٥، و (تفسير المراغي) ج ١٤ ص ١٣٢ نقلاً عن تاريخ البخاري.

(٣) (تفسير القمي) ج ١ ص ٣٨٩ ونقله عنه الطباطبائي في (الميزان).

والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ((١)). فالآية الكريمة جامعة لكل خير ومانعة لكل شر وهذه واحدة من مزاياها.

٢ - اختصاصها بزيادة الفصاحة والبلاغة:

ومن مزايا هذه الآية أيضا اختصاصها بزيادة الفصاحة والبلاغة وروعة البيان وحسن السبك فيما أمرت ونهت عنه بحيث تركت الإعجاب والإكبار في نفوس بعض رجال قريش وسائر العرب واعترفوا بأن البشر لا يستطيع أن يأتي بمثل هذا القول، ومن أولئك الرجال الوليد بن المغيرة المخزومي الملقب بالوحيد لشرفه في قومه.

الوليد بن المغيرة عظيم مكة عند قريش وكفره

والوليد هذا هو أحد العظيمين الذين قالت قريش فيهما كما حكى الله ذلك عنهم بقوله تعالى: (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) [الزخرف / ٣٢].

يقول المفسرون: القريتان مكة والطائف و (رجل من القريتين عظيم) (أي رجل عظيم من القريتين، ويعنون بالرجل العظيم من إحدى القريتين الوليد بن المغيرة المخزومي من مكة وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف على ما ذكر أكثر المفسرين وورد ذلك أيضا عن الإمام الحسن العسكري عن أبيه علي الهادي (ع) (٢).

(١) (تفسير الصافي) للآية الكريمة نقلا عن روضة الواعظين.

(٢) راجع (الإحتجاج) للطبرسي ج ١ ص ٣١ ونقله عنه المجلسي في (البحار) ج ٩ ص ٢٧٣ والعلامة الطباطبائي في تفسيره (الميزان) ج ١٨ ص ١١١.

وكان السبب في قول قريش ذلك انهم قالوا: ان إرسال الله رسولا من قبله وإنزال القرآن عليه أمر عظيم فلا بد أن يكون ذلك الرسول شريفا في قومه عظيما من حيث المال والجاه، وان محمدا (ص) يتيم أبي طالب فقير لا مال له فلم أرسله الله إلينا؟ ولم لم يرسل واحدا عظيما من عظمائنا؟ هذا مع العلم أن الله أعلم بمن يستحق هذا المقام السامي، يقول عز من قائل: (الله أعلم حيث يجعل رسالته) [الأنعام / ١٢٥] وقوله تعالى: (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) [الدخان / ٣٣]، وقد شاء جل وعلا ان يختار لرسالته سيد الأولين والآخرين محمدا (ص)، ولقد أجاد الشيخ محمد كاظم الأزري حيث يقول:

وهو الغاية التي استقصاها فرأى ذات أحمد فاصطفاه.
أي خلق لله أعظم منه قلب العالمين ظهرا لبطن.
والغرض إن الوليد كان عظيما عند قريش، عظموه وشرفوه ولقبوه ب (الوحيد) بل ويقال فيه: إنه ريحانة قريش كل ذلك لأسباب مادية بحتة.
الأسباب في تعظيم قريش للوليد
منها إنه كان متمولا أي صاحب مال كثير ومعلوم كيف أن الماديين يعظمون صاحب المال ويحترمونه حتى قال شاعرهم:
تكسو الرجال مهابة وجلالا وهي السنان إذا أردت قتالا.
إن الدراهم في المواطن كلها فهي اللسان إذا أردت تكلما. إذا

وقد ورد في الحديث: من عظم غنيا لأجل غناه ذهب ثلثا دينه (١)، ومنها إنه كان له من الأولاد الذكور عشرة وكلهم يحضرون المحافل والمجالس ولذلك يعظمونه حذرا من أبنائه واستمالة لهم.

ومنها إنه كان لسنا صاحب فصاحة وبلاغة بحيث كان يعد من فصحاء قريش وخطبائها وشعرائها ولكنه - مع ما أنعم الله عليه من تلك النعم - كان خبيث النفس كافرا مشركا معاندا للحق مع وضوحه له وقد أصر على كفره وشركه حتى أهلكه الله. وقد أنزل الله في كتابه العزيز عشرات الآيات في سور عديدة يهدده فيها ويعده بعذاب النار، ومن تلك الآيات قوله تعالى في سورة المدثر مخاطبا رسوله الأكرم (ص): (ذرني ومن خلقت وحيدا (٢) (١١) وجعلت له مالا ممدودا (١٢) وبنين شهودا (١٣) ومهدت له تمهيدا (١٤) ثم يطمع أن أزيد (١٥) كلا إنه كان لآياتنا عنيدا (١٦) سأرهقه صعودا (١٧) إنه فكر وقدر (١٨) فقتل كيف قدر (١٩) ثم قتل كيف قدر (٢٠) ثم نظر (٢١) ثم عبس وبسر (٢٢) ثم أدبر واستكبر (٢٣) فقال إن هذا إلا سحر يؤثر (٢٤) إن هذا إلا قول البشر (٢٥) سأصليه سقر (٢٦) وما أدراك ما سقر (٢٧) لا تبقي ولا تذر (المدثر / ١٢ - ٣١).
اعتراف الوليد بأحقية ما جاء به النبي (ص) من كلام ربه

(١) راجع مجمع البيان ج ٥ ص ٣٨٧.
(٢) خلقتة وحيدا لا يملك شيئا ثم أمددته بالمال والبنين والجاه أو خلقتة أنا وحدي ولا خالق له سواي وأنا المنعم المتفضل عليه، والأول أقرب إلى الصواب والله أعلم.

فهذا العظيم عند قريش اتضح له الحق مرارا عديدة واضحا جليا كوضوح الشمس في رابعة النهار واعترف به ولكنه لخبثه أصر على كفره وعناده، ومن الموارد التي اتضح له الحق فيها واعترف به ما روى المفسرون، كالفخر الرازي والطبرسي وغيرهما عن عكرمة إنه قال: لما نزلت هذه الآية: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) فلما سمعها أخذت بمجامع قلبه فقال للنبي (ص): أعد يا ابن أخي هذا الكلام، فأعاد النبي (ص) الآية عليه فقال: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هو قول بشر (١).

فقوله إن له لحلاوة، أي إنه كلام حلو عذب جميل، وقوله: وإن عليه لطلاوة، أي كأنه مطلي بالحسن والجمال، وقوله: وإن أعلاه لمثمر أي كثير الثمر، وقوله: وإن أسفله لمغدق أي مشتبك الثمر بعضه على بعض، وقوله فما هذا قول بشر أي أن البشر مهما أوتي من فصاحة وبلاغة فإنه لا يستطيع أن يأتي بمثل هذا الكلام. نعم هكذا اعترف بالحق الواضح الحاسم ولكنه لم يسلم ولم يهتد بل هو الذي قال لقومه من قريش: ما محمد إلا ساحر أما رأيتموه كيف يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه فهو ساحر وما يقوله هو سحر يؤثر، وعلى أثر ذلك أنزل الله تعالى فيه تلك الآيات من سورة المدثر التي منها قوله تعالى: (فقال إن هذا إلا سحر يؤثر) [المدثر / ٢٥].

(١) راجع (مفاتيح الغيب) ج ٥ ص ٣٤١ و (مجمع البيان) ج ٣ ص ٣٨١، و (الميزان) ج ١٢ ص ٣٧٤ و (تفسير المراغي) ج ١٤ ص ١٣٠ و (تفسير الطنطاوي) ج ٨ ص ١٧٤.

وممن أعجب بروعة الآية الكريمة وحسن بيانها من رؤساء العرب مقرون بن عمرو وذلك لما دعا رسول الله (ص) قومه من بني شيبان بن ثعلبة إلى الإسلام وإلى نصرته وان قريشا قد كذبوه، قال له مقرون: إلى ما تدعوننا يا أبا قريش؟ فتلا عليهم الآية: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) فقال مقرون حين سمعها: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قومك إذ كذبوك وظاهروا عليك (١).

٣ - إنها صارت سببا لإسلام قوم ورسوخه في آخرين:
ومن مزايا هذه الآية الكريمة إنها صارت سببا لإسلام قوم ورسوخ الإسلام وثباته في آخرين.

ما جرى بين أكنم بن صيفي وبين النبي (ص) وإسلامه
وممن أسلم بسبب سماعه للآية الكريمة أكنم بن صيفي حكيم العرب، أسلم هو وجماعة من قومه من بني تميم أيضا وهو من أشرفهم وكان مقدا فيهم ولم تكن العرب تفضل عليه أحدا وهو من المعمرين عاش ثلاثمائة وثلاثين سنة، ويقال: مائة وتسعين سنة، ويؤيد هذا القول الثاني ما ذكر المؤرخون من شعره قوله:
إلى مائة لم يسأم العيش جاهل وذلك من عد الليالي قلائل.
وإن إمرا قد عاش تسعين حجة خلت مائتان غير ست وأربع.

(١) راجع (مفاتيح الغيب) ج ٥ ص ٣٤١.

فأكثر هذا لما بلغه ظهور رسول الله (ص) ودعوته الناس إلى الإسلام أراد أن يأتيه ليختبر حاله فأبى عليه قومه وقالوا له: أنت كبيرنا لم تك لتخف إليه، فقال أكثر فليات من يبلغه عني ويبلغني عنه ثم انتدب رجلين ويقال: معهما ابن له وكتب معهم كتابا إلى النبي (ص) يقول فيه:
كتابه إلى النبي (ص)

بسمك اللهم من العبد إلى العبد فأبلغنا ما بلغك فقد أتانا عنك خبر لا ندري ما أصله فإن كنت أريت فأرنا وإن كنت علمت فعلمنا وأشركنا في كنزك والسلام.
ودفع الكتاب إلى رسله فأتوا النبي (ص) ودفعوا له الكتاب وقالوا له: نحن رسل أكثر بن صيفي إليك وهو يسألك من أنت؟ وما أنت؟ وبما جئت؟ فقال النبي (ص): أما من أنا؟ أنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا؟ فأنا عبد الله ورسوله، ثم تلا عليهم: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) فلما سمعوها قالوا: ردد علينا القول فردده عليهم حتى حفظوه وقد أعجبوا به، وكتب له النبي (ص) جواب كتابه يقول فيه:
جواب النبي (ص) له

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى أكثر بن صيفي أحمد الله إليك ان الله أمرني أن أقول لا إله إلا الله أقولها وأمر الناس بها،

والخلق خلق الله كله والأمر كله لله، خلقهم وأماتهم وهو ينشرهم وإليه المصير أدبتكم بأداب المرسلين ولتسألن عن النبأ العظيم ولتعلمن نبأه بعد حين.

ودفع النبي (ص) الكتاب إلى رسل أكثم ثم أتوا إليه ودفعوا له الكتاب وقالوا له: سألناه عن نسبه فوجدناه زاكي النسب وسطا في مضر وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها وحفظناها وقرأوا الآية عليه، فعند ذلك جمع قومه وقال: يا قوم عليكم باتباعه إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها فكونوا في هذا الأمر رؤساء ولا تكونوا أذنابا وكونوا فيه أولا ولا تكونوا فيه آخرا، وفي نص أضاف قائلا: اتبعوه تشرفوا وتكونوا سنام العرب وأتوه طائعين من قبل ان تأتوه كارهين ان هذا الذي يدعو إليه لو لم يكن ديننا لكان في الأخلاق حسنا أطيعوني واتبعوا أمري فإني أرى أمرا لا يتبعه ذليل إلا عز ولا يتركه عزيز إلا ذل اتبعوه مع عزكم تزدادوا عزا... الخ.

ثم ان أكثم نادى في قومه ليسير بهم إلى النبي (ص) فتبعه منهم مائة رجل وتوجه بهم إلى النبي (ص) ليسلم على يده وساروا حتى كادوا ان يقربوا فتعارض ومات في الطريق، وقد أوصى أصحابه قبل موته قائلا لهم: أقدموا على هذا الرجل وأعلموه بأني أشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله وانظروا ان كان معه كتاب بإيضاح ما يقول فآمنوا به واتبعوه وآزروه. فقدموا على النبي (ص) وأسلموا على يده وأخبروه بوفاة أكثم وإسلامه، يقول بعض المفسرين والمؤرخين: ان في أكثم نزل قوله تعالى:

(ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما) [النساء / ١٠١] (١).

ترجمة عثمان بن مضعون ورسوخ الإسلام في قلبه
ومن مزايا هذه الآية الكريمة أيضا إنها صارت سببا في رسوخ الإسلام في قلب عثمان بن مضعون الجمحي القرشي ويكنى أبا السائب وكان عابدا مجتهدا من فضلاء الصحابة وعقلائهم وهو ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية (٢)، وكان يقول: لا أشرب شرابا يذهب عقلي ويضحك بي من هو أدنى مني ويحملني على أن أنكح كريمتي.

فلما حرمت الخمر بعد الهجرة جيء إليه وهو بالعوالي فقيل له: يا عثمان قد حرمت الخمر. فقال: تبا لها قد كان بصري فيها ثاقبا. وهو من

(١) راجع (الدر المنثور) للسيوطي ج ٤ ص ١٢٨ نقلا عن الباوردي وابن السكن وابن مندة وأبي نعيم في (معرفة الصحابة) والأموي في (مغازيه) و (تفسير المراغي) ج ١٤ ص ١٣١ نقلا عن الحافظ أبي يعلى في كتابه (الصحابة)، و (الإصابة) لابن حجر العسقلاني ج ١ ص ١١٩ و (الاستيعاب) لابن عبد البر ج ١ ص ١٣٨ في (ترجمة الأحنف) وراجع تفصيل ترجمته في (إكمال الدين) للصدوق ص ٥٣٠ - ٥٣٤ و (مكاتب الرسول) لعلي بن حسين الأحمدي ج ١ ص ١٥٥ - ١٥٨ و (تفسير ابن كثير الدمشقي) ج ٢ ص ٥٨٢.

(٢) في طليعة النوايا والأفذاذ الذين حرّموا الخمر على أنفسهم أيام الجاهلية جعفر بن أبي طالب الطيار شقيق أمير المؤمنين (ع) فإنه ما شرب الخمر ولا زنى ولا كذب ولا سجد لصنم، وقد شكر الله عز وجل له ترك هذه الخصال الأربع حيث يروي لنا = = الصدوق في كتابيه (علل الشرائع) ج ٢ ص ٥٥٨ و (الأمالي) ص ٤٦ ونقله عنهما المجلسي في (البحار) ج ٢٢ ص ٢٧٢ بسنده عن أبي جعفر الباقر (ع) انه قال: أوحى الله إلى رسول الله: إني شكرت لجعفر بن أبي طالب أربعة خصال فدعاها النبي (ص) فأخبره فقال جعفر: لو لا أن الله أخبرك ما أخبرتك، ما شربت خمرا قط لأنني علمت إن شربتها زال عقلي، وما كذبت قط لأن الكذب ينقص المروءة، وما زنيت قط لأنني خفت أني إذا عملت عمل بي، وما عبدت صنما قط لأنني علمت انه لا يضر ولا ينفع. قال: فضرب النبي (ص) يده على عاتقه وقال: حق على الله ان يجعل لك جناحين تطير بهما مع الملائكة في الجنة.

السابقين إلى الإسلام، أسلم قبله ثلاثة عشر رجلا وممن هاجر الهجرتين الأولى إلى الحبشة والثانية إلى المدينة وممن شهد بدرا، وهو أول رجل مات في المدينة من المهاجرين وأول من دفن بالبقيع منهم وكانت وفاته في السنة الثانية من الهجرة بعد غزوة بدر الكبرى.

وروى ابن حجر العسقلاني في الإصابة نقلا عن ابن إسحاق أن لبيد بن ربيعة لما أنشده: ألا كل شيء ما خلا الله باطل، قال عثمان: صدقت فلما قال لبيد: وكل نعيم لا محالة زائل، قال عثمان: نعيم الجنة لا يزول.

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب وابن حجر في الإصابة ان عثمان بن مضعون لما مات وغسل وكفن جاء رسول الله (ص) إليه وقبل ما بين عينيه وبكى حتى رؤي وعيناه تذرفان دموعا، ثم قال: اذهب أبا السائب فقد خرجت منها ولم تلبس منها بشيء، ولما دفن قال: نعم السلف لنا عثمان بن مضعون، ولما توفي إبراهيم بن النبي (ص) قال: إالحق بسلفنا الصالح عثمان بن مضعون، ورثته امرأته بأبيات فقالت: على رزية عثمان بن مضعون طوبى له من فقيد الشخص مدفون وأشرفت أرضه من بعد تفتين حتى الممات ولا ترقى له عين (١).
يا عين جوذي بدمع غير ممنون على امرئ كان في رضوان خالقه طاب البقيع له سكنى ومرقده وأورث القلب حزنا لا انقطاع له.

(١) راجع (الإصابة) ج ٢ ص ٤٥٧، و (الاستيعاب) ج ٣ ص ٨٥.

فهذا الصحابي الجليل وصل إلى ما وصل إليه من رسوخ الإيمان في قلبه بسبب آية العدل والإحسان على ما روى المفسرون عنه أنه قال:
كنت قد أسلمت استحياءاً من رسول الله (ص) لكثرة ما كان يعرض علي الإسلام ولكن لم يستقر في قلبي حتى كنت ذات يوم جالسا عنده وهو يحدثني إذ شخص ببصره نحو السماء كأنه يستفهم شيئاً فلما سرى عنه سألته عن حاله فقال: نعم بينما أنا أحدثك إذ جاءني جبرئيل بهذه الآية: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) فلما سمعتها استقر الإسلام في قلبي فأتيت عمه أبا طالب فأخبرته بذلك فالتفت إلي من حوله من قريش وقال لهم: يا آل قريش اتبعوا محمداً (ص) ترشدوا فإنه لا يأمركم إلا بمكارم الأخلاق... (١)

إيمان أبي طالب ونصرته للنبي (ص)
وهذه الرواية ذكرها أغلب المفسرين من الخاصة والعامة فانظر كيف كان أبو طالب يحرض قريشا على اتباع رسول الله (ص) وان الرشد باتباعه وإنه لا يأمرهم إلا بمكارم الأخلاق، فكيف إذن يصح ما نسبوه إليه من الكفر وإنه مات كافراً. هذا مع ما كان عليه أبو طالب من نصره النبي (ص) والدفاع عنه ومدح ما جاء به من الدين عن ربه سرا وعلانية فعلا وقولا شعرا ونثرا، وقد حدث التاريخ بصدور ذلك منه ولا خلاف فيه.

(١) راجع (مجمع البيان) للطبرسي ج ٣ ص ٣٨٠، و (مفاتيح الغيب) للرازي ج ٥ ص ٣٤١، و (الميزان) للطباطبائي ج ١٢ ص ٣٧٤.

نعم لقد وصمه بعض الأمويين بالكفر بغضا منهم لنجسه علي أمير المؤمنين (ع)، ولو ان أبا طالب قد خلف معاوية لقالوا: إنه آمن بالإسلام ومات مسلما كما قالوا في أبي سفيان الذي حارب الرسول ولم يدخل الإسلام في قلبه يوما ما: بأنه آمن وصار مسلما، ولكن أبا طالب لم يلد معاوية بل أنجب عليا لذا فهو مات كافرا عندهم. وساعدهم علي هذا الادعاء الباطل إن أبا طالب كان يكتنر إيمانه علي قريش كما كان مؤمن آل فرعون يكتنر إيمانه علي فرعون وقومه وهو ابن عم فرعون وولي عهده، فهذا مؤمن آل فرعون وذاك مؤمن آل قريش. وإنما كان كل منهما يكتنر إيمانه لاقتضاء الحكمة يومئذ وليتمكن كل منهما من نصرته الحق والدفاع عنه باسم الحق والمنطق الحاسم الذي يدعيه الجميع ويعرفه. وإيمان أبي طالب ثابت بالأدلة القطعية الكثيرة، وقد ألفت في ذلك كتب عديدة للسنة والشيعه.

إثبات إيمانه بالإجماع وبالقرآن ومما يثبت إيمانه بالإجماع القطعي عند الجميع أنه كان أول من آوى رسول الله (ص) ونصره ودافع عنه من مبدأ أمره إلى انتهاء عمره، يقول تعالى في محكم كتابه المجيد: (والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم) [الأنفال / ٧٥]، والمقصود هم الذين آووا رسول الله ونصروه، وأبو طالب أول من آواه ونصره حتى توفاه الله عز وجل.

ومما يدل على إيمانه أيضا أنه ثابت عند الجميع ان رسول الله (ص) كان يحب أبا طالب حبا شديدا بل كان يحبه ويحب من يحبه أبو طالب على ما جاء في أحاديثه (ص) وتصريحاته بذلك مرة بعد أخرى في حياة أبي طالب وبعد مماته (١). فلو ان أبا طالب كان كافرا مشركا كما يزعمون لما أحبه رسول الله (ص)، وكيف يحبه مع كفره وشركه وقد أنزل الله عليه آيات عديدة من القرآن العزيز يحذر وينهى فيها أمته من اتخاذ الكافرين والمعاندين أولياء وأحباء وان ذلك يسلب الإيمان منهم حتى ولو كانوا أقرب الناس إليهم. ومن تلك الآيات قوله تعالى: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) [المجادلة / ٢٣].

ومنها قوله تعالى: (بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) [الممتحنة / ١ - ٢].

ومنها قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم

(١) راجع (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد ج ٣ ص ٨٢ وص ٣١٢ و (الاستيعاب) لابن عبد البر ج ٣ ص ١٥٧، و (مجمع الزوائد) للهيثم ج ٩ ص ٢٨٣ نقلا عن الطبراني، و (السيرة الحلبية) ج ١ ص ٣٠٤ و (تذكرة الخواص) ص ١٥، و (بطل العلقمي) للشيخ عبد الواحد المظفري ج ١ ص ٢١٨ وص ٢٢٤ نقلا عن مصادر عديدة و (ذخائر العقبى) لمحب الدين الطبري الشافعي ص ٢٢٢ نقلا عن أبي عمر والبغوي، و (محمد وعلي وبنوه الأوصياء) للشيخ نجم الدين العسكري ج ٢ ص ٢٤١ نقلا عن مصادر عديدة منها (تاريخ الخميس) ج ١ ص ١٦٣، و (أمالي الصدوق) ص ٧٨ وغيرها كثير.

الظالمون (التوبة / ٢٤] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا المعنى. فلينظر العاقل المؤمن بعين البصيرة هل ان النبي الأكرم (ص) الذي أنزلت عليه تلك الآيات الواضحات المباركات التي كان النبي (ص) يأمر الناس بالعمل بها وهو نفسه لا يعمل بها؟ سبحانك اللهم ان هذا إلا بهتان عظيم.

وعلى كل حب النبي (ص) له وحبه من يحب دليل قاطع على إيمان أبي طالب إذ لو لم يكن مؤمنا لما أحبه النبي (ص) ولتبرأ منه، وكيف لا يحبه وهو المجاهد الأول في الدفاع عنه ووما جاء به من الدين الحنيف، ولقد أجاد ابن أبي الحديد حيث يقول:

(١)

لما مثل الدين شخصا فقاما وهذا يثرب جس الحماما وأودى فكان علي تماما قضى ما قضاه وأبقى شماما ولله ذا للمعالي ختاما جهول لغى أو بصير تعامى ح من ظن ضوء الصباح الظلاما.

ولو لا أبو طالب وابنه فذاك بمكة آوى وحامى تكفل عبد مناف بأمر فقل في ثبير مضى بعدما فله ذا فاتحا للهدى وما ضر مجد أبي طالب كما لا يضر بضوء الصبا.

بحوث آية العدل والإحسان

لقد دلت هذه الآية الكريمة بصريح بيانها على ان الله يأمرنا فيها بثلاث خصال حميدة حسنة وهي العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى فيها عن ثلاث خصال ذميمة سيئة وهي الفحشاء والمنكر والبغي،

(١) راجع شرح النهج ج ٣ ص ٣١٨.

وانه يعظنا بهذه الأوامر والنواهي الستة لعنا نتذكر ونعتبر وقد علمنا مما سبق ان جميع أوامر الله ونواهيه منظوية تحت هذه الأوامر والنواهي الستة. هدف أوامر الله ونواهيه إصلاح المجتمع وسعادة أفراده والهدف العام من تلك الأوامر والنواهي هو إصلاح المجتمع الإنساني الذي هو أهم ما يبتغيه الإسلام والقرآن، ومعلوم انه إذا صلح المجتمع سعد أفراده وعاش الجميع في سعادة وهناء وذلك لأن سعادة الشخص مبنية على صلاح الظرف الاجتماعي الذي يعيش فيه، وما أصعب ان يفلح شخص ويسعد وهو في مجتمع فاسد قد أحاط به الشقاء من كل جانب، كمجتمعنا الحاضر الذي نعيش فيه اليوم. لذلك أهتم الإسلام بإصلاح المجتمع اهتماما بالغاً لا يعدله غيره في كافة أوامره ونواهيته حتى في العبادات من الصلاة والزكاة والحج والصوم وغيرها فإن الهدف منها كلها اصلاح الإنسان في نفسه ومجتمعه. فمثلاً في الصلاة يقول عز من قائل: (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (العنكبوت / ٤٦) فجعل الهدف من إقامة الصلاة هو إزالة الفحشاء والمنكر، وفي الصوم يقول تعالى: (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون (البقرة / ١٨٤) فجعل الهدف من فريضة الصيام التقوى التي بها يسعد العالم كله. وهكذا في كافة أوامر الله ونواهيته في العقائد والعبادات والأخلاق كلها الهدف منها اصلاح الإنسان أفراداً وجماعات ليعيشوا سالمين من كل

مرض وشقاء وفساد في الدنيا وتكون عاقبتهم الجنة والنعيم الدائم في الآخرة ويكونوا في ظل رضوان الله عز وجل في الدارين (ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم) (التوبة / ٧٢).

الأمر الأول: -

العدل وحقيقته وأداء الحقوق وأقسامها

وأول أمر جاء في الآية الكريمة المبحوث عنها هو العدل، والعدل يقابله الظلم وحقيقته هي إقامة المساواة والموازنة في الأمور وإعطاء كل ذي حق حقه بقدر ما يستحق إن خيرا فخييرا وإن شرا فشرا، قال تعالى: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (البقرة / ١٩٥) وقال تعالى: (وجزاء سيئة سيئة مثلها) (الشورى / ٤١).

فالعدل عبارة عن تعديل جميع الصفات من الأفعال والأقوال الصادرة عن الإنسان ورد الزائد والناقص والكثير والقليل إلى الوسط كما يقال: لا إفراط ولا تفريط ويقال: خير الأمور أوسطها، ويقول تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) (البقرة / ١٤٤) وهذا أمر

واجب الرعاية على الإنسان في أداء الحقوق الواجبة عليه بحيث لا يتصف الإنسان بالعدل والعدالة حقيقة إلا إذا قام بتأدية تلك الحقوق وهي كثيرة تكاد ان لا تحصى ولا تحصر ولكنها على كثرتها واختلافها وتباين أنواعها وأصنافها تدرج كلية في ثلاثة أقسام بحيث لا يخرج شئ من الحقوق عنها، والإنسان يستطيعها ويتمكن عليها ولذا أمر الله تعالى بها و (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) (البقرة / ٢٧٨).

القسم الأول

العدل فيما يجري بين الإنسان وخالقه

أما القسم الأول فهو العدل فيما يجري بين الإنسان وبين خالقه من أداء حقه وذلك هو أن الله قد وهب لنا الحياة والكمالات وما نحتاج إليه من أنواع الأرزاق والأقوات، وما من يوم يمر علينا إلا ويصل فيه إلينا من نعمه وعطاياه ما تكل الألسن عن حصره وعده. قال تعالى: (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها [إبراهيم / ٣٥] وكيف نستطيع أن نحصي نعمه علينا مع العلم انه تعالى سخر لنا كافة ما في السماوات وما في الأرض من مخلوقاته، كما قال تعالى: (وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون [الجاثية / ١٤] فهذه نعمه علينا في الدنيا وهياً لنا أيضاً في عالم الآخرة من البهجة والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد، فوجب إذن ان يكون لله علينا حق نقابل به تلك النعم التي لا تحصى كثرة فتحصل منا حينئذ عدالة في الجملة إذ من أعطي خيراً ولم يقابل به بنوع من المقابلة فهو مقصر غير عادل.

ثم أن المقابلة والمكافأة تختلف باختلاف الأشخاص، فما يؤدي به حق إحسان السلطان مثلاً غير ما يؤدي به حق إحسان غيره من سائر الناس وإنما تكون مقابله إحسان السلطان بمثل الدعاء له ونشر محاسنه والثناء عليه والإطاعة له بينما تكون مقابلة إحسان غيره من سائر الناس بمثل بذل المال له والسعي في قضاء حوائجه إلى غير ذلك.

والله سبحانه وتعالى غني عنا وعن معونتنا ومساعدتنا ولا يحتاج شيئا من أعمالنا وأفعالنا ولكن يجب علينا - بالنظر إلى شرع العدالة - أن نكون شاكرين لنعمائه لأن شكر المنعم واجب عقلا وشرعا، قال تعالى: (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) [الرحمن / ٦١] وحيث ان شكر المنعم يتوقف أولا على معرفته ثم القيام له بوظائف الشكر فوجب إذن علينا أن نعرف الله أولا ونقر له بالعبودية ونعترف له بالوحدانية وأن لا نشرك بعبادته أحدا ولا نتخذ من دونه ملتحدا - أي ملجأ - قال تعالى حاكيا وصايا لقمان الحكيم لابنه: (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) [لقمان / ١٤].

ثم بعد المعرفة والإقرار بتوحيده وتنزيهه يجب علينا أن نقوم له بالطاعة والعبادة ونتقيه ونخشاه ولا نرضى إلا بما يرضاه، وذلك هو حقيقة الشكر له تعالى كما قال: (اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور) [سبأ / ١٤].

ميزان العدل في هذا القسم الأول

وقد أشار أمير المؤمنين (ع) إلى ميزان العدل في هذا القسم بعهدته إلى مالك الأشر حين أرسله إلى مصر واليا عليها. قال (ع): بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشر في عهده إليه حين ولاه مصر جباية خراجها وجهاد عدوها واستصلاح أهلها وعمارة بلادها، أمره بتقوى الله وإيثار طاعته واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلا باتباعها ولا يشقى إلا

بجحودها وإضاعتها وان ينصر الله بيده وقلبه ولسانه فإنه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره وإعزاز من أعزه... الخ (١).

فهذا القسم من أداء الحقوق بين الإنسان وبين خالقه تعود الفائدة والثمرة فيه للإنسان نفسه لا لله لأنه غني عن عباده لا تنفعه طاعة المطيعين ولا تضره معصية العاصيين. ولو لم تكن من الفوائد والثمرات للإنسان الذي يعرف حق خالقه ويؤديه غير ما ذكره أمير المؤمنين (ع) بعهدده لمالك من أنه جل اسمه قد تكفل بنصر من ينصره وإعزاز من أعزه لكفى، لأن في ذلكم الخير كله.

ومصداق هذا القول لعلي (ع) قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) [محمد / ٨]، وقوله تعالى: (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) [فاطر / ١١].

القسم الثاني

العدل فيما يجري بين الناس بعضهم لبعض
والقسم الثاني من أداء الحقوق هو العدل فيما يجري بين الناس بعضهم لبعض من أداء حقوقهم كرد الأمانات والإنصاف في المعاملات والمعاوضات وتعظيم الأكابر والرؤساء وإغاثة المظلومين والضعفاء وان

(١) راجع (العهد) بكامله مع شرحه في (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد ج ٤ ص ١١٩ - ١٥٨ وقد ألف في شرح هذا العهد الأستاذ المرحوم توفيق الفكيكي كتابا ممتعا أسماه (الراعي والرعية)، تجد فيه ترجمة وجيزة لأمير المؤمنين (ع) ولتلميذه الوفي مالك الأشتر الذي قال فيه أمير المؤمنين (ع): كان لي مالك كما كنت لرسول الله (ص). كما تجد العهد والتعليق عليه ومصادره في (نهج السعادة) للمحمودي باب الكتب ج ٢ ص ٥٨ - ص ١٢٦.

يرضى بحقه ولا يظلم أحدا ولا يحقر إنسانا إلى غير ذلك من أداء حقوقهم الكثيرة التي لخصها الله سبحانه بقوله حاكيا على لسان نبيه شعيب وهو يخاطب قومه: (ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين) [هود / ٨٦] و [الشعراء / ١٨٤].

تلك الحقوق التي لو طبقها وعمل بها عامة الناس من الراعي والرعية والقوي والضعيف والغني والفقير والرجل والمرأة، لو عملوا بها جميعا لفتحت لهم خزائن الخيرات ونمت فيهم البركات فيدر حينئذ الضرع وينمو الزرع وتطول الأعمار ويكثر الإعمار. قال تعالى: (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) [الأعراف / ٩٧].

سؤال السلطان سبكتكين من ملك الصين عن طول أعمارهم حكى ان الملك المكين السلطان محمود سبكتكين وهو من أهالي القرن الرابع الهجري أرسل رسولا إلى بعض ملوك الصين يسأله: ما سبب طول أعماركم مع جحودكم للصانع وتكذيبكم للرسول ونحن قصار الأعمار مع تصديقنا وإيماننا؟ فحبس ملك الصين ذلك الرسول في قريته بعد أن قربه وأدناه وقال له: تبقى عندنا ولا أجيء على سؤالك حتى تنقلع هذه الشجرة المثمرة من نفسها وتنقطع من أصول غرسها، فبقي الرسول زمانا طويلا حتى ضاق صدره وامتلا أحزانا من السجن والانتظار والفرقة وبعد الدار.

وبينما هو كذلك في بعض الأيام إذ جاءت عاصفة شديدة وسمع هدة عظيمة ورأى الناس يهرعون فجاء معهم وإذا بتلك الشجرة قد قلعت من أصولها ووقعت على الأرض بأثمارها فسعى إلى الملك مسرورا وأخبره بقلع الشجرة من نفسها وطلب منه جواب السلطان فقال له: إذهب الآن وقل له: جور على مظلوم واحد قد أثر في قلع شجرة عظيمة فكيف لا يؤثر الجور على جماعات من الناس مظلومين قى قلع أعمار الظالمين، ونحن بالعدل صرنا معمرين.

نعم.. ومن هنا قال رسول الله (ص): يبقى الملك بالعدل مع الكفر ولا يبقى بالجور مع الإيمان (١).

وقال الشاعر:

ولم أر مثل الجور للملك واضعا والظلم موضع الهلكات.

فلم أر مثل العدل للملك رافعا فالعدل منبع البركات.

ميزان العدل في هذا القسم الثاني

وإذا أردت أن تعرف ميزان العدل فيما بينك وبين الناس فاستمع إلى وصية أمير المؤمنين

(ع) لولده الحسن، وأجهد أن تعمل بها قدر الإمكان.

قال (ع): يا بني اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك فأحب لغيرك ما تحب

لنفسك واکره له ما تكره لها ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم وأحسن كما تحب أن

يحسن إليك واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك

(١) راجع كتاب (الدين والإسلام) للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ص ١٠٥.

وأرض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك (١)..
ان من أمعن النظر والتدبير في هذا الميزان - الذي ذكره أمير المؤمنين كما ذكره أيضا
رسول الله (ص) من قبله وأبناؤه المعصومون من بعده - تيقن ان ليس له مصداق عند
عامة الناس إلا ما يقع منهم " ومن بعض خاصة الله ممن اقتدى بهم وقليل ما هم، أما
نحن اليوم فليتنا وعسانا ان نكف عن غيرنا شرنا وأذانا ومتى نكف شرنا؟ وها نحن
ننبش قبور المعائب لنهتك إخواننا ونفرح بذلك ونسر.
ويأكل بعضنا بعضا عيانا.

وان الذئب يترك لحم ذئب.

القسم الثالث

العدل فيما بين الإنسان ونفسه

أما القسم الثالث من أداء الحقوق فهو العدل فيما بين الإنسان ونفسه من أداء حقها
وعدم ظلمها فإن للنفس على صاحبها حقا يجب القيام به وإلا يكون ظالما لنفسه قبل
أن يكون ظالما لغيره، ومن هنا يقول بعض الأدباء:
فإنك ترميها بكل مصيبة.
أأنت صديق أم عدو لنفسه.

(١) راجع الوصية بكاملها مع شرحها في شرح (نهج البلاغة) لابن أبي الحديد ج ٤ ص ٣ - ٤٩، وهي من
أهم الوصايا الجامعة لكافة الحقوق للخالق والمخلوق ومن افصح الكلام وأبلغه في الحكمة العلمية والعملية،
وقد ألفت في شرحها تفصيلا العلامة الخطيب السيد حسن القبانجي كتابا تجاوز (٨٠٠) صفحة أسماه (علي
والأسس = = التربوية) في شرح الوصية وهو كتاب جليل نفع الله به
مؤلفه وقارئه انه سميع مجيب.

هذا وهي أعز الأنفس وأحبها لك كما قال أمير المؤمنين (ع): عباد الله، الله في أعز الأنفس عليكم وأحبها إليكم فإن الله قد أوضح لكم سبيل الحق وأنار طريقه، فشقوة لازمة أو سعادة دائمة، فعلى العاقل المحب لنفسه ان يختار لها السعادة ويجنبها الشقاوة ويحليها بالفضيلة ويخليها عن الرذيلة إن كان صادقاً بحبه لنفسه وإلا فلا. ميزان العدل في هذا القسم الثالث

أما ميزان العدل في هذا القسم فقد ذكره أمير المؤمنين (ع) أيضاً في بعض خطبة وهو مخالفة هوى النفس فقال (ع): أول عدله نفي الهوى عن نفسه يصف الحق ويعمل به ولا يدع للخير غاية إلا أمها - أي قصدها - ولا مظنة إلا قصدها - أي أتاها - قد أمكن الكتاب - وهو القرآن - من زمامه - أي أطاع أو امره وجعله أمامه فهو قائده وإمامه قائداً له يحل حيث حل وينزل حيث نزل. لذا قال: قد أمكن الكتاب من زمامه فهو قائده وإمامه يحل حيث حل ثقله وينزل حيث كان منزله (١). وانما جعل (ع) أول العدل في النفس نفي الهوى عنها كي تسعد لتحصيل الكمالات وتتهياً لنيل السعادات لأن النفس إذا تركت وهواها لا ترتجى أبداً سعادتها وصحتها ولا يرتقب فلاحها وصلاحها.

(١) راجع شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٢٦، وخطاً رقم ٢٢٦.

وقد علمت مما تقدم ان النفس هي أعدى عدو للإنسان وان من أطاع هواه فقد أعطى عدوه مناه، على ما ورد عن الإمام الجواد (ع)، أعاننا الله وإياكم على هذا العدو اللدود وكفانا شره ووساوسه.

وهذا مجمل القول في الأمر الأول من أوامر الله تعالى في الآية المبحوث عنها وهو العدل.

الأمر الثاني:

الإحسان وحقيقته في أداء الحقوق كلها

والأمر الثاني من أوامر الآية الكريمة الإحسان، وهو أعم من العدل لأن العدل هو إقامة الواجب من حقوق الخالق والمخلوق من سائر الناس والنفس، والإحسان هو إقامة الواجب والمندوب كتأدية الفرائض مع النوافل والمستحبات بالنسبة إلى حق الخالق، والمساواة بين المستحقين مع التفضل عليهم بالنسبة إلى سائر المخلوق، وترك الشهوات المحرمة مع الزهد في الدنيا بالنسبة إلى النفس، والتفضل كما لا يخفى انما يصدر عن العدل لأن التفضل مبالغة في العدل لذا ابتدأ الله به وثنى بالإحسان، وكأن العدل أصل والإحسان فرع، وقد قيل: في الفرع ما في الأصل وزيادة، وقيل أيضا: ان المتفضل أفضل من العادل، ولكن بشرط ان يكون التفضل غير داخل في الإسراف والتبذير المذموم كمن يعطي غير مستحق أو يترك المساواة بين المستحقين بأن يرجح مستحقا على آخر بدون مرجح أو انه يترك الواجب الذي عليه ويؤدي المندوب، فهذا كله وأمثاله خارج عن حد الإحسان وصاحبه لا يقال له محسن بل يقال له مضيع.

وقد عرف الإحسان باللغة انه الحسن، فمعنى " الحسن " أي فعل الحسن، ضد أساء. فالحسن يشمل - كما علمت - الواجب في الحقوق كلها وغير الواجب وكله إحسان.

إكثار الله تعالى ذكر الإحسان في القرآن ولذلك أكثر الله ذكر الإحسان في القرآن بمادته في موارد عديدة بحيث ذكره بأكثر من مائتي مرة مشيراً فيها إلى حقوق الخالق والمخلوق والنفس وان فوائده تعود أخيراً للإنسان نفسه قبل غيره.

وحقا ان تعاليم القرآن في الإحسان تشهد بأنه الكتاب الروحي الذي يرتقي به منتهله إلى أعظم مراقبي السمو ويعلو به على أي مذهب أخلاقي أو أدبي وإليك بعض تلك الآيات مع الإشارة إلى ما تضمنته من معنى.

شرح بعض آيات الإحسان

فمنها قوله تعالى: (وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين) [القصص / ٧٨] فأبان لنا في هذه الآية ان الإحسان هو الواجب الطبيعي للإنسان وان الله كما أحسن إليه بنعمه فعليه ان يحسن هو بعمله لأداء حق الخالق وان لا يفسد في الأرض لأنه تعالى لا يحب المفسدين، إذ الإفساد سئ وصاحبه مبعوض غير محبوب.

ومنها قوله تبارك اسمه: (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) [الإسراء / ٨] وهذا حق واضح إذ أن المحسنين يشعرون بطمأنينة لا

يشعر غيرهم بها إذ أنهم يعلمون ان مقابل إحسانهم سيقابلون - غالبا - بإحسان مثله أو أزيد منه من المحبة والتقدير مما يدخل السعادة إلى نفوسهم التي لها حق عليهم، وفي هذا النص دلالة أيضا على أداء حق النفس بينما الإساءة إلى الغير تجعل صاحبها منبوذا محتقرا لا يهنا له عيش ولا يقر له قرار، وفي الحديث اصنع المعروف - أي الإحسان - مع كل أحد فإن ضيعه المصطنع إليه لم يضع عند الصانع.

ومنها قوله تعالى في سورة فصلت: (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين (حيث أبان لنا ان كلمة الدعوة إلى الله هي أحسن كلمة تقال في الأرض وتصدق في مقدمة الكلم الطيب إلى السماء ولكن يجب أن تكون الكلمة الطيبة مقرونة بالعمل الصالح الذي يصدق كلمته وتكون الدعوة خالصة لله وبذلك يصح له ان يقول: (إنني من المسلمين (وفي الآية إشارة إلى حق الخالق والمخلوق والنفس - كما لا يخفى).

ثم يقول تعالى بعد هذه الآية: (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٣٤) وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم (فصلت / ٣٤ - ٣٦).

وهنا أبان لنا ان من المعلوم عند كل عاقل ان الحسنة لا تستوي مع السيئة، فعليه إذا ان يدفع ويرد السيئة الصادرة من الإنسان الجاهل بالحسنة والإحسان إليه ويقابله باللين والرفق لأن مقابلة السيئة بالسيئة - بمثلها أو أزيد منها - تسبب هياجه وازدياد غضبه مما يسبب إفلات زمامه وتمرده وخلع حيائه نهائيا.

أما إذا قابل السيئة بالحسنة فقد ينقلب المسئء العدو حميما مواليا ومحبا مريدا، غير ان تلك السماح من مقابلة الإساءة بالإحسان تحتاج إلى صبر وقلب كبير يعطف ويسمح على القريب والبعيد حتى ولو كان قادرا على الإساءة لذا يقول تعالى: (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم)، وقد تلقى هذه المنزلة السامية - بأعلى مصاديقها - نبينا محمد (ص) وأهل بيته الأطهار كما هو معلوم من سيرتهم المحمودة الحسنة مع أعدائهم فضلا عن أوليائهم.

ومن المعلوم الذي لا ينكر ان هناك نفوسا خبيثة لا تقابل إحسان المحسن إلا بالإساءة إليه فهؤلاء قطعاً يعقبهم الخسران في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة و (إن ربك لبالمرصاد) [الفجر / ١٥].

وقد سار على هذه السيرة السيئة أعداء النبي (ص) وأهل بيته الأطهار عداء منهم للحق وأهله (والله من ورائهم محيط) [البروج / ٢١].

ومنها قوله تعالى: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون) [الأنعام / ١٦١].

نعم هكذا يرغبنا الله في الإتيان بالحسنات بأن يجعل الحسنة الواحدة جزاؤها عشر، بينما السيئة لا يجازى صاحبها إلا بمثلها وأنهم لا يظلمون بمضاعفة السيئة إلى أكثر منها.

وفي آية أخرى يقول عز من قائل: (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون) (٨٩) ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) [النمل / ٩٠ / ٩١] فوعد المحسن بإحسانه في هذه الآية بحسن المثوبة ومضاعفتها بخير منها وبالآمان من

فزع يوم القيامة، وتوعد المسئء بالآية الثانية بعذاب النار يكبون فيها على وجوههم جزاء عملهم السيء. ومن هنا نعلم ان المراد من الحسنة في الواجب والمستحب ومن السيئة في المحرم وغيره.

ومنها قوله تعالى: (إن المتقين في جنات وعيون (١٥) آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين (١٦) كانوا قليلا من الليل ما يهجعون (١٧) وبالأسحار هم يستغفرون (١٨) وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ([الذاريات / ١٦ - ٢٠]). فأبان لنا هنا بعض صفات المحسنين من أنهم كانوا يتقون ربهم ويقومون أكثر الليل يصلون له ويستغفرونه بالأسحار وأن في أموالهم حق لمن يسألهم ومن لا يسألهم من المحوجين لذلك جزاهم بالجنات الخالدة والعيون الجارية آخذيةا من ربهم جزاء حسن أعمالهم، وهكذا رغب الله في الإحسان كل محسن ليدوم عليه ويتصف به أمام ربه وأبناء نوعه وأسرته ونفسه وان الله يكون دائما مع المحسنين لقوله تعالى: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ([العنكبوت / ٧٠] وقوله تعالى: (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ([النحل / ١٢٩]). كما أعلن جل وعلا في عدة آيات بأنه يحب المحسنين، ومنها قوله تعالى: (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين ([المائدة / ٩٤]).

ومنها قوله تعالى: (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) [البقرة / ١٩٥].

ومنها قوله في مدح بعض الصالحين المحسنين: (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) [آل عمران / ١٤٥].

ومنها قوله تعالى: (الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) [آل عمران / ١٣٥].

ومنها قوله تعالى في طائفة من بني إسرائيل: (ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين) [المائدة / ١٤] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

الأمر الثالث:

إيتاء ذي القربى والمراد منه

والأمر الثالث من أوامر الله تعالى في الآية الكريمة هو إيتاء ذي القربى والمراد منه - على الظاهر - إيتاء الأرحام حقوقهم من المال وصلة رحمهم (١).

(١) قال شيخنا الطبرسي في (مجمع البيان) ج ٣ ص ٣٨٠ بعدما فسر إيتاء ذي القربى بالأرحام قال: وقيل المراد بذي القربى إلى قرابة النبي (ص) الذين أرادهم الله بقوله: "واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى" [الأنفال / ٤٢] ثم قال: وهو المروي عن أبي جعفر (ع) انه قال: نحن هم. وأيد هذا القول العلامة الطباطبائي في (الميزان) ج ١٢ ص ٣٥٥، ويمكن الجمع بين القولين بأن يكون المراد من إيتاء ذي القربى إعطاء الأقارب والأرحام حقوقهم بصورة عامة وإعطاء أقارب النبي (ص) ورحمه بصورة خاصة لأن قرابته أقدم من قرابتنا، والله أعلم.

وهو تخصيص بعد تعميم لأن العدل والإحسان كل منهما عام في جميع الحقوق. ثم خص الله بالذكر حق الأقارب والأرحام بإعطائهم حقوقهم الواجبة والمستحبة تنيها على انه الزم وأقدم من غيره، إذ كما قيل: الأقربون أولى بالمعروف من غيرهم، ولتكون الأرحام مجتمعا صالحا متماسكا متآلفا محبا بعضه لبعض لأن صلاح هذا المجتمع الصغير من الأرحام أو الأسرة وأفرادها هو الذي يكون المجتمع الإنساني الكبير المكون من قبائل وعشائر عديدة متكاثرة.

نعم هكذا يتدرج الإسلام بالإصلاح من المحيط المحلي للإنسان إلى المحيط العام له وفق نظريته التنظيمية للتكافل الاجتماعي والصحي للفرد والمجتمع والروح والجسد، ومن أجل ذلك أولت الشريعة الإسلامية شؤون الأسرة المسلمة عناية بالغة ورعتها بالتنظيم والتوجيه لمكانتها الاجتماعية وازدهار حياتها وأثرها في إصلاح المجتمع الإسلامي كله بما جاء في كتابها وسنتها بالفعل والقول.

الحث البالغ على صلة الرحم

أما الكتاب فقد قرن صلة الرحم بتقوى الله عز وجل حيث قال تعالى: (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا) [النساء / ٢].

ومن هنا ورد عن أبي الحسن الرضا (ع) انه قال: (ان الله عز وجل أمر بثلاثة مقرونة بها ثلاثة أخرى، أمر بالصلاة والزكاة فمن صلى ولم يرك لم تقبل منه صلاته - وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى حاكيا عن لسان عيسى (ع): (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا) [مريم / ٣٢] - وأمر بالشكر له وللوالدين فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله - وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى: (أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير) [لقمان / ١٥] وأمر باتقاء الله وصلة الرحم فمن لم يصل رحمه لم يتق الله عز وجل - وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى: (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) - (١). وروى العياشي في تفسيره وغيره عن جميل بن دراج انه قال: سألت أبا عبد الله - أي الصادق (ع) - عن قوله تعالى: (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) قال: هي أرحام الناس أمر الله تبارك وتعالى بصلتها وعظمتها ألا ترى أنه جعلها معه؟ أي مقرونة بتقواه، ومثل هذا الحديث رواه العياشي أيضا عن عمرو بن حنظلة عن أمير المؤمنين (ع) يقول: ان أحدكم ليغضب فما يرضى حتى يدخل به - أي الغضب - النار فأیما رجل منكم غضب على ذي رحمه فليدن منه فإن الرحم إذا مستها الرحم استقرت وانها متعلقة بالعرش وينتقضه انتقاض الحديد فينادي: اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني وذلك قول الله في كتابه: (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ثم قال (ع): وأيما

(١) كتاب (الخصال ص ١٥٦، و (عيون أخبار الرضا) ج ١ ص ٢٥٨ للصدوق.

رجل غضب وهو قائم فليلزم الأرض من فوره فإنه يذهب رجز الشيطان (١).
وقد استفاضت الأخبار عن صاحب الدعوة الإسلامية الرسول الأمين محمد (ص) وعن
أهل بيته الأطهار في أن الرحم متعلقة يوم القيامة بالعرش تقول: صل من وصلني واقطع
من قطعني.

وهذا تمثيل للمعقول المعنوي بالمحسوس المادي واثبات لحق الرحم على أبلغ وجه،
إذ إن تعلقها بالعرش كناية عن مطالبة حقها بمشهد من الله وعلى هذا فالسعيد من
وصله الله برحمته وهو من يصل رحمه والشقي من قطعه الله من رحمته وهو من قطع
رحمه. قال تعالى في مدح الواصلين لرحمهم: (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل
ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) [الرعد / ٢٢]، وقد استشهد الإمام الصادق
(ع) بهذه الآية الكريمة عندما حضرته الوفاة وأمر بإعطاء أرحامه أموالاً وصلات وأمر
للحسن بن علي المعروف ب (الأفطس) بسبعين ديناراً فقالت له مولاته سالمة: أتعطي
رجلاً حمل عليك بالشفرة يريد أن يقتلك؟ فقال (ع): يا سالمة أتريدين أن لا أكون من
الذين قال الله عز وجل فيهم: (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم
ويخافون سوء الحساب)، يا سالمة إن الله خلق الجنة
فطيها وطيب ريحها وان ريحها ليوجد من مسيرة ألفي عام ولا يجد ريحها عاق - أي
لوالديه - ولا قاطع للرحم (٢).

(١) راجع (تفسير العياشي) ج ١ ص ٢١٧ في الأحاديث الثلاثة، ونقلها عنه المجلسي في البحار ج ٧٤ ص
٩٧.

(٢) (البحار) ج ٧٤ ص ٩٦ نقلاً عن غيبة الطوسي ص ١٢٨.

وقال رسول الله (ص): من ضمن لي واحدة ضمنت له أربعة: يصل رحمه فيحبه الله تعالى ويوسع عليه رزقه ويزيد من عمره ويدخله الجنة التي وعده (١). ولقد استفاضت الأحاديث في أن صلة الرحم تطيل الأعمار حتى روى الإمام الصادق (ع) عن أبيه عن جده عن علي (ع) انه قال: قال رسول الله (ص): ان الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيرها الله عز وجل ثلاثين سنة ويقطعها - أي يقطع رحمه - وقد بقي من عمره ثلاثون سنة فيصيرها الله ثلاث سنين، ثم تلا (ع): (يمحوها الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) [الرعد / ٤٠] (٢). وقال إمامنا أمير المؤمنين (ع) في آخر وصيته لابنه الحسن: وأكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذي به تطير وأصلك الذي إليه تصير ويدك التي بها تصول، استودع الله دينك ودينك أسأله خير القضاء لك في العاجلة والآجلة والدنيا والآخرة، والسلام (٣). وقال (ع) في وصية له أيضا: صلوا أرحامكم وان قطعوكم وعودوا بالفضل على من حرمكم... (٤) والآيات القرآنية والأحاديث التي تحت على صلة الرحم وإكرام العشيرة والأقارب كثيرة وكثيرة جدا.

-
- (١) (عيون أخبار الرضا) للصدوق ونقله عنه المجلسي في (البحار) ج ٧٤ ص ٩٢.
(٢) (أمالي) الشيخ الطوسي ج ٢ ص ٩٥ ونقله المجلسي في (البحار) ج ٧٤ ص ٩٣.
(٣) شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٤٦.
(٤) (أمالي) الشيخ الطوسي ج ١ ص ٢١١، و (البحار) ج ٧٤ ص ٩٢.

التحذير من قطيعة الرحم وسوء عاقبتها
أما قطيعة الرحم فقد اعتبرتها الشريعة الإسلامية جرماً كبيراً وإثماً ماحقاً توعد عليها
الكتاب والسنة بالعقاب والخسران والذل والهوان في الدنيا والآخرة. قال عز من قائل:
(والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في
الأرض أولئك هم الخاسرون) [البقرة / ٢٨].
وقال في آية أخرى: (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن
يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) [الرعد / ٢٦].
وقال رسول الله (ص) في وصيته لعلي: يا علي أربعة أسرع شئ عقوبة، رجل أحسنت
إليه فكافأك بالإحسان إساءة، ورجل لا تبغي عليه وهو يبغي عليك، ورجل عاهدته على
أمر فوفيت له وغدر بك، ورجل وصل قرابته فقطعوه (١).
وقال تعالى مهددا قاطع الرحم بأنواع البلاء من اللعنة والصمم والعمى: (فهل عسيتم إن
توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم) (٢٢) أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم
وأعمى أبصارهم) [محمد / ٢٣ - ٢٤]، والمقصود من قوله: (إن توليتم) (يعني إذا
كانت الولاية والسلطة لكم ذهبتم تفسدون في الأرض وتقطعون أرحامكم، فمن كان
كذلك فقد لعنه الله وأصمه وأعمى بصره أي في الآخرة - على قول المفسرين - أو
يذهب

(١) (الخصال) للصدوق باب الأربعة ص ٢٣٠ ونقله عنه المجلسي في (البحار) ج ٧٤ ص ٩٠ و (أخلاق
أهل البيت) للعلامة السيد مهدي الصدر ص ٥١١ نقلاً عن (الوافي) ج ١٤ ص ٤٧.

الله بسمعهم في الدنيا فلا يسمعون الحق ويعمي أبصارهم فلا يرون الرأي الحق لسوء أفعالهم - على قول آخر - وفي ذلك إشارة إلى قوله تعالى: (فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور) [الحج / ٤٧].

ويمكن الجمع بين القولين وصحتها معا بأن الله يذهب بسمعهم وأبصارهم في الدنيا فلا يسمعون الحق ولا يرونه، ويحشرون أيضا يوم القيامة صما وعميا. وهذا هو الأولى والله أعلم.

وذهب جماعة من المفسرين إلى ان هاتين الآيتين نزلتا في بني أمية مهددة لهم قبل سلطانتهم تنذرهم سوء العاقبة إذا قطعوا رحمهم مع رسول الله (ص) وبني هاشم (١). كما فعلوا حين آل الأمر إليهم فإنهم قطعوا رحمهم مع رسول الله (ص) وسائر بني هاشم بكل ما استطاعوا عليه حتى قتلوا أبناءهم وسبوا عيالهم وأنزلوا ما أنزلوا بهم من أنواع المحن والمصائب هم ومن جاء بعدهم من العباسيين وغيرهم.

قال إمامنا زين العابدين في خطبته التي خطبها بعد رجوعه والسبايا من آل محمد (ص) إلى المدينة وقد اجتمع الناس حولهم قال: والله لو أن النبي (ص) تقدم إلى أمته في قتالنا كما تقدم إليهم بالوصاية بنا لما زادوا على ما فعلوا بنا ف (إنا لله وإنا إليه راجعون) (من مصيبة ما أعظمها وأوجعها وأفجعها وأكضها وأفضعها وأمرها وأفدحها فعند الله نحتسب عما أصابنا وما بلغ بنا فإنه عزيز ذو انتقام.

(١) راجع (تفسير القمي) ج ٢ ص ٣٠٨ و (تفسير الصافي) للمولى محسن الفيض نقلا عن الكافي والقمي.

(ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) [إبراهيم / ٤٢].
النواهي الثلاثة في آية العدل والإحسان
معنى الفحشاء والمنكر والبغي والمراد منها
الفحش والفحشاء لغة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال والأصل في معناه الخروج عن
الحد فيما لا ينبغي فعله وقوله، فيقال: غبن فاحش أي خارج عن حد التحمل والصبر
والسكوت.
والفحش في الحديث هو كل ما اشتد قبحه من الذنوب والمعاصي، ومن هنا أطلق هذا
الاصطلاح على الزنا واللواط وما شاكلهما من أنواع الفواحش الموجبة للحد.
والمنكر هو ما ينكره العقل والشرع من الأفعال والأقوال من جهة، وما ينكره الناس في
مجتمعهم من الأعمال التي تكون متروكة عندهم لقبحها وإثمها كالمواقعة أو كشف
العورة في مشهد من الناس وما شاكل ذلك من المنكرات غير المألوفة من جهة ثانية.
والبغي الأصل في معناه الطلب للشيء ولكن كثر استعماله في طلب حق الغير بالتعدي
عليه فيفيد معنى الاستعلاء والاستكبار على الغير ظلما وعدوانا وعتوا كبغي الملوك
والرؤساء ومؤامراتهم على الشعوب المستضعفة.
وهذه الأمور الثلاثة - أعني الفحشاء والمنكر والبغي - وان كانت متحدة المصاديق
غالبا فكل فحشاء منكر وغالب البغي فحشاء ومنكر ولكن

النهي عنها انما يتعلق بها بما لها من العناوين في المجتمعات الإنسانية غير المرغوب فيها عندهم وعند المفهوم العقلي أيضا.

فالنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي كل واحد منها على حدة يراد بها اتحاد مجتمع تتعارف أجزاؤه وتتلاءم أعماله بترك هذه المفاهيم الثلاثة بحيث لا يستعلي بعضهم على بعض بغيا ولا يشاهد فيه فحشاء ولا منكرا وعند ذلك تستقر عليهم الرحمة والمحبة والألفة وترتكز فيهم القوة والشدة أمام أعدائهم بهجر كل خصلة سيئة تؤدي بهم إلى التفرقة والتهلكة.

رأي بعض المفسرين في النواهي الثلاثة

ويرى بعض المفسرين كالفخر الرازي وغيره (١) ان المراد بالنهي عن الفحشاء - في خصوص هذه الآية - عبارة عن النهي عما يحصل من الانقياد والاتباع للقوة الشهوية من أنواع السوء كالزنا واللواط وشرب الخمر والحرص على الدنيا والطمع والجشع وأمثال ذلك مما يتعلق بالقوة الشهوية.

والمنكر هو ما تنكره العقول مما يحصل من الانقياد والاتباع للقوة الغضبية كالقتل بغير الحق والضرب الشنيع وسوء الخلق من الحدة والغضب في الباطل وما شاكل ذلك من أنواع التعديت على الغير مما يتعلق بالقوة الغضبية.

(١) راجع (تفسير مفاتيح الغيب) للرازي ج ٥ ص ٣٤٣ و (تفسير البيضاوي) ج ٣ ص ١٩٠ و (تفسير الجواهر) للطنطاوي ج ٨ ص ١٥٤ و (تفسير المراغي) ج ١٤ ص ١٢٩ و ص ١٣٢ ونقل السيوطي في (الدر المنثور) ج ٤ ص ١٢٨ عن عطاء انه قال: وينهى عن الفحشاء، قال: الزنا والمنكر قال الشرك، والبغي قال: الكبر والظلم.

والبغي هو ما يحصل من الانقياد للقوة الوهمية كاستعمال طرق الحيل والمكر والاستعلاء على الناس والتطاول عليهم والفتك بهم والتآمر عليهم مما يتعلق بالقوة الوهمية.

راجع ما كتبناه وحققناه عن هذه القوى الثلاثة مع القوة العقلية كتابنا (الحقائق الكونية) ج ٢ ص ١٤٠ - ١٤٧ في بحوث آية (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا.. (والمراد من الجهاد في هذه الآية هو جهاد النفس وقواها الثلاثة الشهوية والغضبية والوهمية، فإنه مهم جدا.

وانما نهى الله عن اتباع هذه القوى الثلاثة حفظا للنفس وللجسم من الهلاك والدمار دنيا وآخرة لأن الله لا ينهى عن شيء إلا وفيه مضرة ومفسدة كما لا يأمر بشيء إلا وفيه منفعة ومصالحة وهو الحكيم العليم.

اتباع القوة الشهوية وما يؤدي إليه من الهلاك ومعلوم ان اتباع القوة الشهوية - في كل ما تدعو إليه - يؤدي إلى الهلاك والمضار خصوصا الزنا واللواط وشرب الخمر، وإليك مضارها وأسباب ارتكابها.
الزنا ومضاره الخاصة والعامة

أما الزنا الذي هو البغاء والفجور ومقاربة النساء عن طريق غير شرعي فهو جريمة كبيرة يرتكبها الزاني إرضاء لشهوته الحيوانية، وهو رأس البلاء وطريق الفساد وضياع للأموال والأعراض والأولاد ومخل بالشرف والمروءة ومؤد إلى المرض والخزي والعار، فما أعظم الجناية التي يجنيها الزاني على نفسه وأهله ومجتمعه وماله فكم من لذة صغيرة أعقبت السقم بعد الصحة وجلبت النقمة بعد النعمة وكم يدخل عيادة الأطباء من شبان متزوجين وغير متزوجين، وقد جلبوا لأنفسهم أنواع الأمراض من السيلان والزهري والقرحة والرخوة وربما نقلوه إلى حلائلهم المحصنات.

لهذا وغير هذا قد أجمعت كل الشرائع على تحريمه واستنكاره، ويكفي في التحذير منه والنهي عنه قول الله عز من قائل: (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا [الإسراء / ٣٣]).

وقال رسول الله (ص): يا معشر المسلمين إياكم والزنى فإن فيه ست خصال، ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة، فأما التي في الدنيا فإنه يذهب بالبهاء ويورث الفقر وينقص العمر، وأما التي في الآخرة فإنه يوجب سخط الرب وسوء الحساب والخلود في النار، ثم قال النبي (ص): سولت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون (١).

(١) راجع (الخصال ٩ للصدوق ص ٣٢٠ و (الاثني عشرية) للحسيني العاملي ص ٢٢٦، أقول: لعل النبي (ص) استشهد بعد الحديث بهذه الآية: " لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون " [المائدة / ٨١] وروى الحديث البرقي في (المحاسن) ص ٨١ بتغيير يسير لا يغير المعنى.

وقال رسول الله (ص): إذا كثرت الزنا كثرت موت الفجأة (١).
فأي عاقل يعرض نفسه لارتكاب تلك الفاحشة الهدامة للجسم والنفس والشرف
والأسرة والمجتمع وهو يعرف ما ينتج عنها من المضار الخاصة والعامة في الدنيا
والآخرة، وأي عاقل يتعدى على أعراض الناس وهو يعلم أن له عرضا كإعراضهم وكما
يدين الفتى يدان، كما جاء في الحديث عن الإمام جعفر بن محمد (ع) انه قال: ان الله
أوحى إلى موسى بن عمران (ع) لا تزنوا فتزني نساءكم ومن وطأ فراش مسلم وطئ
فراشه وكما تدين تدان (٢).

ولقد أحسن من قال:

وتجنبوا ما لا يليق بمسلم كان الوفا من أهل بيتك فاعلم إن كنت يا هذا لبيبا فافهم
سبل المودة عشت غير مكرم ما كنت هتاكاً لحرمة مسلم.
عفوا تعف نساءكم في المحرم ان الزنا دين فإن أقرضته من يزن به ولو بجداره يا
هاتكا حرم الرجال وقاطعا لو كنت حرا من سلالة طاهر.
عقوبات الزنا في الشرائع والحكومات السالفة

(١) راجع كتاب (المحاسن) للبرقي ص ٨١.

(٢) راجع الحديث في (المغريات العشر) للشيخ محمد الخليلي ص ١٦٢.

ولما كان الزنا من أقبح أسباب اختلال نظام الهيئات الاجتماعية وأشدّها أثرا في جلب الفقر والبلاء وأسهلها طريقا إلى الأمراض والأسقام وقصر العمر كان بالطبع ممقوتا لدى العقلاء منذ عرفه البشر وشعر بمساوئه حتى نفر منه كل ذي عقل وشعور وأصبح مذموما لدى الدين والعلم والعقل، وتحرمه كل شريعة ويمنعه كل عقل ويحذر منه كل علم في كل عصر ولدى كل أمة لذلك كانت الديانات كلها منذ القدم تعاقب عليه بأنواع العقوبات وتعدّه منكرا فظيعا.

ففي شريعة موسى (ع) يحكم على الزاني بالإعدام، وفي الشريعة المسيحية الشرقية والإفرنج للزنا اعتباران ديني ومدني، أما الاعتبار الديني فهو ان الكنيسة تعدّه من الخطايا الأصلية والتي يجوز ان يحصل بسببه افتراق الزوجين، أما المدني فيحكم عليهما بالحبس الشديد بمدة تتراوح بين ثلاثة اشهر إلى سنتين، وعند العبرانيين الرجم على الزانية، وفي الهند تترك للكلاب الجائعة وهي حية ويحرق شريكها في الجريمة، ولدى قدماء المصريين تعاقب الزانية بالقتل، وعند هيردوتس اليوناني الحكم على المرأة الزانية بقطع انفها وعلى الرجل مائة جلدة (١).

أحكام الزنا في الإسلام للمحصن وغيره
أما في القرآن فقد جعل حد الزانية والزاني الجلد على مشهد من الناس بعد شهادة أربعة شهود عليهما لكيلا يعودا إلى هذه الفاحشة وليرتدع الغير عنها وعدده مائة جلدة فقال:
(الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد

(١) راجع الأحكام في كتاب (المغربيات العشر) للخليلي ص ١٦٢.

منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ([النور / ٣]). هذا حكم الزانية والزاني إذا كانا غير محصنين أي غير متزوجين، أما إذا كانا محصنين أو كان أحدهما محصنا والآخر غير محصن فحكم المحصن الزاني أو المحصنة الزانية القتل أو الرجم بالحجارة حتى الموت.

وقد جاء في بعض الأحاديث عن النبي (ص) انه قال: لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة (١). وفي نص: لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث كفر بعد إيمان أو زنى بعد احصان أو قتل النفس بالنفس.

وفي الفقه الجعفري الإمامي يحكم على الزاني بعقوبة القتل وان كان غير محصن في ثلاث حالات: الأولى من زنى بإحدى محارمه: كأمه أو أخته أو خالته... الخ، فإن حده القتل للحديث المعتبر المروي عن أحد الإمامين إما محمد بن علي الباقر أو جعفر بن محمد الصادق (ع) انه قال: من زنى بذات محرم حتى يواقعها ضرب ضربة بالسيف.

وهذا الحكم وارد أيضا من طرق حفاظ أهل السنة على ما جاء في الجزء التاسع من كتاب (المغني) لابن قدامة ص ٢٦ عن الجوزجاني وابن ماجة بإسنادهما عن ابن عباس قال: قال رسول الله (ص): من وقع على ذات محرم فاقتلوه.

(١) راجع (التشريع الجنائي الإسلامي) ص ١٧٨ للأستاذ عبد القادر عودة، علق عليه المرحوم السيد إسماعيل الصدر.

والحالة الثانية التي يحكم فيها على الزاني بالقتل وان كان غير محصن الكافر إذا زنا بالمسلمة فإن الرأي السائد بين فقهاء المذهب الجعفري ان حده القتل وإن لم يكن محصنا، ويدل على ذلك الخبر المعتبر الذي يرويه حنان بن سدير عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) انه سأل عن يهودي فجر بمسلمة فقال (ع): يقتل.

والحالة الثالثة: التي يكون حد الزاني فيها القتل هو ما لو أكره الرجل امرأة فزنى بها، ويدل على صحة هذه الفتوى أخبار معتبرة مروية عن أئمة الهدى منها خبر العجلي المعتبر الذي يرويه عن الإمام محمد بن علي الباقر (ع) انه سئل عن رجل اغتصب امرأة فرجها، قال: يقتل محصنا كان أو غير محصن.

هذه أدلة لزوم القتل للزاني في الحالات الثلاثة (١) وان لم يكن محصنا. وهذا هو الموافق للذوق السليم أيضا فإن الزنا بالمحارم أكبر ذنبا وأعظم وزرا ومتى ما عظم الجرم فلا بد وان يعظم الحد عليه كما ان في زنا الكافر بالمسلمة تحديا للمسلمين وخروج عما يجب عليه تجاههم فكان اللازم ان يزيد عقابه على عقاب الكافر لو زنى بكافرة أو عقاب المسلم لو زنى بمسلمة. أما من أكره امرأة وزنى بها فهو يجمع بين جرمين الزنا والإكراه عليه فكان لا بد من تشديد عقابه.

ولعل هؤلاء الزناة يكونون داخلين في الإفساد في الأرض فيكونون ممن يدخل تحت مفاد هذه الآية الكريمة: (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم

(١) راجع تعليق العلامة السيد إسماعيل الصدر في (التشريع الجنائي الإسلامي) ص ١٧٤.

وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم (٣٣) إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم (المائدة / ٣٤ - ٣٥).

اللواط وقبحه والحد عليه
وأما اللواط فهو من الشذوذ الجنسي غير الطبيعي بإتيان الرجال في الدبر وهو انحراف في صحة المزاج وشذوذ في الطبيعة الإنسانية وهو أعظم قبحا من الزنا وأكثر ضررا وأشد تحريما، وهو من فعل قوم لوط وهم أول من ابتدع هذه البدعة الخبيثة لقوله تعالى: (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) (الأعراف / ٨١) وقد فشت هذه البدعة في هذا العصر إلى حد وضعوا لها في بعض البلدان محلا خاصا يسعى إليه كل من أراد قطع نسله وبتتر أصله وابتلاءه بالأمراض الزهرية الفتاكة كالفلس وأمثاله مما تكون فيه الجناية الكبرى على النوع البشري.

ولكن تأنيث الرجال عجيب.
وما عجبني ان النساء ترجلت.
ألا هلم إلى الخطب الفظيع في هؤلاء المخانيث الذين ما برحت أدبارهم سبلا للفاعلين يريدون إحياء آثار أسلافهم من قوم لوط في الغابرين وما عشت أراك الدهر عجبا، وقد ثبت من دين المسلمين في ان حد اللواط هو القتل فاعلا كان أو مفعولا به بشرط العقل والبلوغ والاختيار وثبوت الجريمة عليه، وقتله أما بالسيف أو الإحراق بالنار أو الرجم بالحجارة أو بإلقاء جدار عليه أو بإلقائه من شاهق مرتفع هذا جزاؤه

في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأخزى. ولكن أين رعاة المسلمين عن هؤلاء البغاة
المفسدين في الأرض ليقيموا حدود الله فيهم نكالا من الله بما اقترفوا من الفساد
والبغي.

اللواط في القرآن والحديث
وحيث ان اللواط يعد من أكبر الجرائم وأعظم الكبائر لذلك جاء التحذير منه والذم له
والنهي الشديد عنه بالآيات العديدة من القرآن المجيد، والأحاديث الكثيرة إلى حد
التواتر.

فمن آيات القرآن قول الله عز وجل: (ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم
بها من أحد من العالمين (٨٠) إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم
مسرفون (الأعراف / ٨١ - ٨٢)، وقال تعالى: (وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل
كانوا يعملون السيئات (هود / ٧٩)، وقال تبارك اسمه: (أتأتون الذكران من العالمين
١٦٥) وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون (الشعراء / ١٦٦ -
١٦٧)، وقال عز من قائل: (ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون (٥٤)
أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون (النمل / ٥٥ - ٥٦).
وقال تعالى: (ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من
العالمين (٢٨) أتئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر
(العنكبوت / ٢٩ - ٣٠).

فأنظر كيف ترى في هذه الآيات البيّنات الاستنكار الشديد للواط فتارة تعبر عنه بأنه فاحشة لعظيم قبحه وخروجه عن الحد المألوف وتارة انه من السيئات وأخرى انه منكر وانه عمل قوم مسرفين وعادين ومعتدين وجاهلين وقطاع السبل ومبتدعين. أما في الحديث فاستنكاره أكثر، ففي المختلف عن الصدوق: الوطء في الدبر هو الكفر بالله العظيم، وفي الجواهر: اللواط حرمة من الضروريات في الدين فضلا عما دل عليه من الكتاب وسنة سيد المرسلين، فقد قال رسول الله (ص): من جامع غلاما جاء جنبا يوم القيامة وأعد له جهنم وساءت مصيرا.

وعن الإمام الصادق (ع): حرمة الدبر أعظم من حرمة الفرج وان الله أهلك أمة بحرمة الدبر ولم يهلك أمة بحرمة الفرج. وعن جابر عن النبي (ص) انه قال: ان أخوف ما أخاف على أمتي فعل قوم لوط وعن أمير المؤمنين (ع) عن النبي (ص) انه قال: من عمل من أمتي عمل قوم لوط ثم يموت على ذلك فهو مؤجل إلى ان يوضع في لحده فإذا وضع فيه لم يمكث أكثر من ثلاث حتى تقذفه الأرض إلى جملة قوم لوط المهلكين فيحشر معهم.

وعن أمير المؤمنين انه قال: من أمكن من نفسه طائعا يلعب به ألقى الله عليه شهوة النساء (١).

أي انه يصير مأبونا والمأبون هو الذي يجد في اللواط لذة لا يصبر على تركها والعياذ بالله منها.

(١) نقلنا هذه الأحاديث من كتاب المغريات العشر أو العادات الفتاكة للمرحوم الشيخ محمد الخليلي ص ١٧٢.

وجوه قبح اللواط
ان قبح هذا العمل وخساسة هذه العادة لمن الأمور التي لا تحتاج إلى بيان لوضوح ذلك لدى الحق والوجدان والعقل والطبع، وإليك - مع ذلك - بعض وجوه قبحه حسب ما ذكر:

- ١ - ان العكوف والاستمرار على اللواط لمما يوجب الإعراض أو قلة الميل للزواج وهذا يؤدي إلى قلة النسل وبالأخير إلى تقليل النوع الإنساني، وهو خلاف الحكمة الإلهية في الخلق ومناف لناموس الطبيعة البشرية.
- ٢ - ان الأنوثة هي فطنة الانفعال والذكورة هي فطنة الفعل، أما إذا جعل الذكر أنثى فهو ما يلصق العار والعيب به ما دام حيا ولا يعيش في مجتمعه شريفا ذا جاه ومكانة.
- ٣ - ان الغرض من الوطاء إذا كان هو تنفيذ الشهوة فقط كان الواطئ كالبهيمة بعيدا عن الإنسانية، وكذلك الموطوء به، بل هما أحسن من البهيمة لفقدانهما العقل بخلاف الإنسان،

٤ - انه ثبت في علم الطب ان للمرأة في الرحم قوة شديدة لجذب مني الرجل فإذا واقع الرجل المرأة جذب منه الرحم كل ما ينزل في مجاري أعضاء التناسل من المنى ولم يبق منه شيء إلا ويدخل في الرحم، لكن إذا وطئ الرجل رجلا فليس فيه تلك القوة الجاذبة وحينئذ يبقى شيء من أجزاء المنى في المجاري فيتعفن ويفسد ثم

- تتولد منه جرائم ربما تحدث الأورام الشديدة والأسقام الفتاكة في الواطئ اللائط.
- ٥ - ان هذا العمل يورث العداوة بين الفاعل والمفعول به، بل قد يؤدي إلى قتل المفعول به للفاعل لنفور طبعه عن رؤيته بعد أن يكبر ويشعر بقبح ما كان يفعل به ولا سيما إذا ما صارت له مكانة في المجتمع.
- وهذه القبائح كلها لا تحصل بالوطء الشرعي الطبيعي كوطء الرجل للمرأة عن زواج مشروع بل بالعكس بالزواج المشروع تحصل المودة والرحمة قال عز من قائل: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) [الروم / ٢٢].
- منشأ جريمة الفحشاء بالزنا أو اللواط وأسبابها
- وهنا نضع نماذج من الأسباب التي تدفع الإنسان غير المستقيم على ارتكاب جريمة الفحشاء بالزنا أو اللواط وهي كما يلي:
- ١ - عدم الإيمان بالله تعالى، ويؤيد ذلك ما ورد في بعض الأحاديث: لا يزني الزاني حينما يزني وهو مؤمن.
- ٢ - النظر إلى الأجنبية والأجانب من الفتيان والفتيات.
- ٣ - السفور والتبرج وخلع الحجاب.
- ٤ - الاختلاط بين الرجال والنساء في المدارس والحفلات وغيرها.
- ٥ - انعدام الحياء والغيرة من الرجال والنساء.

- ٦ - معاشرة أقران السوء.
 - ٧ - محلات المراقص والفواحش.
 - ٨ - انتشار الكتب والجرائد والمجلات الخلاقية والأفلام السينمائية.
 - ٩ - تعاطي المسكرات.
 - ١٠ - الصعوبات في أمر الزواج من المغالاة في المهر وغير ذلك.
 - ١١ - خوف الفقر إذا قدم على الزواج.
 - ١٢ - فساد السلطات الحاكمة على الناس.
- هذه أهم الدوافع والأسباب التي تدفع على جريمة ارتكاب الزنا أو اللواط والتي أشاعها غالباً المستعمرون الكافرون بين المسلمين في بلاد الإسلام بحجة الحرية والتحرر ففتكوا بالمسلمين وجنوا عليهم بأنواع الجنایات الفتاكة والآفات الاجتماعية القاتلة وسلبوا منهم دينهم وأخلاقهم بعد سلب أموالهم وخيراتهم بالاستيلاء عليهم " والله من ورائهم حساب "
- وجاء الإسلام بكتابه وسنته وجهود أبنائه المخلصين يكرس جهوده ويؤكد التأكيدات الشديدة على علاج هذه الأسباب ورفعها وإزالة هذه الأدواء وغيرها من المجتمع الإسلامي بأسس رصينة تقضي - لو عمل بها - على الجنایات من جذورها وتمكن مجتمعهم أن يعيش في ظل السعادة والهناء والرفاه.
- علاج الإسلام لتلك الأسباب
أولاً: - علاج عدم الإيمان بالله واليوم الآخر

وأول سبب لارتكاب جريمة الزنا أو اللواط وغيرهما من كبائر الذنوب هو عدم الإيمان بالله واليوم الآخر أو ضعفه.

وقد عالج الإسلام بكتابه وسنته هذا الداء الأكبر بأساليبه العقلية الفاضلة وتبليغاته الإنسانية ونشره الوعي الصحيح بالطرق المثلى، يكافح ذلك ويربي المسلمين وينشئهم نشأً صالحاً فاضلاً ليكونوا مؤمنين ذوي عقيدة رصينة وثبات عليها وصمود أمام تيارات الكفر والشرك والإلحاد. ويضع الإسلام عقوبة القتل على من ارتد عنه كما هو معلوم. وطبعاً إذا نشأ الجيل نشأً صالحاً مؤمناً معتقناً لمبادئ الإسلام عارفاً بها فإن أبناءه سيكونون غيارى ذوي حياء وتكون النساء صاحبات عفة وغيره وربات حجال وحياء أيضاً.

ألا ترى المؤمنين في عصرنا الحاضر رجالهم ملؤهم الغيرة والحياء ونساؤهم عفيفات محجبات غير مائعات، وقد ورد الحديث الشريف القائل: الإيمان والغيرة توأمان. ومنشأ الدين الحياء والعقل السليم الملازم لهما لذلك لما خير آدم (ع) بين العقل والدين والحياء ليختار واحداً منها، اختار العقل، فقال جبرئيل للحياء والدين انصرفا، فقالا: يا جبرئيل إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، فقال جبرئيل: فشأنكما ففاز آدم بالثلاث (١).

(١) راجع (الشافعي في شرح الكافي) ج ١ ص ١٩ عن الأصبغ بن نباتة عن علي (ع)، و (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد ج ٤ ص ٢٦ نقلاً عن أبي العباس عن علي (ع) أيضاً.

وقال الله عز من قائل: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) [الحجرات / ١٦].
فإلى الإيمان يا أخوة الإيمان لتحرصوا أنفسكم من كل جريمة وفساد من الغريزة الجنسية ومن سائر الشهوات النفسية.

الثاني: - علاج النظر إلى الأجنبية والأجانب والسبب الثاني لارتكاب جريمة الزنا أو اللواط النظر إلى النساء الأجنبية من الفتيات والرجال الأجانب من الفتيان، وقد حرم الإسلام ذلك لما فيه من نشر بوادر الزنا واللواط والتدهور في القاذورات الصحية والأخلاقية والاجتماعية وغيرها.
يقول الشاعر:

فكلام فموعد فلقاء.

نظرة فابتسامة فسلام.

ويقول الله تعالى: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون) (٣٠) وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن) [النور / ٣١ - ٣٢]. كما يضع الإسلام عقوبة التعزير على من ارتكب هذا الحرام بأن يجلد بالسوط بمقدار ما يرتدع به عن إجرامه.

الثالث: - علاج السفور والتبرج والسبب الثالث لارتكاب الجريمة الجنسية من الزنا أو اللواط السفور والتبرج وخلع الحجاب وتزين الفتيان بزينة النساء والتشبه بهن وخروج المرأة الشابة الجميلة وهي متزينة بأنواع الزينة فإن ذلك - طبعاً - من دواعي تهيج الشهوات والباعث للفساق على الزنا وللمؤمنين والمؤمنات، على الأذى لهم بتهييج شهواتهم، هذا وقد قال الله تعالى: (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) ثم يقول بعدها مباشرة: (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً) [الأحزاب / ٥٩ - ٦٠].

الرابع والخامس: - علاج الاختلاط بين الجنسين وانعدام الغيرة والسبب الرابع والخامس وهو الاختلاط بين الرجال والنساء والشباب والشابات وانعدام الغيرة بين الجنسين فإنهما يبعثان على ارتكاب الزنا أو اللواط والكثير من الجرائم الأخرى خصوصاً إذا كان الاختلاط مع السفور والتبرج والتزين كما أصبح ذلك مألوفاً بين الكثير من المسلمين فضلاً عن غيرهم، وقد أشار القرآن المجيد إلى هذين السببين بقوله تعالى مخاطباً نساء النبي (ص): (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) [الأحزاب / ٣٤] وبقوله تعالى: (وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) [الحجرات / ٥٤].

وورد عن أمير المؤمنين (ع) انه قال: يا أهل العراق نبئت أن نساءكم يدافعن الرجال في الطريق أما تستحون؟ لعن الله من لا يغار، هذا مع العلم ان تلك النساء - في ذلك الوقت - كن محجبات غير سافرات وكن يذهبن في الطريق لإمورهن، ولكن حيث إنهن يزاحمن الرجال والمستطرقين فأنكر عليهن ذلك.

وجاء في حديث عن أبي الحسن (ع) انه قال: لا ينبغي للمرأة أن تمشي وسط الطريق ولكن تمشي إلى جانب الحائط (١).

السادس: - علاج معاشره قرناء السوء

والسبب السادس هو معاشره قرناء السوء وصحبة الفجار والركون إليهم فإنها تبعث أيضا على ارتكاب جريمة الزنا أو اللواط أو أنواع المنكرات وقد نهى الله عن ذلك وتوعد عليه دخول النار وعدم النصرة.

قال تعالى: (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) [هود / ١١٤]، ويقول الإمام الصادق (ع): قال أبي: يا بني من يصحب صاحب السوء لا يسلم (٢).

وقال (ع) في وصيته لسفيان الثوري: ولا تصحب الفاجر يعلمك من فجوره (٢). وقال الشاعر:

خوفي على تلك الصحيحة تجرب.
لا تربط الجرباء حول صحيحة.

(١) راجع (العقوبات في الإسلام) للسيد صادق الحسيني ص ٢٩ نقلا عن (وسائل الشيعة).
(٢) و (٢) (البحار) ج ٧٨ ص ١٩٢ نقلا عن (الخصال) للصدوق في وصية للإمام الصادق (ع) لسفيان الثوري.

السابع: - علاج محلات الفواحش ونوادي الفساد
والسبب السابع هو محلات الفواحش والمراقص ونوادي الدعارة والفساد فإن الإسلام
لها بالمرصاد حتى انه وضع عليها أنواع العقوبات من القتل أو الصلب أو تقطع الأيدي
والأرجل أو النفي إذ ان أربابها ومروجيها والعاملين فيها وروادها ممن تنطبق عليهم
محاربة الله ورسوله والسعي بالفساد والإفساد في الأرض قال تعالى: (إنما جزاء الذين
يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم
وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة
عذاب عظيم) [المائدة / ٣٤].

الثامن: - علاج انتشار الكتب الخلاعية والأفلام السينمائية
والسبب الثامن هو انتشار أنواع الكتب والجرائد والمجلات الخلاعية والأفلام
السينمائية والتلفزيونية والصور المستهترّة المائعة والأغاني البذيئة التي أفسدت الكثير من
الناس ودخلت في كل بيت وعمت كل عائلة إلا نادرا، في حين كان اللازم أن تستغل
هذه الأجهزة لنشر مفاهيم الإسلام والدعوة إلى الحق وتهيئة الناس بالثقافة العلمية
السليمة في مختلف أنواع العلوم النافعة للدين والدنيا، ولكن أين من يتصدى لتطهير
تلك الأجهزة المفسدة والحال الحكيم بيد غير أهله المحققين ونسأل الله تعالى الفرج
وإبدال واقعنا السيء بواقع حسن صالح طبقا لوعده المحتم بقوله عز من قائل: (ولقد
كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)

[الأنبياء / ١٠٦] ومعلوم ان الإسلام يحرم مطالعة كتب الضلال والنظر إلى كل مفسد مهما كان نوعه ويقيم عليه التعزير المناسب.

التاسع: - علاج تعاطي المسكرات

والسبب التاسع لارتكاب أنواع الجرائم والمفاسد كالزنا واللواط وغيرهما هو تعاطي المسكرات، وهي من أشد ما حاربه الإسلام بكتابه وسنته، وانزل الله تعالى في تحريمها عدة آيات وحذر منها أنواع التحذير ووضع عقوبة الجلد على شاربها ثمانين سوطاً وستأتيك زيادة إيضاح عن المسكرات ومضارها والحد عليها بعد قليل بإذن الله.

العاشر: - علاج الصعوبات بأمر الزواج

والسبب العاشر بأمر الزواج المغلاة في المهور مما تعارف بين الناس خصوصاً في زماننا هذا، وقد عالج الإسلام هذا السبب بأنواع العلاج - لو عمل به - فمن جهة حيب للنساء وأهلها قلة المهر وانه مما يوجب تفضيلهن، فقد جاء الحديث عن النبي (ص): أفضل نساء أمتي أصبحن وجها وأقلهن مهراً (١).

ومن جهة أخرى يجعل من شؤم المرأة وعدم كرامتها غلاء مهرها، فقد جاء عن الإمام الصادق (ع): انه قال: تذاكروا الشؤم عند أبي، فقال: الشؤم في ثلاث: في المرأة والدابة والدار، فإما شؤم المرأة فكثرة مهرها

(١) راجع (العقوبات في الإسلام) نقلاً عن (وسائل الشيعة).

وعقم رحمها، وفي نص: وعقوق زوجها، وأما الدابة فسوء خلقها ومنعها ظهرها، وأما الدار فضيق ساحتها وشر جيرانها وكثرة عيوبها (١).
فجعل الإمام الصادق (ع) في هذا الحديث من شؤم المرأة كثرة مهرها ليقلع بذلك جذور غلاء المهر من أساسه.

ومن جهة ثالثة يجعل الإمام الصادق من سعادة المرء أن لا تطمث ابنته في بيته، وفي هذا الحديث تحريض للآباء على تزويج بناتهم قبل ان تحيض.
ولو انهم استجابوا لهذه النصيحة لتوسلوا بشتى الوسائل المتاحة والمشروعة لتزويج البنات في أوائل بلوغهن ولعملوا بالحديث الشهير: المسلم كفاء المسلمة. وحينئذ لا يلتفتون إلى المهر الباهض كما لا ينتظرون ان يكون الزوج صاحب شهادة عالية من دكتور أو مهندس أو وزير أو غير ذلك مما يسبب تأخير زواجها.
ويمثل النبي (ص) بقاء البنت الباكر بلا زواج بمثال جميل لطيف محسوس واقعي فيقول: أيها الناس ان جبرئيل أتاني عن اللطيف الخبير فقال: ان الأبكار بمنزلة الثمر على الشجر إذا أدرك ثمارها فلم تجتن أفسدته الشمس ونثرته الرياح، وكذلك الأبكار إذا أدركت ما تدرك النساء فليس لهن دواء إلا البعولة، وإلا لم يؤمن عليهن الفساد لأنهن بشر (٢).

ومن المعلوم من سيرة النبي (ص) مما أعطى لزوجاته من المهر ومما أخذ لتزويج بناته من قلة المهر الذي لا يتجاوز الأربعمئة مثقال فضة فما

(١) المصدر السابق، و (الخصال) للصدوق ص ١٠٠.
(٢) راجع (العقوبات في الإسلام) ص ٤٣ نقلا عن (وسائل الشيعة).

دون، وعلى المسلمين الاقتداء والتأسي بتلك السيرة الحميدة. قال تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا [الأحزاب / ٢٢]).

الحادي عشر: - علاج خوف الفقر والسبب الحادي عشر خوف الفقر إذا قدم على الزواج، وهذا يعود إلى سوء الظن بالله عز وجل، وفي هذا الصدد يقول تعالى: (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم [النور / ٣٣]). ومعنى هذه الآية الكريمة: (وأنكحوا الأيامى منكم) (وقد فصلناه في موضوع سابق في البحث الرابع فراجع تحت عنوان تفسير آية (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم) فإذا أقدم المسلم على الزواج متوكلا على الله الواسع العليم واثقا به وبوعوده فإنه سيرى سعة الرزق والخير أكثر مما كان عليه قبل زواجه، ومن هنا قال النبي (ص): اتخذوا الأهل فإنه أرزق لكم (١). وقال الإمام الصادق (ع): الرزق مع النساء والعيال.

(١) (الزواج في القرآن والسنة) ص ٥٢.

وعلى الإجمال: ان الآيات والأحاديث التي تحث على الزواج وترغب فيه وتحذر من تركه كثيرة جدا (١).

ومما تجدر الإشارة إليه هو ان من لم يتمكن من الناس من الإقدام على الزواج الدائم لكثرة تكاليفه فقد شرع الله عز وجل لهؤلاء وأمثالهم الزواج المنقطع لمدة معينة يتعاقد عليها وهو المعروف بزواج المتعة المذكور بقوله تعالى: (فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة) [النساء / ٢٥].

وحكمة تشريع هذا الزواج وفوائده أشار إليها الإمام أمير المؤمنين (ع) بقوله الشهير، لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا الشقي (٢).

كما أشار إلى تلك الحكمة نفسها ابن عمه وتلميذه عبد الله بن عباس حبر الأمة وعالمها بقوله: رحم الله عمر ما كانت المتعة إلا رحمة رحم الله بها أمة محمد (ص) ولولا نهيه عنها ما احتاج إلى الزنا إلا شقي... الخ (٣).

فحكمة تشريع المتعة التسهيل على من لم يتمكن من الزواج الدائم ولئلا يقدم على فاحشة الزنا.

ومسألة المتعة - كما لا يخفى - من المسائل الفقهية الفرعية التي اشتهر فيها الخلاف بين المسلمين ولا إشكال في ثبوت تشريعها في

(١) راجع كتاب (أحاديث إسلامية) في قضايا الزواج للسيد محمد هادي الصدر، وكتاب (الزواج في القرآن والسنة) للسيد عز الدين بحر العلوم وغيرهما.

(٢) (الدر المنثور) للسيوطي ج ٢ ص ١٤٠ نقلا عن عبد الرزاق وأبي داود وابن جرير عن الحكم انه سئل عن آية المتعة أمسنوخة؟ قال: لا ثم قال: وقال علي: لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي.

(٣) المصدر السابق ص ١٤١ نقلا عن عبد الرزاق وابن المنذر من طريق عطاء ابن عباس وانه يرى بقاء حليتها.

الإسلام ويدل على مشروعيتها الكتاب والسنة والإجماع من المسلمين إلا من شذ منهم ممن كابر وخالف وجدانه ومن أراد الاطلاع على هذه المسألة وتفصيلها فعليه مراجعة الكتب التي استعرضتها بأدلتها (١).

الثاني عشر: - علاج فساد السلطات الحاكمة

والسبب الثاني عشر فساد السلطات الحاكمة القائمة على الناس وتأثيرها في إفسادهم بالأساليب الشيطانية الخادعة والماكرة، وهذا ظاهر لا غبار عليه، ومعلوم أن الناس على دين ملوكهم فالملوك والأمراء إذا صلحوا صلحت الشعوب وإذا فسدوا فسدت الشعوب، كما قال رسول الله (ص): صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي وإذا فسدا فسدت أمتي، قيل: يا رسول الله ومن هما؟ قال: الفقهاء والأمراء (٢). فالأمراء والحكام والقضاة إذا كانوا فاسقين فاجرين مفسدين قطعاً ستكون الرعية سائرة على سيرتهم من الفسق والفجور والإفساد إلا من عصم الله ورحم. وهذا أمر محسوس ملموس، وحيث أن الأمراء يحاولون بجهدهم إفساد الرعايا أكثر فأكثر لذا يجلبون إليهم ما يستطيعون من المرتزقة الذين تسموا باسم العلم والفقهاء فيعطوهم من المراتب والرواتب الكثير ليسيروا الناس على سيرتهم ويفتنوهم طبق ما يريدون منهم (وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال) [إبراهيم / ٤٧].

(١) منها كتاب (المتعة في الإسلام) للسيد حسين يوسف مكي العاملي، وكتاب (المتعة) للأستاذ الكبير توفيق الفكيكي، الطبعة الثانية.

وعالج الإسلام هذا الأمر بشتى طرق العلاج وأهمها طريقان: -
أولاً: - إن الله تعالى اختار حكماً على عباده من رسل وأنبياء وأوصيائهم، خيرة الناس
وصفوتهم وحث الناس على إطاعتهم حتى جعلها مقارنة لإطاعته جل وعلا وأعطاهم
من العلم والفضل ما لم يعط لغيرهم وجعل لهم من المعجزات والآيات الدالة على
صدقهم ووجوب تصديقهم وبذلك وغير ذلك عرفهم لكافة خلقه فالسعيد من اتبعهم
والشقي من خالفهم.

ثانياً: - إن الله علم أن خبثاء النفوس سيقفون في طريق تلك الصفوة المختارة وأخيراً
يغتصبون حقوقهم ومناصبهم ويستولون على الناس بالقوة والكثرة الضالة.
وشاء الله أن يمهل أولئك الغاصبين الظالمين لأجل مسمى لهم عنده بعد أن أذرهم
وتوعدهم بأنواع النذر وألوان الوعيد الصارم كما حذر الناس من اتباعهم وإطاعتهم
والركون إليهم وإن ذلك يسبب لهم جميعاً خسران الدنيا وخزيها وعذاب الآخرة
ونارها.

راجع بإمعان وتدبر البحث الرابع من بحوث هذا الكتاب من أوله إلى آخره لتكون على
بصيرة من الأمر والله ولي التوفيق (وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) ([هود /
١٨٩].

الخمر ومضاره والحد عليه
أما الخمر فإنها أم الكبائر والمفاسد لأنها مفسدة للعقل ومن فسد عقله لا يبالي لأي
معصية اقترف وأي موبقة أتى فربما يزني حال سكره بأمه أو أخته أو ابنته أو غيرها من
محارمه. وكما قال عثمان بن مضعون

الذي حرم على نفسه الخمر أيام الجاهلية قال: لا أشرب شرابا يذهب عقلي ويضحك بي من هو أدنى مني ويحملني على ان أنكح كريمتي. فلما حرمت الخمر في الإسلام أتى إليه وهو بالعوالي فقيل له: يا عثمان قد حرمت الخمر، فقال: تبا لها قد كان بصري فيها ثاقبا (١).

وممن حرم على نفسه الخمر في أيام الجاهلية جعفر بن أبي طالب وقال: ما شربت خمرا قط لأني علمت إن شربتها زال عقلي (٢).
وما أدري كيف يرضى العاقل بزوال عقله بسبب لذة موهومة يبقى فيها أضحوكة للمارة؟! وكيف يرضى لنفسه احتساء الخمر وقد ثبت بالتجارب انها تحدث اضطرابات في المجموع العصبي وتمزق الكبود وتصيرها كالغرابيل؟ وعلى هذا إجماع الكيماويين المتخصصين في تحليل المواد الكيماوية والمؤيد بتقرير الأطباء الماهرين. والشارب للخمر المستحل لها كافر بإجماع المسلمين ويجب على إمام المسلمين أن يقتله، أما الشارب لها مع إقراره بحرمتها على إمام المسلمين أن يجلدته ثمانين جلدة نكالا لما اقترف من الإثم وله في الآخرة عذاب عظيم.
ولكن مما يوجب غضب الله وسخط رسوله والمؤمنين أن ساسة المسلمين في أغلب الأقطار الإسلامية قد فتحوا باب بيع الخمر على مصراعيه وأباحوا للناس التكسب به وهو من المكاسب المحرمة، بحيث لا تكاد تجد بلدة من بلاد المسلمين - إلا القليل - لا تباع فيها الخمر

(١) راجع (الاستيعاب) لابن عبد البر ج ٣ ص ٨٦.
(٢) راجع كتابي (علل الشرائع) ج ٢ ص ٥٥٨ و (الأمالى) ص ٤٦ للصدوق.

سرا أو إعلانا وحتى تكاد ان تحكم بأنها أكثر استعمالا لبعض مستعملها - من الماء. وبعد هذا وأضعاف أمثاله من الفواحش والمنكرات الكثيرة التي تسيخ منها الأرض يريد المسلمون ان يحظوا بالشرف ويسودوا في الدنيا ويثابوا في الآخرة، هيهات هيهات وأنى لهم التناوش من مكان بعيد.

هذه دول كثيرة ومنها أمريكا قد حرمت الخمر - لمدة من الزمن - تحريما عاما وأذاعوا للملأ المنع من شربها بناء على أمر الأطباء وعلى الاكتشافات الحديثة لا بناء على تحريم الدين لها لأن دينهم بزعمهم لا يحرمها.

وهذه معجزة إسلامية تؤيد ما جاء به نبينا (ص) من تحريم الخمر، فقد كسبت أمة أمريكا من تحريم الخمر ومنع شربها سعة في الرزق وأمنا في البلاد وقل القتل والاعتداء وازدادت الأموال بنسبة مطردة.

والمسلمون الذين يحرم دينهم الخمر، وتحريمه يعد من الضروريات في دينهم وعليه إجماعهم - مع ذلك - فإنهم يعاقرونها صباحا ومساء ولا منكر ولا مانع حتى عم الفساد في الأقطار الإسلامية كافة (١).

أما في هذه الدنيا مقر ولكن كل ما في الكون شر تجرع سمه بر وبحر كأن لم يأتها نهي وأمر وطعم الحق في الأفواه مر كمسجون على كفيه جمر.

إلى أين الفرار ولا مفر لقد عم الفساد فلا صلاح وطبق هذه الدنيا ضلال وأنكرت النفوس الدين حتى ولا عجب فأن الدين حق وما ديني هذا العصر إلا.

(١) راجع تفاصيل ما كتبناه عن الخمر في كتابنا (قبس من القرآن) تحت هذه العناوين: الحكمة في تحريم الخمر، الخمر في الكتاب، الخمر في الحديث النبوي، الخمر في حديث أهل البيت، الخمر في نظر الطب الحديث، أقوال الأطباء والحكماء في الخمر، إحصاءات عن نتائج السكر، نصيحة موجهة لشارب الخمر من المسلمين، نداء موجه إلى أولياء الأمور ص ٢١١ - ١٣٥.

نعم جاءهم الأمر والنهي والتوجيه الصحيح من الله ورسوله وسائر المصلحين ولكن الكثير منهم قد اتبعوا شهواتهم الفاسدة وأعرضوا عن كل صلاح وإصلاح كما قال تعالى: (أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون (٧٠) ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون (المؤمنون / ٧٠ - ٧٢) فهذه بعض مضار اتباع القوة الشهوية. اتباع القوة الغضبية وما يؤدي إليه من الهلاك أما اتباع القوة الغضبية فإنه مهلك أيضا للإنسان لما يصدر منه أثناء غضبه من أنواع المنكرات التي تسبب له ألوانا من الأضرار للروح والجسم في الدنيا والآخرة فعلى العاقل ان يجتنب اتباع هذه القوة المفترسة المنكرة ويتبع العقل السليم والشرع المستقيم ولا يستعمل قواه الغضبية إلا في الحق وللحق ليعيش سعيدا في الدنيا ومثابا في الآخرة وهذا هو شعار الأنبياء والأوصياء ومن خلصت لله أعمالهم.

الغضب بين المدح والذم
ذلك لأن الغضب غريزة في الإنسان تلهب فيه روح الحمية والاباء وتبعته على التضحية
والفداء في سبيل أهدافه الرفيعة ومثله العليا كالذود عن العقيدة الحقّة وصيانة الأرواح
والأموال والكرامات، ومتى تجرد الإنسان عن هذه الغريزة صار عرضة للهوان
والاستعباد للغير، لذلك قيل: من أغضب ولم يغضب فهو حمار.
فالغضب من هذه الناحية من الفضائل النفسانية الممدوحة والمشرقة التي تعزز الإنسان
وترفع معنوياته، وذلك كله فيما إذا كان غضبه على المنكرات في ذات الله عز
وجل، ومن هنا ورد في بعض الأحاديث ان الله تعالى أوحى إلى نبيه شعيب (ع) إني
معذب من قومك مائة ألف: أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم، فقال: يا
رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى الله إليه: إنهم داهنوا أهل المعاصي ولم
يغضبوا لغضبي (١).
أي انهم تركوا نصيحتهم ولم يتعرضوا لهم ولم يمنعوهم من قبائحهم ولم يغضبوا عليهم
لغضب الله على جرائمهم.
أما إذا كان الغضب لغير الحق ولا سيما الإفراط فيه والخروج عن حد الاعتدال الذي
تحدى به صاحبه ضوابط العقل والشرع فهو الغضب المذموم بل يعد من الرذائل
الخلقية المهلكة للإنسان المضرة بصحته، لأنه

(١) راجع الحديث وما قبله ومصادره في كتابنا (قبس من القرآن) ص ١٦٤.

إذا غضب وتجاوز بغضبه حد الاعتدال يبتعد عنه العقل ويتركه هو وشأنه.
آثار الغضب على الصحة وأضراره
كما ترى في الوجدان والعيان ان الإنسان إذا غضب يصير أشبه بالمجنون أو الوحش
الضاري ويستعمل - بلا شعور - كل الوسائل للانتقام أو لإعدام من كان سببا لغضبه
إنسانا كان أو حيوانا أو جمادا.
ويزيد غضبه وشراسته يزداد نبض القلب حركة، ففي البعض يجتمع الدم في الأحشاء
الداخلية فيصفر الوجه ويقشعر البدن وتشخص العيون ويحدث عنده اضطراب عام
يهيجه لاقتحام الكبائر والفظائع، وهذا النوع من الغضب كثير الخطر على الشخص
نفسه وعلى عدوه.

وفي البعض الآخر ينسكب الدم على سطح الجلد فتمتلئ الأوردة ويحمر الوجه ويزداد التنفس وتتقوى العضلات والجسد في الوقت، وبهذا التغيير الكبير الذي يعترى الدورة الدموية والمجموع العصبي يصاب الإنسان بأعراض شديدة الخطر وتبطل عنده وظيفة المعدة وتنعدم قابليتها، وفي أثناء ذلك تتغير لديه كل الإفرازات كاللعاب والحليب وتصير سامة بحيث إذا عض الغضبان إنسانا حال غضبه أحدث فيه قرحة يعسر برؤها، وإذا رضع الطفل لبن المرضعة وهي غاضبة يصاب الطفل بقىء وأحيانا بنزيف قد يموت منه، وقد يحدث عند الغضبان نفسه انفجارات دموية شديدة وغير ذلك من الأعراض الخطيرة، ويقول الأطباء: ان أكثر الأعضاء تأثرا عند الغضب الكبد ثم الدماغ ويحدث عند الإنسان بسبب ذلك آلام مختلفة من يرقان أو تشنج أو فالج. وبالإجمال الغضب أس لعلل كثيرة ولا سيما إذا كان شديدا أو كان متواصلا فيضرب بالصحة جدا وقد يسبب مرض التدرن الرئوي ويقصر الحياة ويكسب الوجه هيئة الكآبة والاصفرار، ومن هنا قال بعض الحكماء: الحلم شفاء من كل ألم. ذم الغضب ومدح الحلم في الكتاب والحديث والأدب

وقد جاء في كتاب الله وسنة نبيه والأئمة من أهل بيته (ص) وعن الحكماء والأدباء في ذم الغضب ومدح الحلم والصفح الشيء الكثير، نذكر بعضاً منه ليكون عبرة لمن اعتبر. أما الكتاب فقد قال تعالى في مدح المؤمنين المتقين الذين يستحقون غفران الله وجناته وعظم حبه لما اتصفوا به من الصفات الحسنة بقوله: (الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) [آل عمران / ١٣٥]، وكظم الغيظ هو الإمساك على ما في النفس من شدة الغضب بالتصبر حتى لا يظهر له أثر سئ يضره ويضر غيره.

ويقول تعالى في آية أخرى في مدح المؤمنين الصالحين أيضاً: (يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون) [الشورى / ٣٨]، أي انهم يصفحون ويغفرون لمن كان سبباً لغضبهم ولا يصرون على الغضب المؤذي.

وقال رسول الله (ص): الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل (١). وقال الإمام الصادق (ع): سمعت أبي يقول: أتى رسول الله (ص) رجل بدوي فقال له: إني أسكن البادية فعلمني جوامع الكلم، فقال: أمرك أن لا تغضب، فأعاد الأعرابي عليه المسألة ثلاث مرات والنبي يقول له: أمرك أن لا تغضب

(١) (جامع السعادات) للتراقي ج ١ ص ٢٨٨.

فقال الأعرابي: لا أسأل عن شيء بعد هذا، ما أمرني رسول الله (ص) إلا بالخير (١).
أقول: حيث أن رسول الله (ص) تعرض عليه أعمال الناس بصحائفهم وقد علم أن هذا
البدوي كثير الغضب وغضبه يجره إلى أنواع المساوئ لذلك قال له: (آمرك أن لا
تغضب)، فأعاد عليه المسألة ثلاث مرات والنبي يقول له: (آمرك أن لا تغضب).
ونظير هذا المعنى أن رجلا آخر جاء إلى رسول الله (ص) أيضا وقال له عطني يا رسول
الله فقال (ص): صن لسانك فقال مرة ثانية: عطني، قال: صن لسانك، فقال عطني:
قال: صن لسانك، ويحك وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد
ألسنتهم وما أوصاه بهذا إلا لعلمه ببذاءة لسانه.
وقال أمير المؤمنين (ع): وأحذر الغضب فإنه جند عظيم من جنود إبليس (٢).
وقال (ع): الحدة ضرب من الجنون لأن صاحبها يندم فإن لم يندم فجنونه مستحکم
(٢).
وقال الصادق (ع): الغضب مفتاح كل شر (٣).

(١) (أخلاق أهل البيت) للسيد مهدي الصدر ص ٥٥ نقلا عن الكافي.

وانما صار الغضب مفتاحا للشروع لما ينجم عنه من أخطار وآثام كالأستهزاء والتعيير والفحش والضرب والقتل ونحو ذلك من المساوئ العديدة التي تصدر من الغضبان بسبب فقدانه لعقله ومن هنا قال الإمام الصادق (ع) أيضا: من لم يملك غضبه لم يملك عقله (٤).

وقال بعض الحكماء: السفينة التي وقعت في اللجج الغامرة واضطربت بالرياح العاصفة وغشيتها الأمواج الهائلة أرجى إلى الخلاص من الغضبان الملتهب (٥)، ولا خلاص منه إلا بالرجوع إلى العقل والشرع.

ولنختم موضوع الغضب وذمه والحلم ومدحه بأبيات لبعض الأدباء فإن فيها حكمة بالغة لمن تدبرها وعمل بها فقال ونعم ما قال:

وان كثرت منه علي الجرائم شريف ومشروف ومثل مقاوم واتبع فيه الحق والحق لازم إجابته عرضي وان لام لائم تفضلت ان الفضل بالحلم حاكم.

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب وما الناس إلا واحد من ثلاثة فأما الذي فوقي فأعرف قدره وأما الذي دوني فإن قال صنت عن وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا.

اتباع القوة الوهمية وما يؤدي إليه من الهلاك

فهذا بعض الهلاك الذي يكون بسبب اتباع القوة الغضبية، وأما اتباع القوة الوهمية المنتجة للبغي فإنه أيضا مهلك للإنسان مضر بصاحبه قبل أن

يضر بغيره لأنه إذا بغى على غيره عاد بغيره عليه بلا ريب أما في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معا كما قال عز من قائل في محكم كتابه العزيز: (يا أيها الناس إنما بغىكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) [يونس / ٢٤]. ومن هنا جاء في الحديث عن النبي (ص) وعن حفيده الإمام الصادق (ع) انهما قالا (١): ثلاث هن رواجع إلى أهلها: المكر والنكث - أي نكث بيعة إمام الحق - والبغي، ثم تلا رسول الله (ص): (يا أيها الناس إنما بغىكم على أنفسكم) و (لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله) [فاطر / ٤٤] و (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) [الفتح / ١١].

وفي حديث آخر قال رسول الله (ص): ثلاث قد فرغ الله من القضاء فيهن، لا يبغين أحدكم فإن الله يقول: (يا أيها الناس إنما بغىكم على أنفسكم) و (لا يمكر أحدكم فإن الله يقول: (لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله) و (لا ينكث أحد فإن الله يقول: (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) (٢)).

(١) اخرج الحديث عن انس عن النبي (ص) السيوطي في (الدر المنثور) ج ٣ ص ٣٠٣ نقلا عن أبي الشيخ وابن مردويه وأبي نعيم والخطيب في (تاريخه) والديلمي في (مسند الفردوس)، = = ونقله عن السيوطي العلامة الطباطبائي في (الميزان)، وحديث الصادق رواه العياشي في (تفسيره) ج ٢ ص ١٢١ ونقله عنه المولى محسن الفيض في تفسيره (الصافي).

(٢) و (٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٠٣ نقلا عن ابن مردويه عن عبد الله بن نفيل الكناني، ونقله عن ابن أبي حاتم عن يزيد بن اسلم على الترتيب.

وقال رسول الله (ص): لا يؤخر الله عقوبة البغي فإن الله قال: (إنما بغىكم على أنفسكم) (٢).
وفي نص آخر قال (ص): ما من ذنب أجدر من أن يعجل الله لصاحبه العقوبة من البغي وقطيعة الرحم (١).
وقال الإمام الصادق (ع) في وصيته لولده موسى: يا بني من كشف حجاب غيره انكشفت عورته ومن سل سيف البغي قتل به ومن احتفر لأخيه بئرا سقط فيها (٢).
وقد اخذ هذا المعنى أحد الأدباء فقال:
من حافر يصرع في حفرتة.
يا حافر الحفرة أقصر فكم.
وجاء في رسالة وجهها الإمام الصادق (ع) إلى جماعة من أصحابه يأمرهم فيها بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال وينهاهم فيها عن مساوئ الأخلاق وقبائح الأعمال يقول فيها: إياكم ان يبغى بعضكم على بعض فإنها ليست من خصال الصالحين وانه من بغى صير الله بغيه على نفسه وصارت نصرة الله لمن يبغى عليه ومن نصره الله غلب وأصاب الظفر من الله (٣).

(١) المصدر السابق نقلا عن البيهقي عن أبي بكر.

ويتحقق النصر الإلهي خصوصا إذا كرر الباغي بغيه بعدما عوقب على بغيه الأول من قبل المبغي عليه كما قال تعالى: (ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور) [الحج / ٦١].

أسباب تولد البغي

والبغي الذي هو تجاوز الحد الشرعي والعقلي وهو أيضا ظلم الآخرين والفتك بهم يتولد من جهات عديدة منها الحسد، وهذا يقع كثيرا بين الناس بل يقع حتى بين الأخوين كما في بغي أولاد يعقوب (ع) على أخيهم يوسف حيث ألقوه في غياهب الجب بغيًا منهم عليه وحسدا له وأخيرا كانت العاقبة الحسنة له في الدارين لثباته على الحق وتحمله المحنة والابتلاء، وتارة يتولد البغي من الصفات الخسيصة كالجشع والنهم وحدوثه ممن يتصف بذلك محسوس ملموس وبغي هؤلاء مقصور غالبا على الجهة المالية وربما يؤدي أيضا إلى إزهاق النفوس المحترمة توصلا إلى ما تعلق به أطماعهم وانقيادا إلى شهواتهم.

وهذا هو حال قطاع الطرق واللصوص والسراق المنتشرين في كل قطر ومصر وزمان ومكان، وقد فشت هذه الحالة الإجرامية الخسيصة في زماننا هذا وانتشرت انتشارا فظيعا حتى فقد الأمن والأمان بين الناس الأبرياء وأصبح الكثير منهم لا يأمن على نفسه وماله وعرضه من هؤلاء المفسدين في الأرض الذين لا يخافون من الله القوي العزيز وبطشه بهم ولا يخافون من السلطات القائمة التي لا تنفذ حكم الله فيهم من قتلهم وصلبهم أو قطع أيديهم

وأرجلهم من خلاف بل قد يكونون مشاركين لهم في البغي والظلم أو مساعديهم على ذلك.

ومن أهم ما يتولد منه البغي حب السيادة والسلطة والأنانية فتوسيع السيادة والسلطة والأنانية هي التي تفتح أبواب البغي على العباد بأشكال مختلفة من نار حرب موقدة أو تسميم الأفكار بما يبدها ويزيل ألفتها ويذهب بروح الحياة منها، ويكون هذا غالباً عند الملوك والأمراء الذين ابتليت بهم الأمم قديماً وحديثاً، ومنه بغي قارون على موسى بن عمران وقومه الذي حكاها الله في القرآن المجيد وإليك تفصيله:

بغي قارون على موسى بن عمران وقومه:
يقول عز من قائل: (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين (٧٦) وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين (٧٧) قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون (القصص / ٧٧ - ٧٩).

المشهد الأول من قصته وبغيه
في المشهد الأول من مشاهد قصة قارون يتجلى لنا فيه البغي والتطاول على الآخرين
والإعراض عن النصح والتعالي على العظة والإصرار على الفساد والاعتزاز بالمال والبطر
الذي يفرط بالنفس ويقعدها عن شكر المنعم ونعمه.
فقوله تعالى: (إن قارون كان من قوم موسى (أي انه كان من بني إسرائيل عشيرة موسى
(ع)، ويقال: انه كان ابن عم موسى، وقيل: ابن خالته، ولكنه مع قربه من موسى
وانتمائه إلى بني إسرائيل - مع ذلك - بغي عليهم - على موسى وقومه معا - وكان
سبب بغيه هو ما أوتي من الثراء وكثرة الأموال حيث آتاه الله مالا كثيرا، ويصف
القرآن كثرة أمواله بقوله: (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة
(والكنز هو المال الفائض والمخبوء والمدخر، ويصور لنا القرآن كثرته بأن مفاتيح تلك
الكنوز تثقل وتعي العصبة من أقوياء الرجال عن حملها والعصبة ما بين الثلاثة إلى
العشرة على أصح الأقوال، ويؤيده قول اخوة يوسف وهم تسعة نفر لا غير: (ونحن
عصبة) [يوسف / ٩].
ومن أجل هذا المال وحب السيادة بغي قارون على قومه، وهذه هي طبيعة الإنسان
غالبا كما قال تعالى: (كلا إن الإنسان ليطغى (٦) أن رآه استغنى) [العلق / ٧ - ٨].

ولم يذكر القرآن فيم كان بغيه بل جعله مجهولا ليشمل شتى الصور والاحتمالات فربما كان بغيه عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم كما يصنع طغاة الأموال في كثير من الأحيان، وربما كان بغيه بحرمانهم حقوق فقرائهم في ذلك المال كي لا يكون دولة بين الأغنياء وحدهم، وربما كان بغيه بالتناول والاستعلاء عليهم والإفساد في الأرض، أو هذا كله وغيره.

وعلى أية حال فقد حصل من قومه من حاول ردعه عن هذا البغي وإرجاعه إلى النهج القويم الذي يرضاه الله في التصرف بهذا الثراء لذا قال تعالى: (إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) والمراد من هذا الفرح الذي لا يحب الله أهله هو البطر والغرور المفرط بمتاع الدنيا الفانية مما يسبب نسيان الآخرة ويعقبه البطر والأشر، لذلك قال بعدها: (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين) (أي اطلب فيما أعطاك الله من مال الدنيا تعمير الآخرة بإنفاق ما فيه من الحقوق في سبيل الله وطلب رضاه، ولا تنس ان نصيبك من الدنيا شيء قليل مما أوتيت وهو ما تأكله وتشربه وتلبسه وتسكنه فقط والباقي فضل زائد تتركه لغيرك، فخذ من دنياك ما يكفيك، وانفق منه لغيرك إحسانا كما آتاك الله إحسانا من غير أن تستحقه وتستوجه، ولا تطلب الفساد في الأرض بالاستعانة بما آتاك الله من مال وما اكتسبت من جاه فإن الله لا يحب المفسدين في الأرض وقد بناها على الصلاح والإصلاح.

ولكن قارون ما استجاب لهذا الردع ولا أصغى لهذا النصيح من قومه بل رده بجملة واحدة تحمل شتى معاني الإفساد والفساد بإستكبار لئيم وبطر ذميم، حيث جاء في رده عليهم: (قال إنما أوتيته على علم عندي)، يقال: إن العلم الذي كان عنده هو علم الكيمياء، حقا انها قولة مغرور وكلمة مطموس البصيرة حيث نسي ان مصدر نعمه هو الله تعالى، فقومه يقولون له: (وابتغ فيما آتاك الله (وهو يقول: (إنما أوتيته على علم عندي (هكذا أعرض عن الله وذكره وما أنعم به عليه بكل ازدراء واستكبار، وجوابه هذا مكرر في البشرية من أمثاله فكم من الناس من يظن ان علمه وكده هما وحدهما السبب في غناه وثروته لذلك جاء التهديد له ولغيره من أمثاله: (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا (أي فإن كان ذا قوة وذا مال فقد أهلك الله من قبله أجيالا كانت أشد منه قوة وأكثر مالا ولم تنجهم قوتهم ولا أموالهم من الإهلاك الإلهي الذي حل بهم كفرعون وجنوده وأمثالهم كثير من الطغاة (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون (والمراد من هذا النص بيان السنة الإلهية الكونية في تعذيب المجرمين وإهلاكهم بذنوبهم وعدم إمهالهم عند حلول آجالهم، ومحصله ان المؤاخذة الإلهية ليست كمؤاخذة الناس حتى إذا لاموه أو نصحوه صرف نفسه عنهم بما لفته من الجواب حتى ينتفع في ذلك بعلمه بل هو الله سبحانه العليم الشهيد لا يسأل المجرمين عن ذنوبهم وانما يأخذهم بما اكتسبوا من البغي والظلم أخذ عزيز مقتدر على حين غفلة وهم لا يشعرون.

المشهد الثاني من قصته وبغية
ثم يأتي المشهد الثاني بقوله تعالى: (فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة
الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم (٧٩) وقال الذين أوتوا العلم
ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون ([القصص / ٨٠ -
٨١]، نعم.. هذا هو المشهد الثاني من بغية وذلك حين خرج على قومه في زينته،
ويقال انه خرج مستعرضا زينته في أربعة آلاف فارس عليهم الثياب المصبغات
المعصفرة ومعه ثلاثة آلاف جارية عليهن الحلبي والحلل الحمر متباهيا أمام بني إسرائيل
بما آتاه الله من المال والجاه وهنا وقفت طائفة منهم أمام فتنة الحياة الدنيا وزينتها وقفة
المأخوذ المبهور والمتهاوي المتهافت متمنين ان يكون عندهم مثل ما عنده من المال
والجاه ويقولون: (إنه لذو حظ عظيم (أي ذو نصيب أوفر من السعادة العظيمة والحظ
الفائق العظيم، وهؤلاء هم الجهلاء الذين يجعلون الدنيا هي وحدها الغاية المطلوبة في
مساعيهم وانه ليس وراءها غاية أخرى فهم على جهل من الآخرة وما أعد الله فيها من
الثواب لعباده.
ووقفت طائفة أخرى منهم بعكسهم وهي تستعلي بموقفها على ذلك كله بقيمة الإيمان
والرجاء فيما عند الله من الأجر العظيم والثواب الدائم في الآخرة، المعد لعباده المؤمنين
الصالحين الصابرين، وهؤلاء هم أهل العلم والمعرفة الذين لا تغرهم الحياة الدنيا وزينتها
الفانية، وقد حكى الله قول هاتين الطائفتين وان الطائفة الثانية أخذت
تلوم الطائفة الأولى وتزجرها بقولهم:)

ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون (والويل هو الهلاك ويريدون به - في هذا المقام - الزجر عما تمنوه من الدنيا وزخارفها وان ثواب الله خير منها لمن آمن وعمل صالحا، وقوله: (ولا يلقاها إلا الصابرون (أي لا يفهم هذه الحقيقة ويأخذ بها إلا الصابرون صبورا تاما في الموارد كلها صبر عند الشدائد والابتلاء وصبر على أداء الطاعات وصبر على اجتناب المحرمات، وهؤلاء هم أهل الربح الحقيقي في الدارين لأنهم يعيشون في الدنيا باطمئنان بوعد الله ووعد أوليائه لهم وقناعة تامة بما رزقهم الله ويقدمون من الآخرة على ثواب الله وأنواع كرامته، قال تعالى بعد استعراض قصة قارون: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) [القصص / ٨٤].

المشهد الثالث من قصته في الانتقام منه
ويأتي المشهد الثالث من قصته وهو المشهد الحاسم الفاصل الذي تتدخل فيه القدرة الإلهية مباشرة لتضع حدا للفتنة وتحطم الغرور والكبرياء تحطيمًا تامًا وترحم الضعفاء الجهلاء الذين اغتروا بزينتته فيعرفوا الحق ويرجعوا إليه حيث قال عز من قائل: (فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) [القصص / ٨٢].

وهنا تذكر الروايات السبب الأخير في هذا الخسف وكيفيته.
بغية على موسى بالخصوص وكيفية الخسف به

ومحصل تلك الروايات ان موسى (ع) قال لقارون إن الله قد أمرني بأن آخذ الزكاة من بني إسرائيل وعليك زكاة أموالك، فأبى ان يدفعها، فصالحه أخيرا على أن يدفع من كل ألف دينار دينارا واحدا وعن كل ألف شاة شاة واحدة وهكذا عن كل ألف شئ شئ واحد فاجابه إلى ذلك ثم رجع إلى بيته فحسبه فوجده كثيرا فلم تسمح نفسه الأمانة بالسوء بذلك. وكان آخر ما قام به من البغي انه دعا امرأة شقية بغية من بني إسرائيل فقال لها: أعطيك ألفين من الدنانير على أن تجيئي غدا إذا اجتمعت بنو إسرائيل عندي فقولني: يا معشر بني إسرائيل ما لي ولموسى وقد آذاني وهو يراودني عن نفسي فأجابته إلى ذلك قائلة: نعم أفعل ذلك وأعطاها المال مختوما بخاتمه، فلما جاءت بيتها ندمت وقالت: يا ويلى قد عملت كل فاحشة وما بقي إلا أن أفترى على نبي الله، ولما أصبحت وأقبلت ومعها الدنانير حتى قامت بين بني إسرائيل وقالت: إن قارون قد أعطاني هذه الدنانير على ان آتي لجماعتكم فأزعم ان موسى يراودني عن نفسي ومعاذ الله أن أفترى على نبي الله هذا ماله مختوم بخاتمه، فعرف بنو إسرائيل خاتم قارون فغضب موسى (ع) ودعا الله عليه وقد خر ساجدا يبكي ويقول: يا رب ان عدوك قد آذاني وأراد فضيحتي اللهم فأغضب لي وسلطني عليه. فأوحى الله إليه أن أرفع رأسك فإني قد أمرت الأرض أن تطيعك وسلطتها عليه فمرها، فقال موسى: يا أرض خذيته فأخذته وهو على سريره حتى غيبت سريره، فلما رأى قارون ذلك ناشده الرحم فقال: خذيته فأخذته حتى غيبت قدميه، ثم أخذته حتى غيبت ركبتيه ثم أخذته حتى غيبت

حقويه هذا وهو يناشد موسى الرحم مرة بعد أخرى وموسى لا يلتفت إليه ويقول للأرض خذيه فأخذته حتى غييته.

وفي رواية: فابتلعت الأرض بقصره وخزائنه، ويؤيد ذلك قوله تعالى: (فخسفنا به وبداره الأرض).

نعم هكذا ابتلعت الأرض وابتلعت داره وهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقا وذهب ضعيفا عاجزا لا ينصره أحد ولا ينتصر بجاه أو مال أو علم.

وبعد إهلاكه أوحى الله سبحانه إلى موسى: يا موسى ناشدك الرحم واستغاث بك فأبيت أن تغيثه، فلو إياي دعا واستغاث بي لأغثته، فقال: موسى يا رب لو علمت ان ذلك فيه رضى لك لأجبتة.

فأنظر إلى عاقبة بغي الباغين كيف أصبحوا أحاديث لمن بعدهم وكيف كان بغيهم على أنفسهم، ومهما امتدت حبال البغي من أهله فالله سريع الحساب، ومهما جرت في ساحة البغي خيلهم ففرس الباغي عثور وعلى الباغي تدور الدوائر، كما يقال: جنوده ضاق عنها السهل والجبل.

لا يأمن الدهر ذو بغي ولو ملكا.

وأنظر إلى رحمة الله سبحانه بعباده كيف قال لنبيه موسى: فلو إياي دعا واستغاث بي لأغثته.

اللهم إنا ندعوك ونستغيث بك وحدك لا شريك لك ونطلب منك الرحمة والرأفة بحق نبي الرحمة محمد وآله الطاهرين صلواتك عليهم أجمعين ونسألك أن تجيرنا من شر الباغين والظالمين ولا تجعلنا معهم إنك أنت الرؤوف الرحيم.
المشهد الرابع والأخير من القصة ندم من أغتر بملكه
قال تعالى: (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون
[القصص / ٨٣].

وكلمة (وي) هنا هي كلمة تندم فهؤلاء الذين كانوا يتمنون مكانه لما علموا بهلاكه بتلك الآية الإلهية وشاهدوا مصيره البائس بعد تلك النعم والجاه أظهروا ندمهم على ما كانوا يتمنونهم واعترفوا ببطلان ما كان يزعمه قارون - وهم يصدقونه - في ان القوة والجمع في الدنيا بنبوغ الإنسان بعلمه وجودة تدبيره لا بفضل من الله سبحانه لذلك وقفوا يحمدون الله ويعترفون بمشيئته في سعة الرزق أو ضيقه وتقديره لعباده بأن يوسع على من يشاء منهم ويضيق على من يشاء طبق حكمته وبلائه لهم، كما تحقق عندهم ان الله من عليهم بعدم خسف الأرض بهم، وقولهم: (ويكأنه لا يفلح الكافرون) تندم ثان منهم واعتراف بعدم فلاح الكافرين بنعم الله جل شأنه.

وقارون لم يجهر بكلمة الكفر بل تظاهر أنه من اتباع موسى (ع) وكان أيضا من قراء التوراة وانه لم يكن أحسن منه قراءة لها، ولكنه نافق كما نافق السامري واغتر بماله وجاهه وما كان عنده من العلم لذلك سلكه هؤلاء في عداد الكافرين ورأوا في نوع إهلاكه إهلاكا للكافرين من أمثاله.

نسأل الله حسن العاقبة، وهذا ما أردنا تفصيله لآية العدل والإحسان والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير.

الاستشفاء التفصيلي بآية تطويق البخل بما بخلوا به

قال عز من قائل: (ولا يحسن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير) [آل عمران / ١٨١].

دلالة الآية الكريمة

تدل هذه الآية الكريمة بكل صراحة ووضوح على ان البخل شر على البخلاء وليس فيه خير لهم كما يحسبون ويتوهمون إذ ان ما بخلوا به سيجعله الله يوم القيامة طوقا ثقيلا في أعناقهم وحملا وبيلا عليهم وتنكيلا بهم لأنهم بخلوا ببعض ما تفضل به عليهم بعد أن أمرهم ببذله لمستحقه ونهاهم عن البخل به وان له سبحانه ميراث السماوات والأرض وييده إزالة النعمة عنهم أو بقاءها لهم فمبدأ الملك منه وإليه يعود، وانه عليم بما يكون عليه البخلاء

من البخل وانه من مساوئ الأخلاق ورذائلها ومهلكاتها كما ان الكرم من محاسن الأخلاق وفضائلها ومنجياتها وهذا لا ريب فيه لذلك أدخلناه في هذا البحث الأخلاقي. فالآية فيها بيان لحال البخلاء وسوء عاقبتهم وتخطئة لما يتوهمونه من دعوى الخير في البخل، كما ان فيها دلالة على تجسيم الأعمال حيث يجعل الله نفس ما بخلوا به طوقا في أعناقهم يوم القيامة، وهذا ما دلت عليه الأدلة العقلية والنقلية أيضا كما سيجيء.

نوعا البخل وأقسامهما
والبخل - كما لا يخفى - في نوعين: بخل في الواجبات وهو الذي يعاقب عليه المرء يوم القيامة وإليه الإشارة في هذه الآية بقوله: (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة). وبخل في غير الواجبات كالمستحبات والمندوبات الراجحة والمباحات غير المرجوحة شرعا، والبخل بهذا النوع هو الذي يحرم به الإنسان من شرف الدنيا وثواب الآخرة المترتب على التفضل والإحسان للغير ولكن لا يعاقب عليه العبد يوم القيامة وإليك أقسام النوعين:

أقسام البخل في الواجبات

إذ البخل في الواجبات الذي يعاقب عليه الإنسان له أقسام منها:

١ - البخل بالواجب من زكاة الأموال

تكون زكاة الأموال واجبة في تسعة أشياء فقط عند الشيعة الإمامية وهي:

الأنعام الثلاثة (الإبل والبقر ويشمل الجاموس، والغنم ويعم المعز) وفي الغلات الأربع (الحنطة والشعير والتمر والزبيب) وفي النقدين (الذهب والفضة) المسكوكين بسكة المعاملة.

فهذه الأشياء التسعة يجب على مالكيها اخراج الزكاة منها حسب ما ذكر لها من الشروط - كما وكيفاً - في محلها من كتب الفقه الاستدلالية والرسائل العملية فراجع (١).

معنى الزكاة وفلسفتها

والزكاة هي مصدر (زكا) بمعنى نما وزاد كما يقال: زكا الزرع أي نما، ومصدر (زكا) بمعنى طهر أيضا كما يقال: زكا عمله أي طهر، فالزكاة سميت زكاة بلحاظ هذين المعنيين فهي من جهة فيها تطهير للنفس من رذائل الأخلاق ومذامها من سائر الذنوب والمعاصي وفي طبيعتها رذيلة البخل كما انها تكون مطهرة للأموال مما فيها من الشبهات. قال تعالى مشيرا إلى هذا المعنى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) [التوبة / ١٠٤].

ومن جهة أخرى ان إخراجها يوجب نماء الرزق وزيادته من الله عز وجل بحسن الخلف ومضاعفته وإلى هذا المعنى أشار قوله تعالى: (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) [الروم / ٤٠].

(١) راجع كتابنا (قبس من القرآن) ص ٢٦٦ - ٢٧١ فقد ذكرنا فيه مقدار الزكاة في الأمم الماضية وفي هذه الأمة وما تجب فيه وما تستحب على رأي المذاهب الخمسة.

وقد أشارت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (ع) إلى هذين المعنيين في خطبتها الكبيرة عندما استعرضت فيها فلسفة بعض العقائد والعبادات والأخلاق حيث قالت (ع): فجعل الله الإيمان تطهيرا لكم من الشرك والصلاة تنزيها لكم عن الكبر والزكاة تزكية للنفس ونماء للرزق... الخ (١).

الزكاة في الكتاب والحديث

وقد أكثر الله ذكر الزكاة في القرآن المجيد وقرنها بالصلاة في آيات عديدة كقوله تعالى حاكيا قول عيسى (ع): (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا) [مريم / ٣٢]، وكقوله تعالى عند ذكر إسماعيل صادق الوعد ومدحه: (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا) [مريم / ٥٦]، وكقوله في مدح المؤمنين والمؤمنات من هذه الأمة: (ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) [التوبة / ٧٢] إلى غير ذلك من الآيات الأخر التي عطف بها الزكاة على الصلاة التي هي عمود الدين وهما معا أهم أركان الدين الخمسة التي بني عليها الإسلام وأفضلها الولاية لأهل البيت " (٢).

(١) راجع مصادر الخطبة في كتابنا (قبس من القرآن) ص ٣٤ - ٣٨.

(٢) جاء في (الكافي) للكليني والعياشي في (تفسيره) ج ١ ص ١٩١ عن زرارة عن أبي جعفر الباقر (ع) أنه قال: بني الإسلام على خمسة أشياء: الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية. قال زرارة: فقلت: وأي شيء من ذلك أفضل فقال: الولاية أفضل لأنها مفتاحهن والوالي هو الدليل عليهن، قلت: ثم الذي يليها في الفضل، قال: الزكاة لأن الله تعالى قرنها بها وبدء بالصلاة قبلها، قلت: والذي يليها في الفضل، قال: الحج، قال: قال الله تعالى: " ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين " [آل عمران / ٩٨]، قال: قلت: ثم الذي يليه في الفضل، قال: الصوم، ثم قال (ع): ذروة الأمر ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن للطاعة للإمام بعد معرفته أما لو أن رجلا قام ليله وصام نهاره وتصدق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه ما كان له حق في ثوابه ولا كان من أهل الإيمان. ولقد أجاد العلامة الشيخ هادي كاشف الغطاء حيث قال في المقبولة الحسينية ص ٣: وجاء مخلصا بأفضل القرب وطول عمره لربه عبد فهو كأهل الشرك والغواية ثم عليه الخزي والعذاب. من صام لله وصلى واقترب وانفق المال وجد واجتهد ثم أتى الله بلا ولاية وليس في أعماله ثواب.

أما الأحاديث التي ذكرت الزكاة فهي كثيرة أيضا نذكر منها بعض ما يتعلق بالآية المبحوث عنها فقط.

منها ما روى العياشي في (تفسيره) عن أبي عبد الله الصادق (ع) عن آبائه عن رسول الله (ص) انه قال: ما من ذي زكاة مال، إبل ولا بقر ولا غنم يمنع زكاة ماله إلا أقيم يوم القيامة بقاع قفر ينطحه كل ذات قرن بقرنها وينهشه كل ذات ناب بأنيابها ويطأه كل ذات ظلف بظلفها حتى يفرغ الله من حساب خلقه.

وما من زكاة مال نخل ولا زرع ولا كرم يمنع زكاة ماله إلا قلدت أرضه في سبعة أرضين، وفي نص: قلده الله تربة أرضه يطوق بها سبع أرضين إلى يوم القيامة وذلك قوله تعالى: (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) (١).

وروى العياشي أيضا عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر (ع) عن قول الله: (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والأرض

(١) (تفسير العياشي) ج ١ ص ٢٠٧ و (البحار) و (البرهان).

(قال: ما من عبد منع زكاة ماله إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعبانا من نار مطوقا في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب وهو قول الله: (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) قال: ما بخلوا من الزكاة (١).

وروى الصدوق في (من لا يحضره الفقيه) وفي (معاني الأخبار) بسنده عن حريز قال: قال أبو عبد الله (ع): ما من ذي مال ذهب أو فضة يمنع زكاة ماله إلا حبسه الله عز وجل يوم القيامة بقاع قرقر وسلط عليه شجاعا أقرع يريدته وهو يحيد عنه فإذا رأى أنه لا يتخلص منه أمكنه من يده فيقضمها كما يقضم الفحل ثم يصير طوقا في عنقه وذلك قوله عز وجل: (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) (وما من ذي مال إبل أو بقرة أو غنم يمنع زكاة ماله إلا حبسه الله عز وجل يوم القيامة بقاع قرقر يطؤه كل ذات ظلف بظلفها وينهشه كل ذات ناب بنابها وما من ذي نخل أو كرم - أي عنب - أو زرع يمنع زكاتها إلا طوقه الله ربقة أرضه إلى سبع أرضين إلى يوم القيامة (٢)).

هذه بعض الأحاديث التي وردت من طرقنا فيمنع زكاة أمواله وبخل بها في خصوص ما يتعلق بالآية المبحوث عنها، وأما ما مورد من أهل السنة في خصوص الآية أيضا من الأحاديث فهي كثيرة، منها ما نقله السيوطي في تفسيره (الدر المنثور) عن البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ص):

(١) المصدر السابق و (البحار) ج ٢٠ ص ٦ و (البرهان) ج ١ ص ٣٢٧ على ما في الحاشية.
(٢) القاع المكان المستوي ليس فيه ارتفاع ولا انخفاض ومنه قوله تعالى: " فيذرها قاعا صفصفا ". والقرقر المستوي أيضا، ويروى بقاع قفر، والشجاع الأقرع قسم من الحيات سقط شعر رأسه لكثرة سمه، والحديث يرويه الصدوق في (معاني الأخبار) ص ٣١٨ وينقله المولى محسن الفيض في (المحجة البيضاء) ج ٢ ص ٦٥ عن (الفقيه) ص ١٥١ رقم (١).

من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاع أقرع له زبيبتان (١) يطوقه يوم القيامة فيؤخذ بلهزميته - يعني بشدقيه - فيقول له: أنا مالك أنا كنزك ثم تلا هذه الآية: (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير) [آل عمران / ١٨١].

ومنها ما نقله السيوطي أيضا عن أحمد، أي ابن حنبل وعبد بن حميد والترمذي وصححه، وابن ماجه والنسائي وابن جرير وابن خزيمة وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، عن ابن مسعود عن النبي (ص) قال: ما من رجل لا يؤتى زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع يفر منه وهو يتبعه فيقول له: أنا كنزك حتى يطوق في عنقه، ثم قرأ النبي (ص) مصداقه من كتاب الله: (ولا يحسبن الذين يبخلون.... الآية).

ونقل أيضا عن عبد بن حميد عن عكرمة قال: يكون المال على صاحبه يوم القيامة شجاعا أقرع إذا لم يعط حق الله منه فيتبعه وهو يلوذ منه.. الخ (راجع الدر المنثور للسيوطي ج ٢ ص ١٠٥).

وهذه الأحاديث المروية من طرق الفريقين إنما هي من باب المثال لكل ثقل يطوق به عنق الذي يبخل بما تفضل الله به عليه، وذكر البخل بالزكاة والمال بالخصوص إنما هو من ذكر أهم المصايق للبخل وأظهرها وإلا فالآية المباركة عامة تشمل البخل بمطلق ما تفضل الله تعالى به على الإنسان،

(١) الزبيبتان نقطتان سوداوان فوق عيني الحية.

فتشمل البخل بالزكاة والمال وتشمل البخل بالعلم والجاه، وكل فضل من الله يمكن ان ينتفع به الناس أيضا، فالامتناع عن بذله والبخل به يكون مذموما وتشمله الآية الكريمة، ويؤيد لك ما جاء في الحديث عن نبينا الأكرم (ص) انه قال: من سئل عن علم فكتمه ألجم - بلجام - من نار، (راجع تفسير مواهب الرحمن لآية الله السبزواري ج ٧ ص ١٢٠).

البخلاء سبب إفساد المجتمع وعدم انتظامه ولذلك يستحقون العذاب وانما استحق البخلاء هذا العذاب الشديد لأنهم بخلوا بما أوجب الله عليهم من الزكاة وغيرها من سائر الحقوق الواجبة الأخرى، وقد أوجبها الله على الأغنياء سدا لحاجة الفقراء وحفظا لانتظام الإنسان في معاشه ولو أن الأغنياء أدوا حقوق أموالهم لصلح المجتمع الإنساني ولما بقي مسلم محتاجا، وان الناس ما افتقروا ولا احتاجوا إلا ببخل الأغنياء، بل ما صدر من الكثير من الناس من المساوئ والعيوب الاجتماعية كالارتداد عن الدين والاعتناق للمبادئ الهدامة الكافرة والسرقاات وأنواع الاعتداءات وغير ذلك من تأييد أهل الباطل واكل الحرام والجهل بدينهم إلا ببخل الأغنياء بما أوجب الله عليهم من الحقوق، ومن هنا ورد عن أمير المؤمنين (ع) انه قال: البخل جامع لمساوئ العيوب، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء (١).

(١) (مناهل الأشواق) للسيد محمد صفي الدين ص ١١١.

ويعني بالبخل - أولا وبالذات - البخل بالحقوق الواجبة التي لو أخرجت وصرفت في وجوهها المشروعة لانتظمت حياة الإنسان وزال الجهل والفقر والكفر والسرقة والاعتداء من المجتمع وغير ذلك من المساوئ الكثيرة السائدة على كثير من الناس، فحقيق على الله عز وجل أن يمنع رحمته عمن منع حق الفقراء في ماله ويزيد في عذابه وعقابه دنيا وآخرة.

يقول رسول الله (ص): ان الله افترض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر ما يسع فقراءهم ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنيائهم، ألا إن الله يحاسبهم حسابا شديدا ويعذبهم عذابا أليما.

وقريب من هذا الحديث ورد عن علي وأبنائه الطاهرين " (١).

وجاء في بعض الأحاديث القدسية ان الله تعالى يقول: المال مالي والفقراء عيالي فمن بخل بمالي على عيالي أدخله ناري ولا أبالي.

والبخل بالواجب من الزكاة وبغيرها من الحقوق الواجبة يكشف عن عدم الإيمان بالله وعدم الخوف من عذابه، ومن هنا جاء في جملة من الأخبار ان: مانع الزكاة كافر ويؤيد ذلك قول الله تعالى: (وويل للمشركين (٦) الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) [فصلت / ٧ - ٨].

٢ - البخل بالواجب من زكاة الأبدان

(١) راجع (البحار) ج ٩٦ ص ٢٨، و (جامع السعادات) ج ٢ ص ١٢٤.

ومن أقسام البخل بالواجبات بخل الشخص بما أوجب الله عليه من زكاة الأبدان وهي المسماة بالفطرة، ووقتها ليلة عيد الفطر ويومه إلى الزوال بعد شهر رمضان، وقيل يوم عيد الفطر إلى الزوال، ويجب على المكلف بها - بعد توفر شرائط وجوبها - ان يخرجها عن نفسه وعن كل من يعول به واجب النفقة كان أم غيره قريبا أم بعيدا مسلما أم كافرا صغيرا أم كبيرا حرا أم عبدا، بل الظاهر الاكتفاء بكونه منضمًا إلى عياله ولو في وقت يسير كالضيف إذا نزل عليه قبل الهلال وبقي عنده ليلة العيد وان لم يأكل عنده، وهي بسيطة جدا وقدرها عن كل إنسان صاع أي مقدار ثلاث كيلوات تقريبا من حنطة أو شعير أو تمر أو زبيب أو غير ذلك مما هو القوت لغالب الناس ويجزي دفع القيمة من النقود.

والبخل بها مع التمكن عليها يكشف عن عدم المبالاة بالدين نظرا لعدم أهميتها في قلتها.

دليل وجوبها في الكتاب والحديث
وإليها بالخصوص يشير القرآن المجيد بقوله عز من قائل: (قد أفلح من تزكى (١٤)
وذكر اسم ربه فصلى (الأعلى / ١٥ - ١٦).
والمراد من قوله: (تزكى) (أي أخرج زكاة الفطر، والمراد من قوله (فصلى) (أي صلاة العيد على الأظهر، ويؤيد ذلك ان الله يذكر الزكاة في عديد من الآيات بعد ذكر الصلاة أما في هذه السورة فقدم الزكاة على الصلاة وفي ذلك إشارة إلى زكاة الفطرة وصلاة العيد.

ومن هنا يقول العلماء انه يستحب ان يخرج الإنسان زكاة الفطرة قبل صلاة العيد، ويؤيد ذلك أيضا ما روي عن أبي عبد الله الصادق (ع) في أن المراد من قوله تعالى: (تزكى) (أي أخرج زكاة الفطرة) ومن قوله (فصلى) (أي صلاة العيد، وروي ذلك أيضا عن أبي عمرو وأبي العالية وعكرمة وابن سيرين وغيرهم (١)).

وروي ذلك مرفوعا عن النبي (ص) عن طرق عديدة، وورد عن الإمام الصادق (ع) انه قال: من ختم صيامه بقول صالح وعمل صالح تقبل الله منه صيامه فليل له: ما القول الصالح؟ قال: شهادة ألا إله إلا الله والعمل الصالح إخراج الفطرة (٢).

ومن فوائد إخراج الفطرة انها تدفع الموت عن أدبت عنه، فقد ورد عن الصادق (ع) انه قال لأحد أصحابه واسمه متعب: اذهب فأعط عن عيالي الفطرة وأعط عن الرقيق بأجمعهم ولا تدع منهم أحدا فإنك إن تركت منهم إنسانا تخوفت عليه الفوت، فقلت: وما الفوت؟ قال: الموت (٣).

(١) (مجمع البيان) للطبرسي م ٥ ص ٤٧٦ و (تفسير القمي) ج ٢ ص ٤١٧ و (البحار) ج ٩٦ ص ١٠٩ و (مفاتيح الغيب) للرازي ج ٨ ص ٤١٣، و (الميزان) للطباطبائي ج ٢٠ ص ٣٩٥ نقلا عن (الفاقيه) للصدوق وغيره و (الدر المنثور) ج ٥ ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٢) (الأمالى، والتوحيد، ومعاني الأخبار) للصدوق ص ٣٤ و ص ٦ و ص ٢٢٤ ونقل الحديث عن المصادر الثلاثة المجلسي في (البحار) ج ٩٦ ص ١٠٣.

(٣) (علل الشرائع) للصدوق ص ٣٨٩ والمجلسي في (البحار) ج ٩٦ ص ١٠٤.

وفي حديث الإمام موسى بن جعفر عن آبائه قال: قال رسول الله (ص): من أدى زكاة الفطر تمم الله ما نقص من زكاته (١).

٣ - البخل بالواجب من الفدية والكفارات.

ومن أقسام البخل بالواجبات بخل الشخص بما وجب عليه من الفدية ومن الكفارات وهي كثيرة، ومن الفدية مثلا ان الله أوجب على الإنسان صيام شهر رمضان فإذا كان معذورا من الصيام لمرض ملازم له أو شيخوخة أو غير ذلك من الأعذار الشرعية التي يسقط بسببها عنه الصيام فإنه يجب أن يدفع الفدية عوضا عن الصوم عند مجيء شهر رمضان الثاني، وقدرها عن كل يوم مد من الطعام يدفعه إلى الفقير المستحق أو إطعامه والمد ثلاثة أرباع الكيلو تقريبا.

أما الكفارات فمنها ان الإنسان إذا أفطر يوما من شهر رمضان متعمدا من غير عذر شرعي فإنه تجب عليه الكفارة وهي عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكينا مخيرا بينها، وأما إذا أفطر على محرم فتجب عليه كفارة الجمع بين الخصال الثلاث.

وأبواب الفدية والكفارات الواجبة كثيرة، وعدم دفعها عند وجوبها بخلا موجب للعقاب.

٤ - البخل بما أوجب الإنسان على نفسه

(١) المصدر السابق ص ١٠٥ نقلا عن نوادر الراوندي.

ومن أقسام البخل بالواجبات بخل الإنسان بما أوجب على نفسه كالنذر والعهد واليمين فإنه إذا نذر لله أو عاهد الله أو حلف بالله على شئ راجح مشروع فإنه يجب عليه الوفاء بما أوجبه هو على نفسه بعد حصول شرائطه كالعقل والاختيار والقصد إلى مدلول الصيغة... الخ، فإذا بخل به ولم يدفعه كان مخالفا لما عاهد الله عليه مستخفا بدينه قال تعالى: (وليوفوا نذورهم) [الحج / ٣٠]، وقال تعالى: (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون) [النحل / ٩٢].

٥ - البخل بالواجب من الخمس في سبعة أشياء
ومن أقسام البخل بالواجبات بخل الشخص بما أوجب الله عليه من الخمس، وهو واجب في سبعة أشياء:
الأول: - ما يغنم قهرا من أهل الحرب الذين تستحل دماءهم وأموالهم وتسبي نساؤهم وأطفالهم إذا كان الغزو بإذن الإمام، وهذا ما عليه إجماع المسلمين.
والثاني: - مما يجب فيه الخمس المعدن الأرضي ومنه الذهب والفضة والرصاص والنحاس والحديد والياقوت والزبرجد والزئبق والفيروزج

والعقيق والقيروالنفط والكبريت والكحل والزرنيخ والملح وكل ما يطلق عليه عرفا معدن أرضي.
ولو أخرج خمس هذه الأشياء فقط ودفع لمستحقه لما بقي منهم واحد محتاجا.
والثالث: - مما يجب فيه الخمس الكنز إذا لم يعرف صاحبه فيكون ملكا لواجده وعليه دفع خمسه.
والرابع: - ما يخرج بالغوص من البحار وهو كل ما يخرج منها من الجواهر مثل اللؤلؤ والمرجان وغيرهما.
والخامس: - الأرض التي اشتراها الذمي أي الكتابي كاليهودي والنصراني من مسلم فإنه يجب على الذمي خمسها ويؤخذ منه قهرا إن لم يدفعه بالاختيار وإلا لا يباع عليه، ولا فرق بين الأرض الخالية وأرض الزرع وأرض الدار وأرض الدكان وغيرها، ولو التزم المسلمون وولاتهم بهذا الواجب على الذمي وعلى الوجه المشروع لما غصبت أرض من مسلم ولما استطاع الذميون ان يحكوا المؤامرات ضد المسلمين في بلادهم ويستولوا عليهم ولا ان يجعلوا الأرض التي اشتروها محلا للفساد والإفساد.
والسادس: - المال الحلال المختلط بالمال الحرام مع عدم العلم بصاحب المال الحرام أصلا وعدم العلم بقدره فإنه يخرج منه الخمس والباقي منه يكون حلالا، والأحوط دفعه بقصد الأعم من المظالم والخمس.

والسابع: - ما يفضل عن مؤنة الإنسان بعد مرور سنته له ولعياله مما يدخل تحت مسمى الكسب من مطلق الفوائد العائدة عليه.
والخمس فرضه الله لمحمد (ص) وذريته عوضاً عن الصدقة التي حرمها عليهم من زكاة الأموال والأبدان التي هي من أوساخ أيدي الناس تنزيهاً وإكراماً لهم، ومن منع درهما واحداً كان من الظالمين لهم والغاصبين لحقهم، فقد ورد عن الإمام الصادق عن أبيه الباقر (ع) انه قال: ان الله الذي لا إله إلا هو لما حرم علينا الصدقة انزل لنا الخمس، فالصدقة علينا حرام والخمس لنا فريضة والكرامة لنا حلال (١).
وقد روي عن آل بيت محمد (ص) قولهم: ان من أكل علينا درهما فهو ظالم غاصب لنا (٢).

تقسيم الخمس إلى ستة أسهم
ويقسم الخمس إلى ستة أسهم على ما قسمه الله عز وجل في محكم كتابه المجيد بقوله: (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير) [الأنفال / ٤٢]

(١) (تفسير العياشي) ج ٢ ص ٦٤ ونقله عنه المجلسي في (البحار) ج ٩٦ ص ٢٠٢، و (الخصال) للصدوق ج ١ ص ٢٩١ ونقله عنه المجلسي في (البحار) ج ٩٦ ص ١٩٩.
(٢) (مناهل الأشواق) ص ١٠٧.

[، فالسهم الستة ثلاثة لله ولرسوله ولذي القربى، وهم المعصومون من آل محمد (ص)، وهذه الثلاثة يجب دفعها إلى الإمام المعصوم أو بإذنه إن كان الإمام موجودا فهي له، وله حق التصرف فيها، وإلى نائبه وهو المجتهد العادل إذا كان الإمام غائبا، وهي المسماة بسهم الإمام أرواحنا فداه.

أما الثلاثة الأخرى فلأيتام والمساكين وابن السبيل ممن انتسب بالأب إلى هاشم بن عبد مناف فلو انتسب إليه بالأم لم يحل له الخمس وحلت له الصدقة.

وظاهر آية الخمس انها مشتملة على تشريع مؤبد كسائر التشريعات القرآنية وأن حكم الخمس متعلق بما يسمى غنيمة عرفا سواء كان غنيمة حربية مأخوذة من الكفار أو غيرها مما يطلق عليه غنيمة لغة كأرباح المكاسب بعد مرور سنة والغوص والمعادن والكنوز وغيرها.

وما قيل: أن مورد نزول الآية هو غنيمة الحرب فصحيح، ولكن ليس للمورد أن يخصص بمورده فقط بل يعم مورده وغيره، ومن هنا أطلقت الآية الكريمة الغنيمة من كل شئ كما هو معلوم ولم تقيدها بغنائم الحرب، ويؤيد ذلك ما ورد في الأخبار عن أئمة الهدى والتي منها ما رواه الكليني في (الكافي) بسنده عن سماعة قال: سألت أبا الحسن (ع) عن الخمس فقال: في كل ما أفاد الناس من قليل أو كثير (١).

(١) راجع (الميزان) ج ١٠ ص ١٠٤.

وعلى كل فحكم الخمس كما ذكرنا عند الشيعة الإمامية من زمن النبي (ص) إلى اليوم، ولكن القوم بعد رسول الله منعوا الخمس عن بني هاشم وأضافوه إلى بيت المال وبقي بنو هاشم عندهم لا خمس ولا زكاة.

وإلى هذا أشار الإمام الشافعي في بعض مؤلفاته الفقهية حيث قال: فأما آل محمد الذين جعل لهم الخمس عوضاً عن الصدقة فلا يعطون من الصدقات المفروضات شيئاً مما قل أو أكثر، ولا يحل لهم أن يأخذوها، ثم قال: وليس منعهم حقهم من الخمس يحل لهم ما حرم عليهم من الصدقة.

ومن المعلوم أن المانع لما وجب عليه من الخمس بخلاً معدود عند الله في زمرة الظالمين لحق محمد وآل محمد (ص) فهو من أقسام البخل بالواجبات المهمة التي تدل الآية الكريمة على عدم إيمان من لم يدفعه لمستحقه لقوله تعالى: (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان .)

٦ - البخل بالواجب من النفقة لحجة الإسلام

ومن أقسام البخل بالواجبات بخل الشخص بما يجب عليه من الإنفاق لحجة الإسلام إذا استطاع مالياً وبدنياً، وذلك لأن الحج عبادة مالية وبدنية والاستطاعة هي الصحة في البدن والقدرة في المال.

ووجوب الحج ثابت بالكتاب والسنة القطعية على كل مكلف جامع للشرائط وهو ركن من أركان الدين وضرورة من ضرورياته ووجوبه إنما

يكون لمرة واحدة في العمر ويسمى ذلك ب (حجة الإسلام) وتركه بعد الاستطاعة كبيرة من الكبائر التي قد تؤدي بصاحبها إلى الكفر وسوء العاقبة قال تعالى: (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) [آل عمران / ٩٨].

ومن هنا روى الكليني في (الكافي) والصدوق في (الفقيه) وغيرهما بطريق معتبر عن أبي عبد الله الصادق (ع) انه قال: من مات ولم يحج حجة الإسلام ولم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق معه الحج أو سلطان يمنعه منه فليمت يهوديا أو نصرانيا (١).

وهذا المعنى وارد أيضا من طرق أهل السنة عن النبي (ص) انه قال: من مات ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه مرض حابس أو سلطان جائر أو حاجة ظاهرة فليمت على أي حال شاء يهوديا أو نصرانيا (٢).
نسأل الله تعالى حسن العاقبة.

٧ - البخل بالواجب من الإنفاق في الجهاد
ومن أقسام البخل بالواجبات بخل الشخص بما يجب عليه من الإنفاق في الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته وإحياء دينه من بذل المال والنفس والتحريض عليه بالخطب والمواعظ، وإليه يشير أمير المؤمنين (ع) في وصيته

(١) (المحجة البيضاء) للمولى محسن الفيض ج ٢ ص ١٤٥ نقلا عن (الكافي) ج ٤ ص ٢٦٨ و (الفقيه) ص ٢٦٥.

(٢) (الدر المنثور) للسيوطي ج ٢ ص ٥٦ نقلا عن سعيد بن منصور واحمد في كتاب الإيمان وأبي يعلى والبيهقي عن أبي أمامة كما نقله من عدة طرق ومصادر أخرى.

لولديه الحسن والحسين ليلة وفاته بقوله: الله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله، ثم قال (ع): وانما يجاهد في سبيل الله رجلان إمام هدى ومطيع له مقتد بهداه (١).

نرى أن أمير المؤمنين في هذه الوصية قد حث على الجهاد بالمال واللسان حثا بالغاً مؤكداً عليه مرة أخرى، ثم ذكر لنا أن هذا الجهاد في سبيل الله انما يجب على الناس إذا دعا إليه إمام هدى عادل من معصوم مفترض الطاعة أو نائب خاص عنه مستحق للنيابة جامع للشرائط وإلا فلا، لذلك قال: وانما يجاهد في سبيل الله رجلان إمام هدى ومطيع له مقتد بهداه.

وقال (ع) في بعض خطبه: أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنته الوثيقة - أي الوقاية الحقيقية - فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء... الخ (٢).

والجهاد في سبيل الله هو من أعظم أركان الإسلام وقد حث القرآن المجيد والسنة النبوية عليه في آيات وأحاديث عديدة ونكتفي من ذلك بذكر آية واحدة وحديث واحد، قال تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم

(١) راجع الوصية في كتاب سليم بن قيس ص ١٤ - ١٥ ونقلها المجلسي في (البحار) ج ٤٠ ص ٢٢٩ عن الكليني في فروع (الكافي) ج ٧ ص ٥١، وعن (الفيح) للصدوق ص ٥٢٣، و (مقاتل الطالبين) لأبي الفرج الأصبهاني ص ٢٥، ونقلها المحمودي في (نهج السعادة) ج ١ باب الوصايا ص ١٥٩ عن عدة مصادر.

(٢) راجع شرح النهج لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٤٠، وقوله (ع): (فتح الله لخاصة أوليائه) لعله يشير فيه إلى ان قيادته بيد الخاصة من أولياء الله كالمعصوم ونائبه القائم مقامه.

وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ([التوبة / ١١١]، وقال النبي (ص) في الحديث المتفق عليه: فوق كل بر بر حتى يقتل الرجل في سبيل الله فليس فوقه بر (١).

٨ - البخل بالواجب من النفقة على العيال

ومن أقسام البخل بالواجب بخل الشخص بما يجب عليه من النفقة على من تجب نفقتهم عليه طبق الشرائط المذكورة في كتب الفقه.

والذين تجب النفقة عليهم الوالدان والولد ذكورا وإناثا والزوج على زوجته والحر على مملوكه، فهؤلاء الذين تجب النفقة عليهم بعد نفقته على نفسه وهم الذين لا يعطون من الزكاة وغيرها من الحقوق المالية المفروضة لأنهم يجبرون على النفقة عليهم.

قال أبو عبد الله الصادق (ع): خمسة لا يعطون الزكاة: الولد والوالدان، أي الأب والأم، والمرأة والمملوك لأنه يجب على الرجل النفقة عليهم (٢).

وعن حريز قال: قلت لأبي عبد الله (ع) من الذين أجبر عليه وتلزمي نفقته؟ قال: الوالدان والولد والزوجة (٢).

(١) نقلنا الحديث من كتاب (رياض المسائل).

والنفقة على هؤلاء لا تقدير لها بل تجب عليهم بما يكفيهم من الطعام والكسوة والمسكن كما يجب تأديتهم وتعليمهم بما تجب عليهم معرفته في أمور الدين من العقائد والعبادات والأخلاق وسائر الآداب، وقد ذكر القرآن هذه النفقة في عدة آيات منها قوله تعالى: (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) [النساء / ٣٥]، وقال تعالى: (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاه سيجعل الله بعد عسر يسرا) [الطلاق / ٨].

٩ - البخل بالواجب من وفاء الديون ورد الأمانات

ومن أقسام البخل بالواجبات بخل الشخص بما يجب عليه من الوفاء بما استدانه واستقرضه من أحد وكذلك رد ما استودع عنده من الودائع وما أؤتمن عليه من أمانة وأمثال ذلك من سائر حقوق الناس عنده فإنه يجب عليه أن يرجع ذلك إلى أهله فإذا حملة البخل والطمع على عدم إرجاع تلك الحقوق إلى أهلها فإنه يكون ممن يأكل أموال الناس بالباطل، وقد نهانا الله عن ذلك وحذرنا منه أشد التحذير وتوعد عليه بالنار قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) (٢٩) ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا [النساء / ٣٠ - ٣١]، وقال تعالى: (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) [البقرة / ١٨٩]، وخص بالذكر في بعض الآيات

أكل أموال اليتامى ظلما وانه انما يأكل نارا ويملاً بطنه منها، فقال تعالى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً) (النساء / ١١).

بيان عن مجموع البخل بالواجبات
ولا ريب أن المانع لهذه الواجبات التي مر ذكرها - وغيرها من الحقوق اللازمة على الإنسان - بخلا وشحا مذموم ومطالب بها في الدنيا ومحاسب عليها في الآخرة، وأما المانع لها عن عدم اعتقاده بوجوبها وبالأخص مما هو من أركان الدين وما هو حق لازم للآخرين فمانعه يكون خارجا عن دائرة الإيمان بالله وكتبه ورسله، وحسابه على الله الذي لا يجوزه ظلم ظالم و (إن ربك لبالمرصاد) (الفجر / ١٥).
فهذا هو النوع الأول من البخل بالواجبات وهذه هي أهم أقسامه التي توجب عقاب أولئك البخلاء بقوله تعالى: (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) (وأعرب عن عظيم عقابهم وأليمه أيضا بقوله تعالى: (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم (٣٤) يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) (التوبة / ٣٥ - ٣٦).

فالله عز وجل يتوعد الكانزين للذهب والفضة في هاتين الآيتين توعدا شديدا ويهددهم بالعذاب تهديدا عظيما ويذكر أن المراد من الكنز للذهب والفضة الذي يبغضه الله ويهدد عليه أشد التهديد هو الكنز الذي يلازم الكف

عن إنفاقه في سبيل الله إذا كان هناك سبيل لا مجرد ادخاره وحفظه، أما المراد من الإنفاق في سبيل الله هو الإنفاق فيما يتوقف عليه قيام دين الله وحفظه من انهدام بنيانه كالجهاد في سبيل الله عند وجوبه، والإنفاق في جميع مصالح الدين وشؤون مجتمع المسلمين من سائر الحقوق المالية الواجبة التي أقام الدين بها صلب المجتمع الديني، فمن كنز ذهباً أو فضة والحاجة قائمة والضرورة موجودة ولم ينفقها في سبيل الله فليبشر بعذاب أليم لأنه آثر نفسه على ربه وقدم حاجته وحاجة ولده على حاجة المجتمع الديني، ويستفاد هذا المعنى من الآية الثانية التي تذكر كيفية عذابه بما ادخره لنفسه ولم ينفقه في سبيل ربه بقوله تعالى: (هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) فقد عاد عذاباً عليكم تعذبون به أجارنا الله وإياكم من عذابه وسخطه انه سميع مجيب.

أقسام البخل في غير الواجبات

والنوع الثاني من البخل في غير الواجبات له أيضاً أقسام كثيرة منها:

١ - بخل الشخص على السائلين

من الفقراء والضعفاء الطالبين بعض الطعام أو الملابس أو شيء قليل من النقود الصغيرة والدراهم، والبخلاء من أهل هذا القسم قليل إذ قل من يبخل بمثل ذلك ومن بخل به فهو خارج عن دائرة الإنسانية.

ولا ينبغي للإنسان ان يرد السائل خائبا أو ينهره ويزجره فقد نهانا الله عن ذلك بقوله تعالى: (فأما اليتيم فلا تقهر (٩) وأما السائل فلا تنهر ([الضحى / ١٠ - ١١]). وقد وردت في رد السائل بالمعروف وعدم زجره والإساءة إليه روايات كثيرة منها ما ورد عن نبينا الأعظم (ص) انه قال: إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها ثم ردوا عليه بوقار ولين أما ببذل يسير أو رد جميل فقد يأتيكم من ليس بأنس ولا جان ينظرون كيف صنيعكم فيما حولكم الله تعالى (١). وورد أيضا في بعض الأخبار ان الله أوحى إلى كليمة موسى بن عمران (ع): يا موسى أنل السائل ولو بالقليل وإلا فرده ردا جميلا فإنه يأتيك من ليس بإنس ولا جان بل ملك من ملائكة الرحمن ليختبرك فيما أنعم الله به عليك (٢). وقد قيل في ذلك: فبالجميل رده إن لم يكن عطاء لك. لا تنهرن سائلا فرما كان ملك.

(١) (تفسير مواهب الرحمن) للسبزواري ج ٤ ص ٣١٧ و (البحار) ج ٩٦ ص ١٧٢ بمعناه.
(٢) (البحار) ج ٩٦ ص ١٧٤ بمعناه عن الإمام أبي جعفر (ع).

قصة عابد مع زوجته والسائل
ويؤيد ذلك ما رواه الكليني في روضة الكافي بسنده عن أبي حمزة الشمالي عن أبي
جعفر الباقر (ع) انه قال: كان في بني إسرائيل رجل عابد، وكان محارفاً، أي صاحب
حرفة، ولكنه لا يتوجه في شيء فيصيب شيئاً أي انه لا يربح من حرفته شيئاً، فأنفقت
عليه امرأته حتى لم يبق عندها شيء فجاجعوا يوماً من الأيام فدفعت إليه زوجته نصلاً من
غزل وقالت: ما عندي غيره انطلق فبعه واشتر لنا شيئاً نأكله، فأنطلق بنصل الغزل لبيعه
فوجد السوق قد غلقت والمشتريين قد قاموا وانصرفوا فقال: لو أتيت هذا الماء
فتوضأت منه وانصرفت فجاء إلى البحر وإذا هو بصياد كان قد ألقى شبكته وأخرجها
وليس فيها إلا سمكة رديئة، ومكثت عنده مدة حتى صارت رخوة منتنة فقال له: بعني
هذه السمكة بهذا الغزل تنتفع به في شبكتك قال: نعم فأخذ السمكة ودفع إليه الغزل
وانصرف بالسمكة إلى منزله واخبر زوجته الخبر فأخذت السمكة لتصلحها فلما شقتها
بدت من جوفها لؤلؤة ثمينة فدعت زوجها فأرته إياها فأخذها وانطلق بها إلى السوق
فباعها بعشرين ألف درهم وأنصرف إلى منزله بالمال موضوعاً في كيسين فوضعه فإذا
سائل يدق الباب ويقول: يا أهل الدار تصدقوا رحمكم الله على المسكين فقال له
الرجل ادخل فدخل فقال له: خذ أحد الكيسين فأخذ أحدهما وانطلق، فقالت له امرأته:
سبحان الله بينما نحن مياسير إذ ذهبت بنصف يسارنا فلم يكن ذلك بأسرع من ان دق
السائل الباب فقال له الرجل: ادخل فوضع الكيس

مكانه ثم قال له: كل هنيئاً مريئاً انما أنا ملك من ملائكة ربك، انما أراد ربك أن يبلوك فوجدك شاكراً ثم ذهب (١).

٢ - بخل الشخص بما يستحب له من العطايا والهبات
ومن أقسام البخل بالمستحبات بخل الشخص بما يستحب له من العطايا والهبات
لأقربائه وجيرانه وأصدقائه من سائر الناس ولا سيما المحوجين منهم بحسب حاله، فإذا
كان الإنسان يفعل الخير والإحسان لوجه الله فعليه ان يبذل من ماله ما لا يضر بحاله
ابتغاء مرضاة الله فإن الله يجزيه على ذلك الجزاء الأوفى في الدنيا والآخرة أما في الدنيا
فيخلف عليه ما انفق لقوله تعالى: (وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين
(سبأ / ٤٠)، ومن هنا قال إمامنا أمير المؤمنين (ع): من أيقن بالخلف
جاد بالعطية (٢).

وقال بعض الشعراء:
والبخل من سوء ظن المرء بالله.
من ظن بالله خيراً جاد مبتدئاً.

(١) روضة الكافي ٣١٦.

(٢) (البحار) ج ٧٧ ص ٣٨٥ نقلاً عن العيون والأمالى للصدوق.

وكان عبد الله بن جعفر الطيار سخيا كثير العطاء حتى لقب ببحر الجود وقطب
السخاء فلا موه يوما على كثرة إعطائه فقال: ان الله عودني أن يمدني وعودته أن أجود
فأخاف ان أقطع العادة تنقطع المادة (١).

ولقد أجاد من قال:

على الناس طرا قبل ان تتفلت ولا البخل يحويها إذا هي ولت..

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت.

وأما في الآخرة فله عند الله الأجر العظيم لقوله تعالى: (وما تقدموا لأنفسكم من خير

تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير) [البقرة / ١١١].

وأحسن من قال:

تبخل فذو العرش جواد كريم وفي غد لك الثواب العظيم.

أحسن إلى الناس وانفق ولا.. يخلف ما تنفقه عاجلا.

وهذا الخير العميم في الدنيا والآخرة لمن ينفق طلبا لرضا الله وتقربا إليه وأما إذا كان

الإنسان يفعل الخير والإحسان رغبة في الثناء عليه وحبا بنسبة الفضائل والكمال إليه

فعليه ان يبني مجده على دعائم كرمه قبل بناء

(١) روى معناه صاحب (نهاية الأرب) ج ٣ ص ٢٠٥، كما في (العقد الفريد) ج ١ ص ٢٢٥.

مسكنه، ويكون هذا من باب من يشتري العز والشرف والكمال والفضل بالسخاء وبذل المال فهو رابح أيضا كما قيل:
من شرى عزا بمال.
ليس بالمغبون عقلا.
وقال الشاعر البستي:
فطالما استعبد الأحرار إحسان.
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم.
والبخلاء من أهل هذا القسم حرصا منهم على المال وحباً به يدل على نقص في عقولهم لأن العاقل إنما يحب المال ليكون به سعيدا، والبخل يحول بينهم وبين السعادة في الدارين ويمنع نسبة الفضائل والكمال إليهم، ونصرة القريب والبعيد لهم ولقد أجاد من قال:
فليس إليه ما حيتت سبيل بخيلا له في العالمين خليل.
وآمرة بالبخل قلت لها اقصري أرى الناس إخوان الكرام ولا أرى إلفات نظر من ناحيتين
والجدير بالذكر الذي يلزم إلفات النظر إليه هو
أولا: - ان يكون الكرماء الأسخياء مجانيين في كرمهم الإسراف والتبذير الذي نهانا الله عنه بقوله تعالى: (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل

ولا تبذر تبذيرا (٢٦) إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ([الإسراء / ٢٧ - ٢٨]، بل يكونون معتدلين في سخائهم وكرمهم طبق تعاليم ربهم، قال تعالى: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ([الإسراء / ٣٠]، وقال تعالى في مدح بعض عباده الصالحين: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ([الفرقان / ٦٨].

ثانيا: - ان يكون الكرماء مجانبيين المن وإظهار الحميل على من يكرمونه لأن ذلك من جهة يؤذيهم ويسئ إليهم ومن جهة أخرى يبطل أثر إنفاقهم ويحبط عظيم أجرهم عند الله، قال تعالى: (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ([البقرة / ٢٦٣].

٣ - بخل الشخص على نفسه وعياله

ومن أقسام البخل بخل الشخص بماله على نفسه وعياله حتى تجد ذلك الشخص كأنه حرم على نفسه وعياله اللذات ورغب في مساواة من لا يملك ما يكفيه لقضاء الحاجات وليس له هم إلا جمع المال على المال، وإلى أهل هذا القسم يشير أمير المؤمنين (ع) بقوله: عجبت للبخیل يستعجل الفقر الذي منه هرب ويفوته الغنى الذي إياه طلب فيعيش في الدنيا عيش الفقراء ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء (١).

(١) نهج البلاغة.

وما أدري ما ينتفع بالمال إذا أدخره وحرّم نفسه وعياله وهو غدا يموت ويحاسب عليه،
يقول الشاعر:

وحانت وفاتي هل أزداد به عمرا سيورثه غما ويعقبه وزرا.
وهبني خزنت المال بخلا ببذله إذا خزن المال البخيل فإنه.
وقال الآخر:

وأخرت إنفاق ما تجمع وما كنت تعدو الذي تصنع.
أمن خوف فقر تعجلته؟ فصرت الفقير وأنت الغني.

فضل التوسعة على العيال

وقد جاءت الأحاديث والأخبار الكثيرة التي تحث على التوسعة على العيال عن النبي
(ص) وأهل بيته الأطهار " فمن ذلك ما رواه الصدوق في الأمالي بسنده عن مسعدة عن
الإمام موسى بن جعفر (ع) إنه قال: ان عيال الرجل أسراؤه فمن أنعم الله عليه نعمة
فليوسع على أسرائه فإن لم يفعل أوشك ان تزول النعمة (١).

(١) (البحار) للمجلسي ج ١٠٤ ص ٩٦ نقلا عن أمالي الصدوق ص ٤٤٢ وص ٥٧٧ و (البحار) ج ١٠٤
ص ٩٤ نقلا عن نوادر الحكمة.

وفي الأمالي أيضا بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله (ص): من دخل السوق فاشترى تحفة فحملها إلى عياله كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج وليبدأ بالإناث قبل الذكور فإن من فرح ابنة كأنما أعتق رقبة من ولد إسماعيل ومن أقر عين ابن فكأنما بكى من خشية الله عز وجل أدخل جنات النعيم (١).
وروى الشيخ الطوسي في أماليه بسنده عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله (ص): إذا أنفق المسلم على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة (٢).
وفي (فقه الرضا): قال العالم (ع): ضمنت لمن اقتصد أن لا يفتقر، وأعلم ان نفقتك على نفسك وعيالك صدقة والكاد على عياله من حل كالمجاهد في سبيل الله (٣).
وورد عن علي بن الحسين (ع) انه قال من جملة حديث له: وان أقربكم من الله أووسعكم خلقاً وان أرضاكم عند الله أسبغكم على عياله وان أكرمكم عند الله أتقاكم (٤).

٤ - بخل الشخص على ضيفه

(١) المصدر السابق.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي ج ١ ص ٣٩٣ ونقله عن الأمالي المجلسي في (البحار) ج ١٠٤ ص ٧٠.

(٣) (فقه الرضا) ص ٣٤ ونقله المجلسي في (البحار) ج ٩ ص ١٠٤ ص ٧٢.

(٤) (البحار) ج ١٠٤ ص ٧٣ نقلا عن (أعلام الدين).

ومن أقسام البخل بالمستحبات بخل الشخص على من استضافه من الناس أفراداً أو جماعات من أرحامه أو غير أرحامه ومثل هذا الشخص الذي يبخل على الضيف أو يكره الضيف ويبخل عليه لا خير فيه كما جاء في الحديث عن النبي (ص) إنه قال: لا خير فيمن لا يضيف (١).

ومر رسول الله (ص) برجل له إبل وبقر كثير فلم يضيفه، ومر بامرأة لها شويهاة فذبحت له فقال (ص): انظروا إليها فإنما هذه الأخلاق بيد الله عز وجل فمن شاء ان يمنحه خلقاً حسناً فعل (٢).

وقال رسول الله (ص): من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه (٣). وفي نص: فليكرم ضيفه ويؤوي جاره.

ومعنى هذا ان من لم يكرم ضيفه ويؤوي جاره فهو غير مؤمن بالله واليوم الآخر إذ أن المؤمن بالله يعلم أن الله يخلف عليه ما ينفق فلا يبخل لقوله تعالى: (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) [سبأ / ٤٠]، كما يعلم ان الضيف يأتي ورزقه معه كما جاء في الأحاديث عن النبي (ص) وأهل بيته الأطهار " ومنها ما روي عن الإمام الصادق (ع) انه قال: قال رسول

(١) راجع أحياء العلوم للغزالي ج ٢ ص ٨ ونقله عنه المولى محسن الفيض في كتابه (المحجة البيضاء) ج ٣ ص ٣٢، وفي الحاشية رواه أحمد في مسنده والطبراني في الكبير وغيرهما.
(٢) المصدر السابق في الحاشية أخرجه الخرائطي في (المكارم) نقلاً عن المغني.
(٣) (المحجة البيضاء) ج ٣ ص ٣٩ وفي الحاشية رواه مسلم في صحيحه ج ١ ص ٤٩ والكليني في (الكافي) ج ٦ ص ٢٨٥، والنص الآخر في (المستطرف) ج ١ ص ١٥٨.

الله (ص): ان الضيف إذا جاء فنزل بالقوم جاء برزقه معه من السماء فإذا أكل غفر الله لهم بنزوله عليهم (١).
وعنه (ع) قال: قال رسول الله (ص): ما من ضيف حل بقوم إلا ورزقه في حجره (٢).
وعن الإمام الكاظم (ع): انه قال: انما تنزل المعونة على القوم على قدر مؤونتهم وان الضيف لينزل بالقوم فينزل رزقه معه في حجره (٣).
وقال علي بن الحسين (ع): من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم أبونا إبراهيم الخليل (ع) بنفسه وبأهله أما سمعت قول الله عز وجل: (وامراته قائمة فضحكت) [هود / ٧٢].

من آداب المضيف خدمة ضيفه وطلاقة وجهه
نعم من آداب المضيف اللازمة أن يخدم أضيافه وأن يظهر لهم الغنى وبسط الوجه، فقد قيل: البشاشة في الوجه خير من القرى، وخير منه أن يأتي بها وهو ضاحك، وقد ضمن الشيخ شمس الدين البديوي هذا المعنى بأبيات فقال:

(١) (المحجة البيضاء) ج ٣ ص ٣٣ نقلا عن (الكافي) ج ٦ ص ٢٨٤.

قراك وارمته لديك المسالك وقل مرحبا أهلا ويوم مبارك عجولا ولا تبخل بما هو
هالك تداوله زيد وعمرو ومالك فكيف بمن يأتي به وهو ضاحك.
إذا المرء وافى منزلا منك قاصدا
فكن باسماء في وجهه متهللا وقدم له ما تستطيع من القرى فقد قيل بيت سالف متقدم
بشاشة وجه المرء خير من القرى
وقالت العرب: تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة وإطالة الحديث عند المؤكلة.
وقال بعض الكرام:
ويخصب عندي والمحل جديب ولكنما وجه الكريم خصيب. ز
أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى
وقال الآخر:
شئ كطارقة الضيوف النزل ضيفا له والضيف رب المنزل.
الله يعلم انه ما سرنى ما زلت بالترحيب حتى خلتنى.
وقال الآخر:
نحن الضيوف وأنت رب المنزل؟
يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا.

وقال الأصمعي: سألت عيينة بن وهب الدارمي عن مكارم الأخلاق فقال: أو ما سمعت قول عاصم بن وائل:

ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك.

وإنا لنقري الضيف قبل نزوله.

٥ - بخل الشخص بمال غيره في الواجبات والمستحبات

ومن أعظم أقسام البخل بالواجبات والمستحبات بخل الشخص بمال غيره، وكما ترى بعضهم ينكر فعل الخير على فاعليه ويحملهم على البخل والشح، وبعضهم يبخل بمال

غيره فيما إذا كانت ولاية صرف مال الغير بيده كصرف مال لمشاريع خيرية واجبة

كقضاء ديون مالية أوصى بها صاحبها أو كقضاء صلاة أو صيام أو حج، ومستحبة

كالإنفاق على الفقراء والضعفاء أو إقامة مآتم وزيارات للحسين (ع) أو غير ذلك ولم

يصرفه كما فوضه به مالكة في حين أن تنفيذ الوصية واجب سواء في الواجبات أو

المستحبات ومعلوم ان البخل بمال الغير هو منتهى اللؤم والخساسة لأن أبخل البخلاء

من بخل بمال غيره.

قال عز من قائل: (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله

وأعدنا للكافرين عذابا مهينا) [النساء / ٣٨].

قد حكمت هذه الآية من سورة النساء على ان الذين يبخلون بالفعل ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون النعم التي تفضل الله بها عليهم بأنهم كافرون وان الله أعد للكافرين عذابا مهينا.

ولا يخفى أن من كتم النعمة واطهر الفقر والفاقة خوفا من البذل والسخاء فقد ارتدى بخساستي الكذب والبخل واستغشى رداء الكفر لأنه ستر النعمة، وساتر نعمة المنعم كافر بها.

وقد جاء في بعض الأحاديث عن النبي (ص) انه قال: ما أنعم الله على عبد نعمة فرأى عليه أثرها إلا كتب: حبيب الله شاكرا لأنعمه، وما أنعم الله على عبده نعمة فلم ير أثرها عليه إلا كتب: بغيض الله كافرا لأنعمه (١).

الإشارة إلى مساوئ البخل وأضراره والحاصل ان البخل كيفما كان وبكل أقسامه فإنه يسبب البعد والعداوة بين البخلاء وبين سائر الناس ويسبب غضب الله عز وجل ويستوجب دخول النار. وقد ورد عن النبي (ص) انه قال: السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار والبخيل بعيد عن الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار (٢).

(١) (العقد الفريد) ج ١ ص ٢٧٨.

(٢) (المستطرف) ج ١ ص ١٣٨.

وهذا المعنى ورد أيضا عن أبي الحسن الرضا (ع) انه كان يقول: السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار، ثم يقول (ع): السخاء شجرة في الجنة، أغصانها في الدنيا من تعلق بغصن من أغصانها دخل الجنة (١).

وقال الإمام الكاظم (ع): كان أمير المؤمنين (ع) يوصي أصحابه ويقول: أوصيكم بالخشية من الله في السر والعلانية والعدل في الرضا والغضب - إلى ان قال - : والسخاء فإنه لا يدخل الجنة بخيل (٢).

وورد أيضا: كافر سخي أرجى إلى دخول الجنة من مؤمن شحيح (٣).
تحليل:

كافر سخي أرجى إلى الجنة من مؤمن شحيح
وهذا الحديث الشريف يحتاج إلى تحليل وإيضاح، وبيان ذلك: كيف ان الكافر السخي أرجى لدخول الجنة من مؤمن شحيح، والحال ان المقطوع به بلا ريب ان الجنة محرمة على الكافرين بصريح القرآن المجيد: (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين (الأعراف / ٥١)، وقال تعالى: (إنه من

(١) (عيون أخبار الرضا) للصدوق ج ٢ ص ١٢.

يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ([المائدة / ٧٣].

نعم تأويل ذلك هو أن الكافر أو المشرك إذا كان سخيا فهذه الخصلة الحسنة الحميدة يمكن ان تؤهله وتوفقه لحسن العاقبة فيموت على الإيمان تائباً من كفره فيستحق دخول الجنة وفي التاريخ شواهد تدل على ذلك منها:
قصة الثلاثة الذين حلفوا أن يقتلوا رسول الله (ص) ونهوض علي (ع) إليهم ونجاة أحدهم لسخائه

ما رواه الصدوق في الخصال بسنده عن يحيى بن زيد بن علي بن الحسين (ع) انه قال: خرج رسول الله (ص) ذات يوم وصلى الفجر ثم قال: أيكم ينهض إلى ثلاثة نفر قد آلوا وحلفوا بالللات والعزى ليقتلوني وقد كذبوا ورب الكعبة، فأحجم الناس وما تكلم أحد، فقال (ص): ما أحسب ان علي بن أبي طالب فيكم، فقام إليه عامر بن قتادة فقال: انه وعك في هذه الليلة - أي أصابه وجع الحمى - ولم يخرج يصلي معك، فتأذن لي أن اخبره؟ فقال النبي (ص): شأنك، فمضى إليه فأخبره فخرج أمير المؤمنين (ع) وكأنه أنشط من عقال وعليه ازار قد عقد طرفيه على رقبته، فقال: يا رسول الله ما هذا الخبر؟ فقال: هذا رسول ربي يخبرني عن ثلاثة نفر قد نهضوا إلي ليقتلوني وقد كذبوا ورب الكعبة،

فقال أمير المؤمنين (ع): أنا لهم سرية وحدي هوذا ألبس علي ثيابي، فقال النبي (ص): بل هذه ثيابي وهذا درعي وهذا سيفي، ثم ألبسه ودرعه وعممه وقلده واركبه فرسه وخرج أمير المؤمنين (ع) فمكث ثلاثة أيام لا يأتيه جبرئيل بخبره ولا يأتيه خبر من الأرض، فأقبلت فاطمة بالحسن والحسين " على وركيها تقول: أوشك أن يؤتم هذين الغلامين، فأسبل النبي (ص) عينيه يبكي ثم قال: معاشر الناس من يأتيني بخبر علي أبشره بالجنة، وافترق الناس في الطلب لعظيم ما رأوا بالنبي (ص) وأقبل عامر بن قتادة يبشر بعلي، ودخل أمير المؤمنين ومعه أسيران ورأس وثلاثة أبعرة وثلاثة أفراس، وهبط جبرئيل فخبر النبي (ص) بما كان فيه علي (ع) فقال له النبي (ص): تحب أن أخبرك بما كنت يا أبا الحسن؟ فقال المنافقون: هو منذ ساعة قد أخذه المخاض وهو الساعة يريد ان يحدثه، فقال النبي (ص): بل تحدث أنت يا أبا الحسن لتكون شهيدا على القوم، فقال (ع): نعم يا رسول الله لما صرت في الوادي رأيت هؤلاء ركباناً علي الأباعر فنادوني من أنت؟ فقلت: أنا علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله، فقالوا: ما نعرف لله من رسول سواء علينا وقعنا عليك أو على محمد، وشد علي هذا المقتول ودار بيني وبينه ضربات وهبت ريح حمراء وسمعت صوتك فيها يا رسول الله وأنت تقول: فقد قطعت لك جربان درعه أي طوقه فاضرب جبل عاتقه فضربته فلم أحفه، ثم هبت ريح سوداء وسمعت صوتك فيها يا رسول الله وأنت تقول: قد قلبت لك الدرع فأضرب فخذه فضربته فقطعته ووكرته وقطعت رأسه ورميت به وأخذت رأسه وقال: لي هذان الرجلان: بلغنا ان

محمدا رقيق شفيق رحيم فاحملنا إليه ولا تعجل علينا وصاحبنا كان يعد بألف فارس.
فقال النبي (ص): أما الصوت الأول الذي حاكى مسامعك فصوت جبرئيل وأما الصوت
الآخر فصوت ميكائيل، قدم إلي أحد الرجلين فقدمه علي (ع) فقال النبي (ص) له: قل:
لا إله إلا الله واشهد أني رسول الله. فقال: لنقل جبل أبي قبيس أحب إلي من أن أقول
هذه الكلمة، فقال: أخره يا أبا الحسن وأضرب عنقه فضرب علي عنقه ثم قال: قدم
الآخر فقدمه فقال: قل لا إله إلا الله واشهد أني رسول الله فقال: ألحقني بصاحبي،
قال: أخره يا أبا الحسن وأضرب عنقه فأخره وقام أمير المؤمنين ليضرب عنقه فهبط
جبرئيل فقال: يا محمد ان ربك يقرؤك السلام ويقول لك: لا تقتله فإنه حسن الخلق
سخي في قومه، فقال رسول الله (ص) ذلك لعلي.

فقال الرجل وهو تحت السيف: هذا رسول ربك يخبرك؟ قال نعم، فقال: والله ما
ملكتم درهما مع أخ لي قط إلا أنفقته ولا تكلمت بسوء مع أخ لي ولا قطبت وجهي
في الجذب - أي في القحط - وأنا اشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله حقا. فقال
(ص): هذا ممن جره حسن خلقه وسخاؤه إلى جنات النعيم (١).
نعم هكذا كانت عاقبته حسنة لسخائه وحسن أخلاقه فوفق للإسلام والإيمان.

(١) راجع (الخصال) للصدوق باب الثلاثة ص ٩٤، وكتاب (الاثني عشرية) ص ٩٧ - ٩٨.

سوء عاقبة البخيل
بعكس المؤمن الذي يدعي الإيمان وهو بخيل فبخله لا يدعه يخرج ما أوجب الله عليه
من الحقوق الواجبة كالزكاة والخمس وغيرهما فإذا بقي مصرا على بخله وعدم إخراج
ما أوجب الله عليه من الحقوق فربما لا يموت على الإيمان بل يسبب له بخله سوء
العاقبة فيموت على الكفر والعياذ بالله ويستحق دخول النار، وهذا المعنى مؤيد بالعديد
من الآيات والأحاديث.

يقول تعالى بالنسبة إلى الزكاة: (وويل للمشركين (٦) الذين لا يؤتون الزكاة وهم
بالآخرة هم كافرون) [فصلت / ٧ - ٨].

ويقول بالنسبة إلى الخمس: (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول
ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا
يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير) [الأنفال / ٤٢].
ويقول بالنسبة إلى الحج: (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر
فإن الله غني عن العالمين) [آل عمران / ٩٢].

وأما الأحاديث في ذلك كثيرة، ومر علينا ذكر بعضها أو الإشارة إليها ونسأل الله حسن العاقبة وان يوفقنا إلى السخاء ولا سيما في الواجبات والفرائض وسائر أركان الدين (١).

يقول إمامنا الحسن (ع) فيما نسب إليه:
لله يقرؤ في كتاب محكم وأعد للبخلاء نار جهنم للمعوزين فليس ذاك بمسلم.
ان السخاء على العباد فريضة وعد العباد الأسخياء جناه من كان لا يندي نداه بنائل (٢).

السخاء خلق من أخلاق الله عز وجل وأخلاق أنبيائه
والسخاء من الأخلاق الحسنة والحميدة، وهو خلق عظيم من أخلاق الله عز وجل،
وأخلاق أنبيائه وأوصيائهم ولا سيما نبينا محمد (ص) وأهل بيته

(١) يقول تعالى بالنسبة إلى الصلاة " وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين " [الروم / ٣٢]، وهكذا مودة من حاد الله ورسوله، قال تعالى " لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون " [آخر سورة المجادلة].

(٢) راجع (مناف ابن شهر آشوب) ج ٤ ص ١٨، ونقلها عنه المجلسي في (البحار) ج ٤٣ ص ٣٤٣، ونقلها عنه المازندراني في (معالي السبطين) ج ١ ص ١٤.

الأطهار، فإن عاداتهم السخاء والكرم، وسجيتهم الإحسان والنعمة، إذا ذكر الخير كانوا أهله ومعدنه ومأواه ومنتهاه.

إيثار أهل البيت " بالطعام والمال

وقد بلغ بهم الأمر في سخائهم انهم كانوا يصومون ويطوون ويؤثرون بزادهم ولذلك انزل الله فيهم سورة كاملة وهي سورة هل أتى (١)، والتي منها قوله تعالى: (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا (٨) إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ([الإنسان / ٩ - ١٠]).

ولقد أجاد الإمام الشافعي إمام الشافعية حيث يقول في نزول السورة بعلي وأهل البيت:

أعاتب في حب هذا الفتى وفي غيره هل أتى (هل أتى)؟ (٢).

إلى م إلى م وحتى متى وهل زوجت فاطم غيره.

وقال الآخر:

أجبتة (هل أتى) نص بحق علي.

وسائل هل أتى نص بحق علي

(١) ذكر نزول السورة في علي وفاطمة والحسن والحسين " جمع غفير من المفسرين والمحدثين وأهل كتب المناقب من العامة فضلا عن الخاصة وقد جمع بعض تلك المصادر بصحائف مرقمة السيد شهاب الدين في تعليقاته على إحقاق الحق ج ٣ ص ١٥٧ - ١٧٠، وفي ج ٩ ص ١١٠ - ١٢٣.
(٢) ذكر البيتين للإمام الشافعي الألوسي في تفسيره (روح المعاني) ج ٢٩ ص ١٥٧ على ما نقله عنه المرعشي في تعليقات إحقاق الحق ج ٣ ص ١٦٨.

نعم. أهل البيت " فاقوا جميع العالم بكل فضل وفضيلة وآتاهم الله من الفضل والعلم ما لم يؤت أحدا من العالمين وذلك لعظيم أعمالهم الصالحة وإخلاصهم بها لوجه الله تعالى فبالنسبة إلى السخاء تراهم سلكوا أعلى مصاديقه وهو الإيثار على النفس بالطعام والمال كما شهد لهم بذلك القرآن المجيد بالآيات الكثيرة التي منها غير ما تقدم ما ذكره المفسرون والمحدثون من الخاصة والعامة. ان عليا أمير المؤمنين (ع) لم يكن يملك ذات يوم إلا أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا وبدرهم سرا وبدرهم علانية فأنزل الله فيه: (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) [البقرة / ٢٧٥] (١).

إيثار علي (ع) نفس رسول الله (ص) على نفسه ولم يقتصر علي (ع) على الإيثار بالطعام والمال بل آثر رسول الله (ص) على نفسه حينما بات علي على فراشه ليلة الهجرة، وكانت الأعداء من قريش قد صممت على قتله ووقاه علي بنفسه في سبيل الله وطاعته. وانظر إلى جزاء الله جل وعلا له على ذلك الإيثار بالنفس حيث يروي الخاصة والعامة من المفسرين والمحدثين (٢) ومنهم الغزالي في (إحياء العلوم) وتقي الدين في (ثمرات الأوراق) وهذا نص عبارتهما، قالوا: ولما بات علي

(١) روى نزل الآية الكريمة في علي (ع) عدة كثيرة من أكابر العامة فضلا عن الخاصة. راجع تعليقات إحقاق الحق لشهاب الدين ج ٣ ص ٢٤٦ - ٢٥٢.

(٢) ذكر نزول الآية في علي عظماء المفسرين والمحدثين من أهل السنة، كما ذكر الكثير منهم مباحاة الله به. راجع تعليقات إحقاق الحق ج ٣ ص ٢٤ - ٣٨ و ج ٦ ص ٤٧٩ - ٤٨١، وراجع أمالي الشيخ الطوسي ج ٢ ص ٨٣.

كرم الله وجهه على فراش رسول الله (ص) ليفتديه بنفسه أوحى الله تعالى إلى جبرئيل وميكائيل (ع) إني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختر كلاهما الحياة وأحباها فأوحى الله عز وجل إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيت بينه وبين نبيي محمد (ص) فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه، فكان جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجله وجبرئيل يقول: بخ بخ لك من مثلك؟ والله تعالى يباهي بك الملائكة فانزل الله تعالى: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد) [البقرة / ٢٠٨] (١).

ومن المعلوم ان الإيثار بالنفس في سبيل الله تعالى وإطاعته وابتغاء مرضاته هو منتهى كمالها وبلوغ غاية السخاء الذي ليس بعده سخاء.

سخاء أهل البيت " يعم حتى أعداءهم

كما لم يقتصر علي وأهل بيته " في سخائهم على أحبائهم ومواليهم بل يعم حتى أعداءهم ومناوئهم وهذا علي كان يكرم عدوه الألد وقاتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي ويؤثره في الإعطاء على غيره مع علمه المحتم انه قاتله لا محالة، وقد اخبر مرارا عديدة بأنه سيقنتله حتى قيل:

إلى من جزاه بالإساءة والغدر.

فكم أبد معروفًا وما زال محسنا.

(١) راجع (إحياء العلوم) للغزالي ج ٣ ص ١٧٧، و (ثمرات الأوراق) لتقي الدين المطبوع بحاشية المستطرف ج ٢ ص ١٧.

وهكذا جميع أبنائه الطاهرين يحسنون إلى ألد أعداءهم ويكرمونهم كما هو معروف من سيرتهم الحميدة.

وهذا آخر ما تيسر لنا تفصيله من آية تطويق البخلاء وبه نختم البحث الخامس في شفاء القرآن للأمراض الروحية في الأخلاق الذميمة ونسأل الله أن يجنبنا كل خلق ذميم، ويمن علينا بكل خلق كريم انه هو السميع العليم المجيب الكريم.

٦ - شفاء القرآن للأمراض الجسمية الوقائية

أما كون القرآن شفاء للأمراض الجسمية فقد وضع القرآن للأبدان تشريعات خاصة وعامة تعود عليها بالشفاء وتقيها من العلل وتحفظها من الأمراض وذلك لما للصلة الوثيقة بين الروح والجسم ولأن صاحب الجسم العليل لا تتاح له الفرصة للسير في مضمار الحياة والقيام بواجبه الإنساني لأن الإنسان المريض في جسمه يكون ضعيف الإرادة واهي الأعضاء مضطرب التفكير عصبي المزاج فلا يستفيد منه المجتمع الإنساني كما يستفيد من الأصحاء الأقوياء، ولا يقوى على أداء وظائفه الدينية والدينية كما يرام.

مدح القرآن للقوة البدنية مع سلامة النفس ومحاسنها
ولذلك مدح الله في القرآن قوة البدن مع سلامة النفس وامتانة الأخلاق وحسنها في
آيات عديدة منها قوله تعالى حاكيا على لسان ابنة شعيب تخبر أباهما عن موسى بن
عمران (ع) بقوله: (قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين
[القصص / ٢٧]).

الاستشفاء باستعراض قصة موسى مع شعيب وابنته
جاءت هذه الآية الكريمة من سورة القصص في معرض قصص موسى بن عمران مع
فرعون وجنوده منذ حملت به أمه إلى ولادته وإلى بلوغه أشده وإيتائه الحكم والعلم
وخروجه من مصر بعد قتله للقبطي الفرعوني وقصده مدين وهي مدينة شعيب النبي على
أشهر الأقوال، ونستعرض هذا الفصل من قصصه بقوله تعالى: (ولما توجه تلقاء مدين
قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل [القصص / ٢٣]، أي وسط الطريق وخيره
الذي يوصلني إلى مدين، والمعنى انه لما صرف وجهه بعد خروجه من مصر اتجاه
مدين قال: أرجو من ربي أن يهديني وسط الطريق ولا أضل بالعدول عنه والخروج منه
إلى غيره.

والآية الكريمة تدل على أنه كان قاصدا لمدين ولكنه لا يعرف طريقها الموصل إليها
ولذلك ترجى أن يهديه ربه وأخيرا أوصله الله تعالى بالفعل إليها كما قال عز من قائل:
(ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان
قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير [القصص / ٢٤]،
والمراد من

قوله تذودان أي تحبسان وتمنعان أغنامهما من أن ترد الماء حتى لا تختلط بأغنام القوم، والرعاء جمع راعي وهو الذي يرعى الغنم، والمعنى أنه لما ورد موسى ماء مدين وجد على الماء جماعة من الناس يسقون أغنامهم ووجد بالقرب منهم امرأتين تحبسان أغنامهما وتمنعانها من أن ترد الماء وتشرب منه.

ومن مواضع العبرة والاستشفاء في هذا المقام ان موسى (ع) بعد انتهائه إلى ماء مدين وقد وصل إليه وهو بالطبع مجهود مكثود بسفره الشاق الطويل مشيا على قدميه مسافة ثمانية أيام وقيل خمسة وثلاثين يوما ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر وبقل الأرض، وحينما وصل إلى ذلك المكان رأى مشهدا لا تستريح إليه نفسه ذات المروءة السليمة الفطرة حيث وجد الرعاء من الرجال يوردون أغنامهم لتشرب من الماء ووجد المرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء في حين كان الأولى عند ذوي المروءة ان تسقي المرأتان أغنامهما أولا وان يفسح الرجال لهما ويعينوهما لا أنهم يقدمون أنفسهم عليهما فهو منظر منكر مخالف للمعروف ولا تستريح له نفسه السليمة، لذلك تقدم بالسؤال من المرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب: (ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير (أي أن أبانا لا يقدر أن يتصدى بنفسه أمر السقي لكبره لذا تصدينا نحن لهذا الأمر، وهنا ثارت نخوة موسى (ع) ورق لحال المرأتين ورحمهما فتقدم ليسقي لهما بالرغم من تعبته في سفره الطويل وهو بلا استعداد ولا زاد كما أنه كان مطاردا من أعداء له لا يرحمون ولكن كل هذا لا يقعه عن تلبية دواعي المعروف والنجدة والمروءة ولذلك سقى لهما أغنامهما، وقد ورد

في الحديث: من قضى لأخيه المؤمن حاجة قضى الله له اثنين وسبعين حاجة. أما كيفية سقيه لأغنامهما على ما جاء في بعض الأخبار انه سأل منهما: هل بقربكما ماء؟ قالتا: نعم بئر واحدة عليها صخرة قد غطيت بها لا يطبق رفعها إلا نفر من الرجال، وفي نص: لا يطبق رفعها إلا عشرة رجال أو أكثر، فأتى إلى البئر ورفع تلك الصخرة بيده وحده ونحاهما ثم سقى لهما ولم يستق إلا دلوا واحدا كبيرا بحيث ارتوت الأغنام به ثم أعاد الصخرة إلى مكانها ورجعت المرأتان إلى أبيهما بالأغنام مبكرتين، فقال لهما أبوهما: ما أعجلكما هذا اليوم؟ قالتا: وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا أغنامنا فقال لإحدهما فاذهبي إليه وأدعيه إلي فجاءت راجعة إليه. هذا وقد تولى موسى (ع) إلى ظل شجرة هناك يستظل بظلها كما قال تعالى: (فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) [القصص / ٢٥]، أي انصرف إلى الظل ليستريح فيه والحر شديد وقد أضر به الجوع لذلك قال: (رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) ويقول أكثر المفسرين انه سأل ربه طعاما يسد به جوعه ويستعين به على الأعمال الصالحة ويقوى عليها، وقد ورد هذا المعنى عن الإمامين الباقر والصادق (ع) وفي نهج البلاغة أن عليا قال: والله ما سأله إلا خبزاً يأكله، وعن النبي (ص) انه قال: انه يومئذ فقير إلى كف من تمر. نعم. انه يأوى من جهة إلى ظل مادي وهو الشجرة ليستظل بها من حرارة الشمس وحرارة الوقت ومن جهة أخرى يأوى إلى ظل الله الكريم

المنان ويسأله: رب إني في الهاجرة رب إني فقير رب إني وحيد رب إني ضعيف رب إني إلى فضلك ومنك محتاج.

ويظهر منه انه (ع) كان ذا مراقبة شديدة في أعماله مع الله فلا يأتي بعمل ولا يتطلبه - وإن كان مما يقتضيه طبعه البشري - إلا ابتغاء مرضاة ربه وجهادا فيه، وهذا ظاهر بالتدبر في مجموع قصته فهو القائل لما وكز القبطي: (قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين) [القصص / ١٨]، ثم القائل لما خرج من مصر خائفا يترقب: (رب نجني من القوم الظالمين) [آية / ٢٢]، ثم القائل لما أخذ في السلوك: (عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) [آية / ٢٣]، ثم القائل لما سقى وتولى إلى الظل: (رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) ثم القائل لما أجر نفسه شعبيا وعقد له على ابنته: (والله على ما نقول وكيل) [آية / ٢٩].

وهكذا تراه يذكر ربه في كافة تصرفاته وحاجياته كلها مادية كانت أو روحية كلية كانت أو جزئية لا يسأل إلا منه ولا يتوكل ولا يعتمد إلا عليه، وقد قال عز من قائل: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدرا) [الطلاق / ٤].

وبينما هو في موقف المناجاة مع ربه جل وعلا وإذا به يعجل له الاستجابة ويأتيه بمشهد الفرج معقبا في التعبير بالفاء الدالة على سرعة الإجابة فيستجيب لذلك القلب الضارع القريب منه بقوله: (فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) [الآية / ٢٦]، ويعود الضمير في (فجاءته) إلى المرأة التي جاءت إليه

وضمير (إحداهما) يعود إلى المرأتين، ووصفت الآية مجيء المرأة أنها كانت تمشي على استحياء.

تعفف بنت شعيب وتحجبها

أي كان الظاهر من مشيتها التعفف وعدم التبذل والتبرج، ويقال: انها كانت وضعت ثوبها على وجهها، وقولها: (ليجزيك أجر ما سقيت لنا (أي ليعطيك جزاء سقيك لنا، وهنا استحباب لها موسى وجاء معها متوجها إلى أبيها وقد تقدمته وهو يتبعها فهبت ريح فألزقت ثوبها بعجزها، فقال لها موسى: امشي خلفي ودليني على الطريق فإن أخطأت فأرمني قدامي بحصاة فإننا قوم لا نحب ان ننظر في أعجاز النساء، فنعتت له الطريق إلى منزل أبيها تمشي خلفه وهو أمامها حتى دخلا عليه. قال تعالى: (فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) [الآية / ٢٦]، وهذا النص القرآني يدل على أن شعيبا استفسره عن حاله فقص عليه قصته من قتل الفرعوني القبطي وخروجه من مصر خائفا فطيب شعيب نفسه بأنه قد نجا منهم إذ لا سلطان لهم على مدين، كما قد ورد هذا المعنى عن الإمام الباقر (ع) (١).

وقد كانت حاجة موسى إلى الأمان على نفسه أشد من حاجته إلى الزاد لذلك أشعره شعيب بالطمأنينة والأمان بقوله: (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) (وبذلك تمت استجابة الله لموسى (ع) في أدعيته الثلاثة فقد كان سأل الله سبحانه عند خروجه من مصر أن ينجيه من القوم الظالمين

(١) (البحار) ج ١٣ ص ٥٩ نقلا عن (عرائس المجالس) للثعلبي.

فأخبره شعيب (ع) بالنجاة وترجى أن يهديه سواء السبيل وهو في معنى الدعاء فورد
مدين سالما وسأله الرزق فدعاه شعيب ليجزيه أجر ما سقى وزاد تعالى في إكرامه
حيث كفاه رزق عشر سنين ووهب له زوجة عفيفة يسكن إليها.
وهكذا كل من كان مع الله كان الله معه ومن أصلح أمرا أصلح الله له أموره والعاقبة
الحسنة تكون أخيرا لأولياء الله ولكنها لا تكون غالبا إلا بعد الابتلاء والامتحان والصبر
عليهما والجهد للنفس.

ويروى انه لما دخل موسى على شعيب وإذا هو بالعشاء قد قدم بين يديه ولكنه امتنع
عن الأكل فقال له شعيب: كل، فقال موسى: أعوذ بالله، قال أولست جائعا؟ قال: بلى
ولكني أخاف أن يكون هذا عوضا لما سقيت لإبنتيك وأنا من أهل بيت لا نبتغي شيئا
من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً، قال: لا والله ولكنها عادتي وعادة آبائي أن نقري
الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى فأكل (١).

وهنا يأتي محل الشاهد من القصة وهو قوله تعالى: (قالت إحداهما يا أبت استأجره إن
خير من استأجرت القوي الأمين) [الآية / ٢٧]، وقد وضعت هذه الآية السبب موضع
المسبب وتقدير الكلام: استأجره لأنه قوي أمين وان خير من استأجرت هو القوي
الأمين ومعناه ان صاحب القوة البدنية والأمانة النفسية هو خير من غيره.

(١) (الدر المنثور) نقلا عن ابن عساكر ج ٥ ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

والقائلة لهذا القول هي التي جاءت وأخبرته بدعوة أبيها له كما وردت به روايات أئمة أهل البيت " وذهب إليه جمع من المفسرين وهي التي تزوجها موسى أخيراً. ويقول المفسرون: أن شعيباً سأل ابنته - حين أشارت عليه باستئجاره - عن معرفتها بقوته وأمانته قائلاً لها: من أين علمت قوته وأمانته؟ فقالت: أما قوته فقد عرفتها لأنه جاء إلى البئر وعليه صخرة كبيرة ثقيلة لا يرفعها إلا نفر من الرجال قيل: عشرة وقيل: ثلاثون وقيل: أربعون فرفعها وحده، وفي نص: انها قالت: أما قوته فلأنه أخرج الدلو من البئر وحده وما كان يستطيع إخراجه إلا نفر من الرجال وأما أمانته فلأنه لما جئت إليه وقلت له: ان أبي يدعوك وجاء معي كنت أسير أمامه لأدلة على الطريق فجعلني خلفه وقال لي: أنا أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي عجزك وإنا قوم نكره ان ننظر إلى أعجاز النساء فعلمت من ذلك وغير ذلك أمانته.

الاستشفاء بآيات غض الأبصار ووجوب الحجاب للنساء

نعم. هذا هو أدب الله لعباده في الأمم الماضية وفي هذه الأمة من وجوب غض الأبصار عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه من محاسن الناس بعضهم من بعض من الرجال والنساء قال تعالى: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون (٣٠) وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن

ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن..... ([النور / ٣١ - ٣٢]).

أصل الغض لغة النقصان، يقال: غض من صوته ومن بصره أي أنقص، والمراد من الغض هنا أطباق الجفن على الجفن، والأبصار جمع بصر وهو العضو الناظر المسمى بالعين والخطاب بالآيتين موجه إلى النبي (ص) يأمره الله أن يقول للمؤمنين من الرجال والمؤمنات من النساء ويأمرهم جميعاً أن يغمضوا من أبصارهم أي لا ينظروا إلى ما لا يحل النظر إليه من الأجنبي والأجنبية فالآية مطلقة.

ولفظة (من) في قوله: (من أبصارهم) (و) (من أبصارهن) (فيها أقوال: قيل انها مزيدة وتقديره: يغمضوا أبصارهم، وقيل: انها للتبعيض لأن غض البصر انما يجب في بعض المواضع، وقيل: للجنس أي يغمضوا جنس الأبصار عما يحرم النظر إليه، وقيل: انها ليست مزيدة ولا للتبعيض ولا للجنس بل هي لابتداء الغاية والمعنى ان يأتوا بالغض أخذاً من أبصارهم، واختار هذا القول العلامة الطباطبائي في تفسيره (الميزان) (١). وقوله تعالى: (ويحفظوا فروجهم) (وفي الآية الثانية: (ويحفظن فروجهن) (أي مرهم يا محمد بأن يحفظوا فروجهم، والفرج لغة الشق بين الشئيين وكني به عن السوءة أي العورة قبلاً ودبراً، وعلى ذلك جرى استعمال القرآن الملىء أدباً وخلقا. والمقابلة بين قوله تعالى: (يغمضوا من أبصارهم) (و) (يحفظوا فروجهم) (تدل على ان المراد بحفظ الفروج سترها عن الأنظار لا حفظها عن الزنا واللواط وغيرهما.

(١) راجع (الميزان) ج ١٥ ص ١٢٠.

أحاديث الغض من الأبصار وحفظ الفروج
ويؤيد ذلك الأحاديث الواردة عن النبي (ص) وأهل بيته وأصحابه وهي كثيرة ومنها ما
رواه الكليني بإسناده عن أبي عبد الله الصادق (ع) في حديث يذكر فيه ما فرض الله
على الجوارح قال: وفرض الله على البصر أن لا ينظر إلى ما حرم الله وأن يعرض عما
نهى الله عنه مما لا يحل له وهو عمله وهو الإيمان فقال تبارك وتعالى: (قل للمؤمنين
يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) فنهاهم أن ينظروا إلى عوراتهم وان ينظر المرء
إلى فرج أخيه ويحفظ فرجه ان ينظر إليه وقال: (وقل للمؤمنات
يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) (من ان تنظر إحداهن إلى فرج أختها وتحفظ
فرجها من ان ينظر إليه، ثم قال: وكل شئ في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزنا إلا
هذه الآية فهو من النظر (١).

وروى القمي في تفسيره عن طريق آخر عن الإمام الصادق (ع) أيضا انه قال: كل آية
في القرآن في ذكر الفرج فهي من الزنا إلا هذه الآية فإنها من النظر فلا يحل لرجل
مؤمن أن ينظر إلى فرج أخيه ولا يحل للمرأة ان تنظر إلى فرج أختها (٢).
وروى السيوطي نقلا عن عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي
العالية انه قال: كل آية يذكر فيها الفرج فهو من

(١) (الميزان) ج ١٥ ص ١٢٤، نقلا عن الكافي.

(٢) تفسير القمي ج ٢ ص ١٠١.

الزنا إلا هذه الآية في سورة النور: (ويحفظوا فروجهم) و (يحفظن فروجهن) فهو أن يراها أحد (١).

وروى السيوطي في (الدر المنثور) نقلا عن ابن مردويه عن علي (ع) والكليني في (الكافي) بإسناده عن أبي جعفر الباقر (ع) في سبب نزول الآية الكريمة أن علي بن أبي طالب قال: مر رجل على عهد رسول الله (ص) في طريق من طرقات المدينة فنظر إلى امرأة ونظرت إليه فوسوس لهما الشيطان انه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا بإعجاب به فبينما الرجل يمشي إلى جنب حائط وهو ينظر إليها إذ استقبله الحائط فشق أنفه وفي نص الكافي: فشق وجهه، فلما مضت المرأة فإذا الدماء تسيل على ثوبه و صدره، فقال: والله لا اغسل الدم حتى آتي رسول الله فأعلمه أمري، فأتاه فقص عليه قصته، فقال النبي (ص): هذا عقوبة ذنبك وانزل الله: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم... الآية (٢)).

وروى الصدوق في (الخصال) ان النبي (ص) قال لعلي أمير المؤمنين (ع): يا علي أول نظرك لك والثانية عليك لا لك (٣).

وروى السيوطي نقلا عن ابن أبي شيببة وأبي داود والترمذي والبيهقي في سننه عن بريدة قال: قال رسول الله (ص) لعلي: لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة (٤).

(١) (الدر المنثور) للسيوطي ج ٥ ص ٤٠.

(٢) المصدر السابق، و (الميزان) ج ١٥ ص ١٢٥ نقلا عن الكافي.

(٣) (الميزان) ج ١٥ ص ١٢٦ نقلا عن (الخصال) للصدوق.

(٤) (الدر المنثور) ج ٥ ص ٤٠.

وعن علي مثله.
فهذه الأحاديث وغيرها تبين لنا حكم الله عز وجل في قوله: (قل للمؤمنين يغضوا من
أبصارهم ويحفظوا فروجهم)، ثم أشار تعالى إلى وجه المصلحة في هذا الحكم الإلهي
وحثهم على المراقبة فيه بقوله: (ذلك أزكى لهم) (أي أظهر لمشاعرهم وأضمن لعدم
تلوثها بالإنفعالات الشهوية في غير موضعها المشروع وقوله تعالى: (إن الله خبير
بما يصنعون) (أي أن الله هو الذي أخذهم بهذه الوقاية وهو الخبير بحركات جوارحهم
والعليم بما يصنعون من خير أو شر وطاعة أو معصية.
وبعد الأمر بغض الأبصار وحفظ الفروج لكل من المؤمنين والمؤمنات وبيان وجه
المصلحة في ذلك، خص المؤمنات المسلمات بأحكام من أوامر ونواهي منها قوله
تعالى: (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) (والإبداء الإظهار، والمراد من زينتهن مواضع
الزينة من أبدانهن لا نفس ما يتزين به كالقرط والسوار وغيرهما من أنواع الزينة التي لا
يحرّم إبدائها فالمراد بإبداء الزينة إبداء مواضعها من البدن، وقد استثنى الله سبحانه ما
ظهر منها، وقد وردت الروايات ان المراد بما ظهر منها هو الوجه والكفان والقدمان
فللمرأة ان تظهر هذه الأعضاء بدون زينة، فقد روى الكليني في (الكافي) بإسناده عن
أبي عبد الله الصادق (ع): الوجه والكفان والقدمان (١).

(١) و (٢) (الميزان) ج ١٥ ص ١٢٥ نقلا عن الكافي.

وفي حديث آخر ان الإمام موسى بن جعفر سئل عن الرجل ما يصلح ان ينظر إليه من المرأة التي لا تحل له؟ قال: الوجه والكف وموضع السوار (٢).
وروى السيوطي نقلا عن ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: (إلا ما ظهر منها) قال: وجهها وكفاها والنخاتم (١).
وفي نص آخر عن ابن عباس أيضا قال: رقعة الوجه وباطن الكف، إلى غير ذلك من الأحاديث من طرق الفريقين.

ثم قال تعالى: (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) والخمر بضم الخاء جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها وينسدل على صدرها والجيوب جمع جيب وهو معروف ويراد به الصدور والمعنى: ويلقين بأطراف مقانعهن على صدورهن ليسترنها بها وهي عند النساء باسم (الشيلة).

نقاش في الحجاب مع جميل صدقي الزهاوي
وهذا نص من نصوص القرآن المجيد في وجوب الحجاب على المرأة وبه وبغيره من النصوص العديدة تعرف افتراء وكذب بعض أهل الدعارة والمجون من الفساق والمرتدين عن الدين باسم الدين أمثال جميل صدقي الزهاوي الذي يقول بحجة الدفاع عن المرأة:

هو داء في الاجتماع وخيم فلماذا يقر هذا القديم زاهر والحجاب ليل بهيم نبي وما ارتضاه حكيم واق والعقل والضمير ذميم.
أسفري فالحجاب يا ابنة فھر كل شئ إلى التجدد ماض اسفري فالسفور للناس صبح لم يقل في الحجاب في شكله هذا هو في الشرع والطبيعة وألذ.

(١) (الدر المثور) ج ٥ ص ٤١.

سبحانك اللهم إن هذا إلا بهتان عظيم على الشرع والطبيعة والأذواق والعقل والضمير
وتجاسر على أنبياء الله ورسله وأوليائه وتكذيب لهم وافتراء على خالقهم وكتابه الكريم
(١) الذي يقول: (ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها) (ويقول: (وليضربن بخمرهن على
جيوبهن) (ويقول: (ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن) (ويقول: (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم
ما يخفين من زينتهن) (وهذا النص كما ترى ينهاهن أن يضربن بأرجلهن على الأرض أو
الرجل على الرجل حتى لا يظهر صوت الخلخال المخفي وحتى لا يعلم انها متزينة
بزينة، ويستفاد من هذا النص ان كل زينة تتزين بها المرأة يجب ان تخفيها عن غير
المحارم وان لا تعلم بها أحدا من الآخرين حتى بظهور صوتها.
ومن الآيات التي تأمر بالحجاب قوله تعالى في سورة الأحزاب: (قل لأزواجك وبناتك
ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله
غفورا رحيمًا) (الأحزاب / ٦٠)،

(١) راجع آياته في (تاريخ الأدب العربي الحديث) ط ٧، تأليف لجنة من وزارة التربية للصف الثالث
المتوسط ص ٢٧ =
= ومما يدل على انه من المرتدين عن الدين باسم الدين قوله في ص ٢٦ من الكتاب نفسه يخاطب السلطان
عبد الحميد بأبيات منها:
أيأمر ظل الله في أرضه بما نهى الله عنه والرسول المبجل
إذا ما يصح لنا ان نقول له: أيأمر جميل صدقي بالسفور الذي نهى الله عنه ورسله وأوليائه وكتبه ولكننا منينا
بقوم لا يفقهون وإنما لله وإنما إليه راجعون.

والجلابيب جمع جلباب وهو كساء وتشتمل به المرأة فيغطي جميع بدنها مع الخمار الذي تغطي به رأسها ووجهها، فقوله: (يدنين عليهن من جلابيبهن) (أن يستترن بها فلا تظهر جيوبهن وصدورهن للناظرين، وقوله: (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) (أي ستر جميع البدن أقرب أن يعرفن أنهن أهل الستر والعفة والصلاح فلا يؤذين من أهل الفسق بالتعرض لهن.

ويروي السيوطي نقلاً عن عبد الرزاق وعبد حميد وأبي داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية: (يدنين عليهن من جلابيبهن) (خرجن نساء الأنصار كأن علي رؤوسهن الغربان من أكيسة سود يلبسها (١)، وهي العبادة السوداء المستعملة عند الكثير من النساء الآن.

وفي حديث آخر ينقله السيوطي عن ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: أمر الله النساء المؤمنات إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويدين عينا واحدة (٢).
ومن آيات الحجاب قوله تعالى: (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) (الأحزاب / ٥٥).

(١) و (٢) (الدر المنثور) ج ٥ ص ٢٢١.

فكيف - بعد هذه الآيات كلها وغيرها النازلة في وجوب الحجاب - يقول الزهاوي:
هو داء في الاجتماع وخيم.
اسفري فالحجاب يا ابنة فهر.
أيأمر الله ورسوله بالداء الوخيم؟ أم ان الزهاوي يريد أن يجعل الدواء داء والداء دواء
تبعاً لنفسه الأمانة بالسوء؟ ولشيطانه الغوي الرجيم لأنه من حزبه وقد استحوذ عليه
فأضله، قال تعالى: (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا
إن حزب الشيطان هم الخاسرون) [المجادلة / ٢٠].
عود لمدح القرآن للقوة البدنية مع مزايا النفس
ومن الآيات القرآنية التي مدح الله بها قوة البدن مع سلامة النفس وامتانة الأخلاق
وحسنها ما جاء في قصة طالوت مع قومه من بني إسرائيل باختيار الله له بجعله ملكاً
عليهم حيث قال تعالى: (وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى
يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله
اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع
عليم) [البقرة / ٢٤٨].

الاستشفاء بقصة طالوت مع بني إسرائيل وآياتها
وهذه القصة نذكرها على ما رواها القمي في تفسيره بسنده (١) عن أبي جعفر الباقر
(ع) في تفسير قوله تعالى: (ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا
لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا
تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب
عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين ([البقرة / ٢٤٧]).
قال الإمام حول هذه الآية وما بعدها: ان بني إسرائيل بعد موت موسى عملوا بالمعاصي
وغيروا دين الله وعتوا عن أمر ربهم وكان فيهم نبي يأمرهم وينهاهم فلم يطيعوه -
ويقال ان نبيهم اسمه ارميا، ويقال انه يوشع بن نون وصي موسى - وحيث انهم
خالفوه فقد سلط الله عليهم جالوت وهو من القبط، وعندما تسلط عليهم وملكهم
أذلهم وقتل رجالهم وأخرجهم من ديارهم وأموالهم واستعبد نساءهم ففزعوا إلى نبيهم
وقالوا له: سل الله أن يبعث لنا ملكا نقاتل معه في سبيل الله، وكانت النبوة في بني
إسرائيل في بيت من بيوتهم والملك والسلطان في بيت آخر منهم حيث لم يجمع الله
لهم الملك والنبوة في بيت واحد ومن أجل ذلك قالوا لنبيهم: (ابعث لنا ملكا نقاتل في
سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في
سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) (وأخيرا قال لهم نبيهم: (إن الله قد بعث لكم
طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من
المال)

(١) راجع القصة في تفسير القمي ج ١ ص ٨١.

وانما قالوا ذلك حيث كانت النبوة في ولد لاوي بن يعقوب والملك في ولد يوسف وكان طالوت من ولد بنيامين أخو يوسف لأمه وأبيه فهو - بزعمهم - لم يكن من بيت النبوة ولا من بيت الملوكية كما انه كان فقيرا، فأجابهم نبيهم قائلا: (إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم) يقول الإمام: وكان طالوت أعظمهم جسما وأقواهم (أي بدنا) وأشجعهم (أي قلبا) كما انه كان أعلمهم إلا انه كان فقيرا فعابوه بالفقر وقالوا: (لم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم (٢٤٧) وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) [آية / ٢٤٨ - ٢٤٩].

وكان التابوت الذي أنزله الله على موسى - بعد ولادته - ووضعت فيه أمه وألقته في اليم أي البحر، هذا التابوت كان معظما عند بني إسرائيل يتبركون به. ولما حضرت موسى الوفاة وضع فيه الألواح وما كان عنده من آيات النبوة وأودعه عند وصيه يوشع بن نون ولم يزل التابوت بينهم حتى استخفوا فيه أخيرا وكان الصبيان يلعبون به في الطرقات، فلم يزل بنو إسرائيل في عز وشرف ما دام التابوت عندهم معظما فلما عملوا بالمعاصي واستخفوا به رفعه الله عنهم، فلما سألوا نبيهم ان يبعث لهم ملكا بعث الله لهم طالوت ملكا يقاتل معهم رد الله عليهم التابوت مع طالوت،

وقوله تعالى: (فيه سكينه من ربكم) فإن التابوت كان يوضع بين يدي العدو وبين المسلمين فيخرج منه ريح طيبة له وجه كوجه الإنسان.

ويقول العلامة الطباطبائي: ان السكينة روح إلهي يوجب السكينة في القلب والاستقرار في النفس والربط في الجأش (١)، على اختيار الله له بجعله ملكا على بني إسرائيل، إذ لو لم تكن ملوكيته باختيار من الله لما كانت له آية أصلا.

ويقول الإمام الباقر (ع) في حديثه: فأوحى الله إلى نبيهم أن جالوت - وهو الملك المتجبر - يقتله من يستوي عليه درع موسى (ع) وهو رجل من ولد لاوي بن يعقوب اسمه داود بن آسي، وكان آسي راعيا وكان له عشرة بنين أصغرهم داود فلما بعث طالوت إلى بني إسرائيل وجمعهم لحرب جالوت بعث إلى آسي أن احضر ولدك فلما حضروا دعا أولاده واحدا واحدا فألبسهم درع موسى (ع) فمنهم من طالت عليه ومنهم من قصرت عنه فقال لآسي: هل خلفت أحدا من ولدك؟ قال: نعم أصغرهم تركته في الغنم يرعاها، فبعث إليه أحد أبنائه فجاء به فلما دعي أقبل داود ومعه مقلاع - وهو مقذاف يكون للرعاة يرمون به الأحجار - قال الإمام (ع): فنادته ثلاث صخرات في طريقه فقالت: يا داود خذنا معك فأخذها في مخلاته، وكان داود شديد البطش قويا في بدنه شجاعا، فلما جاء إلى طالوت ألبسه درع موسى فاستوت عليه، فعندها توجه طالوت بجنوده إلى قتال جالوت وبنوده، قال لهم وهم في طريقهم إلى القتال: ان الله مبتليكم، أي مختبركم، في هذه المفازة، وهي الفلاة بنهر فمن شرب منه فليس من حزب الله ومن

(١) (الميزان) ج ٢ ص ٣٠٥، * أقول تعظيم هذا التابوت - في الحقيقة - هو تعظيم لموسى (ع) وهكذا تعظيم أضرحة النبي (ص) وأهل بيته الأطهار ومشاهدهم المشرفة إنما هو تعظيم لهم " فأعتبر.

لم يشرب منه فإنه من حزب الله إلا من اغترف منه بيده فخالفه الكثير منهم وشربوا منه وقليل منهم امتثلوا أمره فلم يشربوا منه.

يقول الإمام (ع): والذين شربوا منه كانوا ستين ألفاً، والقليل الذين لم يشربوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. قال تعالى: (فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين (٢٤٩) ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين (٢٥٠) فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ([آية / ٢٥٠ - ٢٥٢]).

ويقول الإمام (ع) في كيفية قتل داود لجالوت: ان داود لما وقف قبال جالوت، وكان جالوت راكباً على الفيل وعلى رأسه التاج وفي وجهه ياقوت يلمع نوره وجنوده بين يديه فأخذ داود من تلك الأحجار الثلاثة حجراً فرمى به في ميمنة جالوت فمر في الهواء ووقع عليهم فانهزموا، وأخذ الحجر الثاني فرمى به في يسرته فوقع عليهم فانهزموا، فأخذ الحجر الثالث فرمى به جالوت فصك الياقوت جبهته ووصل إلى دماغه ووقع إلى الأرض ميتاً.

وأخيرا انتقل الملك بعد طالوت إلى داود وانزل الله عليه الزبور وعلمه صنعة الحديد ولينه له وصنع منه الدروع وأمر الجبال والطير يسبحن معه ولم يعط مثل صوته، فأقام داود في بني إسرائيل وقد أعطي قوة في عبادته وبدنه.

موارد الاستشفاء والعبر بالقصة وآياتها

أولا: - الهدف من القصص القرآنية الهداية إلى الحق

ان من المعلوم الذي لا ريب فيه ان القرآن المجيد بمجموع معارفه كتاب هداية عام للأجيال كلها منذ انزل إلى يوم القيامة، ولم يكن كتاب تاريخ ولا كتاب قصص وانما هو كلام إلهي: (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور) [المائدة / ١٧].

ومن هنا نرى انه عند استعراضه بعض القصص لا يذكرها بتمام أطرافها وجهات وقوعها ولا يعين غالبا زمانها ولا مكانها وقد يغفل ذكر أربابها أيضا وانما يأخذ من القصة ما فيها من العبر والمواعظ وبيان السنن الاجتماعية في العصور الخالية والأمم الغابرة لتعتبر بها الأجيال من هذه الأمة وغيرها.

وهذا ما تدل عليه عدة آيات كقوله تعالى: (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) [يوسف / ١١٢]، وكقوله تعالى: (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم) [النساء / ٢٧]، وكقوله تعالى: (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة

المكذبين ([آل عمران / ١٣٨] إلى غير ذلك من آيات كثيرة بهذا المعنى، ولهذا الهدف ذكر قصة الملائ من قوم موسى مع نبيهم وملكهم طالوت للاعتبار والاستشفاء بما أودع فيها من العبر العديدة، ولكن ما أكثر العبر وما أقل المعبر.

ثانيا: - اختيار حجج الله بيد الله عز وجل

ان النبوة والملوكية الحققة وسائر ولاة الأمور المحققين من حجج الله على خلقه لا يكون أمر اختيارهم إلا بيد الله عز وجل وبتشريع منه ذلك لأنه تبارك وتعالى أعلم بمن يصلح لهذا الأمر وبمن يستحق هذه المناصب العالية، قال عز من قائل: (الله أعلم حيث يجعل رسالته) [الأنعام / ١٢٥]، وقال: (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون) (٦٨) وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) [القصص / ٦٩ - ٧٠]، وقال تعالى: (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) (٣٢) وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين) [الدخان / ٣٣ - ٣٤]، وقال تعالى في طالوت: (إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم .)

فالله قد اختار بعد كليمة موسى بن عمران (ع) وصياله وهو - على الظاهر - يوشع بن نون ولكن أمة موسى بعد موته - كما سمعت - غيروا دين الله وعتوا عن أمر ربهم وعصوا نبيهم وخالفوه فاقتضت

حكمته ان يسلط عليهم تسليطا كونيا لا تشريعيًا (١) ملكا جبارا يذلهم ويقتل رجالهم ويخرجهم من أبنائهم وديارهم ويستعبد نساءهم مما اضطرهم أن يرجعوا إلى نبيهم الذي قد خالفوه من قبل وسألوه أن يسأل لهم الله في أن يبعث لهم ملكا قويا يقاتلون معه في سبيل الله فاستجاب لهم نبيهم وسأل ربه ذلك فاختر لهم طالوت الذي زاده الله

بسطة في العلم والجسم.

وكل من يختاره الله لا بد أن يزوده بقوة في العلم والجسم ليستطيع بهما إدارة شؤون أهل زمانه ويوصلهم إلى الكمال والأمان اللائق بهم.

وهكذا شاء الله تبارك وتعالى أن يختار لهذه الأمة الإسلامية سيد رسله وخاتم أنبيائه محمد (ص) فأرسله رحمة للعالمين وأكمل له ولأمته الدين وأتم لهم النعمة كما قال تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) [المائدة / ٤]، وجعل شريعته جامعة لكل ما تفرق في الشرائع السابقة من النظم - في الصالح العام - وفضلها عليها.

قال تعالى: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا

(١) الأمور التي تقع في الكون انما تكون بمشيئة الله التكوينية " فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن " وهي ما يقع بالفعل في الكون من خير أو شر وإيمان أو كفر وطاعة أو معصية والله يحب ويرتضي الخير والإيمان والطاعة ولا يرتضي ولا يحب الشر والكفر والمعصية ولكن لا يكون منهما شيء إلا بمشيئته وإرادته ومنها تسلط الظالمين ومنكراتهم.

أما الأمور التشريعية الدينية فهي النظم التي شرعها الله لعباده وعينها لهم بواسطة رسله وسائر حججه وأمرهم باتباعها من طريق الاختيار لا الجبر ولا التسخير ولكن المخالفين لها يستحقون العقاب عليها دنيا وآخرة طبق حكمته وإرادته " فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا " [الكهف / ٣٠].

فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب
([الشورى / ١٤]، وما توفاه الله ولا قبضه إليه إلا بعد أن اختار له أوصياء يقومون
مقامه من بعده واحدا بعد واحد وهم علي والحسن والحسين والأئمة التسعة من ولد
الحسين " وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين من كل فضل وفضيلة روحا وجسما
ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ([النساء / ٧١]..

ثالثا: - جعل الله آية ومعجزة لمن يختاره من حججه

ان الله يجعل لمن يختاره من حججه من رسل وأنبياء وأوصياء آية ومعجزة أو آيات
ومعجزات تدل على صدقه في اختيار الله الحكيم له كما هو معلوم من نصوص القرآن
المجيد الكثيرة لتتم بذلك حجته على خلقه ولا يبقى عذر لأحد ممن خالفه وتمرد على
أوامره وأوامر حججه وخلفائه في أرضه: (قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم
أجمعين ([الأنعام / ١٥٠].

وهذا ما ذكره الله في طالوت بعد أن اصطفاه وزاده في العلم والجسم بسطة فجعل له
آية تدل على صدقه وصدق نبيه الذي قال لقومه: (وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن
يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله
الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين .)

ومن هنا نرى أن الله تبارك وتعالى قد جعل لكل واحد من أوصياء نبينا محمد (ص)
علي والحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين " آيات

ومعجزات تدل على أحقيتهم في دعوى الإمامة والوصاية بعد رسول الله (ص) على ما هو متواتر من طرقنا ومروى بوضوح وجلاء من طرق غيرنا وفي ذلك تمام حجته على عباده من هذه الأمة.

رابعاً: - طبيعة الناس المخالفة لله ولحججه إلا من عصم
ان المأ من قوم موسى الذين سألوا نبيهم في ان يسأل الله ان يبعث لهم ملكا يقاتلون معه في سبيل الله، وأخبرهم نبيهم باختيار الله لهم طالوت ملكا، مع ذلك اعترضوا عليه غاضبين قائلين: (أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) فأجابهم نبيهم بذكر ما أفاضه الله عليه من اختياره وزيادة علمه وقوته وما جعل الله له من آية تدل على أحقيته بالملوكية وانه تعالى هو المالك وهو الذي يؤتي ملكه من يشاء.

ثم لما امتحنهم ملكهم المختار لهم من الله وابتلاهم بعدم شربهم من النهر إن كانوا من حزب الله وإذا بالكثير منهم قد خالفوه وشربوا منه إلا قليلا منهم - على ما صرح به القرآن المجيد - ثم لما التقوا بعدوهم جالوت نكل الذين شربوا من النهر - وهم الأكثر عددا - عن قتاله قائلين: (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده)، وهذا هو شأن الأكثرية من الناس في الأمم كلها كما هو الظاهر من نصوص القرآن الكثيرة في ضلال الكثير من الناس وذلك لأن الإنسان في طبيعته كما عبر عنه القرآن بقوله: (إن الإنسان لظلوم كفار) [إبراهيم / ٣٥].

نعم. ان الإنسان لظلوم كفار إلا من عصم الله ورحم، قال تعالى: (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم) [ص / ٢٥].
وقال تعالى: (وقليل من عبادي الشكور) [سبأ / ١٤].
ويقول الشاعر أبو الطيب المتنبي:
ذا عفة فلعله لا يظلم.

الظلم من شيم النفوس فإن تجد.
وهنا يلزمنا - ان كنا ننشد الحق - ان لا نستغرب أو ننكر ما وقع في هذه الأمة الإسلامية بعد نبينا من تفرقهم واختلافهم في الحق وأهله قديما وحديثا، بل ارتداد الكثير منهم بانقلابهم على الأعقاب مباشرة بعد وفاة النبي (ص)، كما قال عز من قائل: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين) [آل عمران / ١٤٥].

هذا وقد ثبت بالتواتر القطعي في روايات الخاصة والعامة في الصحاح والسنن والمسانيد عن الصادق الأمين (ص) وأهل بيته الأطهار وأصحابه الرواة عنه في ان كل ما وقع في الأمم السالفة يقع مثله في هذه الأمة حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، وفي نص البخاري وغيره: لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع... الخ (١).

(١) راجع (التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح) ج ٢ ص ٤٥ للشرحي الزبيدي وقد جرد أحاديث البخاري عن التكرار من جهة وعن الأسانيد من جهة أخرى ونقله عن صحيح البخاري العلامة الطباطبائي في تفسيره (الميزان) ج ١٢ ص ١١٣، ونقله المجلسي في (البحار) ج ٥٣ ص ١٤٠ عن الحميدي في (الجمع بين الصحيحين) وأخرجه صاحب (مشكاة المصابيح) ص ٤٥٨، وقال: متفق عليه.

وهذا المعنى المتواتر في الروايات والأحاديث يؤيده القرآن المجيد في عدة آيات منها قوله تعالى: (لتركين طبقا عن طبق) [الانشقاق / ٢٠]، فقد روى القمي في تفسير هذه الآية عن رسول الله (ص) انه قال: لتركبن سنن من كان قبلكم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة ولا تخطئون طريقهم شبر بشبر وذراع بذراع وباع بباع حتى ان لو كان من قبلكم دخل حجر ضب لدخلموه قالوا: اليهود والنصارى تعني يا رسول الله؟ قال: فمن أعني، لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة فيكون أول ما تنقضون من دينكم الإمامة، وفي نص: الأمانة، وآخره الصلاة (١).

وعلى كل الحوادث الواقعة في الأمم الماضية لا بد وأن تقع في هذه الأمة، ومن أهم الحوادث التي وقعت في الأمم الماضية تمرد الكثير منهم على ولاة الأمر من حجج الله عليهم وقد وقع مثل هذا التمرد أيضا في هذه الأمة كما هو معلوم.

ومن الآيات التي تشير إلى أن كل ما وقع في الأمم الماضية يقع في هذه الأمة قوله تعالى: (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) [الأحزاب / ٦٣]، ومنها قوله تعالى: (فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) [فاطر / ٤٤].

خامسا: - نصر الله انما يكون بصبر الثابتين على دينه وإن قلوا

(١) (تفسير القمي) ج ٢ ص ٤١٣ و (مجمع البيان) للطبرسي ج ٥ ص ٤٦٢.

يجب ان نعلم ان نصر الله عز وجل والغلبة على الأعداء انما تكونان بصبر الثابتين على دين الله، ونصرة أوليائه من أهل الإيمان والتقوى من الصابرين في البأساء وحين البأس في الحرب المتوكلين على الله والمعتمدين على نصره وإن قلوا.

وإن الخزي والخذلان يكونان لأهل النفاق والفسق الذين يخالفون أوامر ربهم وأوامر أوليائه من أهل التخاذل والتواني وإن كثروا وكثر جمعهم، فإن بني إسرائيل - وهم أصحاب هذه القصة - كانوا أذلاء مخزيين حينما كانوا على الخمول والكسل والتواني ولكنهم لما قاموا وقاتلوا في سبيل الله واستظهروا بكلمة الحق وان كان الصادقون منهم قليل حيث تولى أكثرهم عند إنجاز القتال أولا وبالاعتراض على نبينهم في ملوكية طالوت ثانيا وبالشرب من النهر بعد النهي عنه ثالثا، وبقولهم: (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) رابعا ولكن مع هذا وذاك نصرهم الله على عدوهم (فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت) واستقر الملك فيهم وعادت الحياة إليهم ورجع إليهم سؤددهم وقوتهم وعزهم، ولم يكن ذلك كله إلا بصبر المؤمنين المتقين الثابتين على دين الله القائمين حين نظروا إلى جالوت وجنوده وكثرتهم: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) والداعين ربهم لما برزوا له ولجنوده قائلين: (ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) واستجاب لهم ربهم بالفعل ونصرهم على عدوهم.

وهكذا نصر هذه الأمة وبقاؤها خالدة أمام كثرة أعدائها من الكافرين والمشركين والمنافقين انما هو بصبر أهل البيت " وجهادهم وصبر وجهاد المؤمنين من اتباعهم المخلصين في ولائهم.

لذلك نقول: ينبغي بل يجب على المؤمنين من هذه الأمة أن يسيروا بسيرة الصالحين من الماضين في الأمم الماضية والصالحين الماضين من هذه الأمة أيضا من الثابتين على الإيمان والصبر والجهاد وقاتل الأعداء وإلا فلا نصر ولا غلبة، قال تعالى: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) [آل عمران / ١٤٠].

وقال تعالى في القلة من المؤمنين في هذه الأمة (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) (١٧٢) الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل (١٧٣) فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم (١٧٤) إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مؤمنين [آل عمران / ١٧٣ - ١٧٦].

وشاهدنا من ذكر قصة طالوت هو ان الله اختاره ملكا على بني إسرائيل وفضله عليهم انما كان لأمرين امتاز بهما عليهم بتمييز الله له وهما بسطة العلم - أي السعة في العلم - وهو أمر روعي به يكون التدبير وجودة الفكر في إدارة شؤون الأمة فما يصلحها يأمرها به وما يفسدها ينهاها عنه، وبسطة الجسم وهو الكمال الجسماني المستلزم لصحة الفكر والعقل، لأنه كما ورد: العقل السليم في الجسم السليم.

الإشارة إلى الآيات المتعلقة بصحة الأبدان
والذي يتتبع الآيات القرآنية المتعلقة بصحة الأبدان يجد أن القرآن قد فرض على
المسلمين كثيرا من الأصول الصحية العامة التي يعتبرها الطب الحديث اليوم من القواعد
الوقائية الأولية التي تصلح لدفع أكثر الأمراض قبل وقوعها وللتخفيف من حدتها إذا
وقعت.

وقد اجمع الأطباء والفلاسفة والحكماء على ان الوقاية خير من العلاج، والتشريعات
الوقائية في القرآن المجيد تكاد ان لا تحصى تفاصيلها لكثرتها ومنها:

تحليل الطيبات وتحريم الخبائث

ومن تلك الأصول العامة والقواعد الأولية في القرآن تحليل الطيبات لطيبها الذاتي
وتحريم الخبائث لخبثها الحقيقي، وقد جاء ذلك في آيات عديدة منه (١).
وهذان الأصلان فصلتهما السنة النبوية الغراء وأحاديث أهل البيت " بتعيين الطيبات
والحث عليها وذكر منافعها وكيفية تناولها وآدابها، وتعيين الخبائث والتحذير منها
وذكر مضارها وحرمة تناولها في أبواب كثيرة ومتنوعة من كتب الفقه وعلل الشرائع
ومنها أبواب الأطعمة وأبواب علل تحريم الخبائث وغير ذلك من الأبواب.

(١) راجع (المرشد) ص ٣٥٢.

الإشارة إلى المؤلفات في تحليل الطيبات
وقد نظم ما ورد في تلك الأحاديث العلامة الكبير الشيخ محمد علي الأعسم النجفي
في أرجوزته الشهيرة في الأطعمة والأشربة وآدابها، وقد شرحها وعلق عليها الأستاذ
الفاضل الأديب عبد الرزاق بن الحاج محمد حسين في كتابه (النفحات الذكية في
شرح الأرجوزة الأعسمية) وذكر نصوص تلك الأحاديث من مصادرها بصحائف مرقمة
وأوضح فوائدها وأضرارها مع إيضاح موقف العلم الحديث المدعم لها والإشارة إلى
ذلك الدعم، وان العلم الحديث لم يأت بشيء إلا وذكره أهل البيت " فراجع فإنه مهم
في هذا الباب.

وراجع كتابنا (قبس من القرآن) الفصل الخامس منه المعنون: (تحليل الطيبات وتحريم
الخبائث) ص ١٨٦ - ٢٤٢ تحت هذه العناوين: (معنى الطيبات والخبائث)، (نسبة
التحليل والتحريم إلى النبي (ص))، (اختصاص الإسلام باستيعاب تحليل الطيبات
وتحريم الخبائث)،

١ - الإسلام أحل ما كان محرماً على اليهود من الطيبات.

٢ - لا رهبانية في الإسلام.

٣ - الإسلام يحل ما حرمت الجاهلية من الطيبات ويحرم ما أحلت من الخبائث.
(الحكمة في تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير)، (الطب الحديث يكشف عن أضرار
هذه المحرمات)، (الحكمة في تحريم الخمر)، (الخمر في الكتاب)، (الخمر في
الحديث النبوي)، (الخمر في حديث أهل البيت)،

(الخمير في نظر الطب الحديث)، (أقوال الأطباء والحكماء في الخمر)، (احصاءات عن نتائج السكر)، (نصيحة موجهة لشارب الخمر من المسلمين)، (نداء موجه إلى أولياء الأمور)، (استفادة الحسن والقبح العقليين من الآية المبحوث فيها).
(الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) (الأعراف / ١٥٨).

الجري وخبثه:

ومما حرم الله تعالى الجري لخبثه، وهو نوع من أنواع السمك، والمسلمون وان اختلفوا في حليته وحرمة ولكنه من المحرمات عند أهل البيت " الذين هم أعلم بأحكام دين الله وشريعة جدهم رسول الله (ص) وكيف لا يكونون كذلك: وصاحب البيت أدري بالذي فيه.

والبيت بيتهم والجد جدهم.

وشيعتهم يحرمونه تبعا لهم، وانه من الممسوخات.

ومعنى الممسوخ هو ان أناسا في الأمم الماضية ارتكبوا بعض المخالفات التي خالفوا بها أنبياءهم وأصروا على تلك المخالفات فمسخهم الله تبارك وتعالى على بعض الحيوانات الخبيثة، والذي يمسخ لا يعيش إلا أياما ثلاثة أو أقل أو أكثر ثم يهلكه الله، فكل من مسخ على شكل حيوان

من الحيوانات يقال لذلك الحيوان ممسوخ، فالمسوخية لها أسم مستعار مجازي،
والحقيقة انها مثل الممسوخ، والممسوخات كلها قد حرم الله أكل لحمها لما فيها من
الخبث والمضار، ولئلا يستهان بعقوبة الله عز وجل.

وجاءت في الممسوخات أحاديث عديدة ذكرها علماء الحديث، ومن تلك الأحاديث
ما رواه الصدوق في (علل الشرائع) باب علل الممسوخ وأصنافها، وقد ذكر في هذا
الباب خمسة أحاديث ونكتفي نحن بذكر الخامس منها، وقد رواه بسنده عن الإمام
جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب " قال: سئل رسول
الله (ص) عن الممسوخ، قال: هم ثلاثة عشر: ١ - الفيل، ٢ - الدب، ٣ - الخنزير،
٤ - القرد، ٥ - الجري، ٦ - الضب، ٧ - الوطواط (وهو الخفاش) (وهو يحيض
كما يحيض المرأة)، ٨ - الدعموص (الدعموص دويبة تغوص في الماء)، ٩ -
العقرب، ١٠ - العنكبوت، ١١ - الأرنب، ١٢ - الزهرة، ١٣ - وسهيل، فقيل له: يا
رسول الله ما كان سبب مسخهم، قال: أما الفيل فكان رجلا جبارا لوطيا، لا يدع رطبا
ولا يابساً، وأما الدب فكان رجلا مخنثا يدعو الرجال إلى نفسه، وأما الخنزير فقوم
نصارى سألوا ربهم تعالى ان ينزل عليهم المائدة فلما نزلت عليهم كانوا أشد كفرا
وأشد تكذيباً، وأما القردة فقوم اعتدوا في السبت، وأما الجري فكان ديوثا يدعو الرجال
إلى أهله، وأما الضب فكان أعرابيا يسرق الحاج بمحجنه (١)، وأما الوطواط فكان
يسرق الثمار من رؤوس النخيل، وأما الدعموص فكان ناما يفرق بين الأحبة، وأما
العقرب فكان رجلا لذاعا لا يسلم من لسانه أحد، وأما

(١) الأعرابي هو كل من يسكن البوادي والأرياف سواء كان عربيا - في الأصل - أو غير عربي.
والمحجن: العود أي العصي المعوجة التي تستعمل للاتكاء والضرب بها.

العنكبوت فكانت امرأة سحرت زوجها، وأما الأرنب فكانت امرأة لا تتطهر من حيض ولا جنابة ولا غير ذلك، وأما سهيل فكان عشارا باليمن (أي يأخذ العشر من الناس ظلما) وأما الزهرة فكانت امرأة نصرانية وكانت لبعض ملوك بني إسرائيل وهي التي فتن بها هاروت وماروت وكان اسمها ناهيل والناس يقولون: ناهيد (١).

قال الشيخ الصدوق معلقا على الحديث: ان الناس يغلطون في الزهرة وسهيل ويقولون انهما كوكبان (أي لم يكونا دابتين) وليس كما يقولون ولكنهما دابتان من دواب البحر، سميتا بكوكبين كما سمي الحمل والثور والسرطان والأسد والعقرب والحوت والجدى، وهذه - كلها - حيوانات سميت على أسماء الكواكب، وكذلك الزهرة وسهيل، وانما غلط الناس فيهما دون غيرهما لتعذر مشاهدتهما والنظر إليهما لأنهما من البحر المطيف بالدنيا بحيث لا تبلغه سفينة ولا تعمل فيه حيلة، ثم قال: وما كان الله تعالى ليمسح العصاة أنوارا مضيئة تبقى ما بقيت الأرض والسماء.. الخ.

العلامات والقواعد للمحرمات والمحللات

هذا وقد أعطت الشريعة الإسلامية الغراء علامات وقواعد ثابتة للمحرمات والمحللات من الحيوانات والطيور والبيض والسّمك، فبالنسبة إلى الحيوانات يقولون مثلا ما كانت تحيض أثناء فأكله حرام وإلا فلا، وبالنسبة إلى الطيور ما كان زفيغه أثناء الطيران أكثر من زفيغه (أي انه

(١) علل الشرائع ص ٤٨٨.

عند طيرانه يزف بجناحيه أكثر) فأكله حرام وإلا فلا، وبالنسبة إلى البيض ما لم يكن له طرفان (أي انه مدور كالكرة) فأكله حرام وإلا فلا، وبالنسبة إلى السمك ما لم يكن له فلس فأكله حرام وإلا فلا.

فالجري من الأسماك التي لا فلس لها، وإني رأيت في مصر بعض الأسماك غير الجري ولا فلس له بل جلده أملس ناعم فهذا النوع من السمك أكله محرم وهو خبيث، ممسوخا كان أو غير ممسوخ.

ومما يلزم إلفات النظر إليه ان الجري له فم واسع جدا كبير وأسنان ظاهرة غير ما عند بقية الأسماك وهو يأكل أنواع الجيف والفظائس والقذارات، وحدثني من أثق به: ان شخصا حدثه وهو ممن كان يحلل أكل الجري انه دعا جماعة من أصحابه على وليمة يكون من ضمنها (الجري) فلما حضروا وقدم الطعام وإذا المائدة فيها سمك بني وغيره ولم يكن فيها الجري فسألوه عن وعده لهم فقال: كلوا الآن وبعد ذلك أحدثكم، فلما فرغوا من الأكل قال لهم: جئت بحرية كبيرة فلما شققت بطنها رأيت فيها (جرو مائي) قد ابتلعتة فكرهتها وكرهت لحمها، ولذلك لم أأتي به في المائدة.

وينقل الدميري في (حياة الحيوان) ج ١ ص ٣٢٦ عن الجاحظ انه قال: ان الجري يأكل الجرذان.

ومن الكتب التي تتعلق بصحة الأبدان الكتاب الجليل المسمى ب (المطهرات في الإسلام).

المطهرات في الإسلام

لمؤلفه الدكتور القدير مهدي بازرگان، وقد ألفه باللغة الفارسية بعنوان (مطهرات در إسلام) وقام بتعريبه المرحوم الأستاذ الكبير والنطاسي المحنك فضيلة العلامة الشيخ محمد الخليلي، ونشرته له مجلة (منابع الثقافة الإسلامية) وهو الكتاب الثامن منه السنة الأولى سنة ١٣٨٠ هـ، وكانت هذه المجلة تصدر في كربلاء في كل سنة وتصدر عشرة كتب لمؤلفين إسلاميين، وموجود عندنا منها ثمانون حلقة لثمان سنين من سنة (١٣٨٠ - ١٣٨٧ هـ)، والكتاب المشار إليه موجود باللغتين الفارسية والعربية في مكتبة الإمام أمير المؤمنين في النجف الأشرف ومكتبة آية الله الحكيم العامة في النجف تحت رقم ٣٤ ومخزن ١ / و منابع الثقافة الإسلامية تحت رقم ٢٠٣ ومخزن ٤ / ذ، ويشتمل على أربعة فصول، والمترجم منه إلى العربية ثلاثة فصول بهذه العناوين: (التطهير الدائمي وقوانين التصفية في الحياة)، (خلاصة أحكام الطهارة في الإسلام)، (تحقيق علمي في المطهرات)، ويحتوي الكتاب المترجم إلى العربية على مائة صفحة يذكر فيها مؤلفه النجاسات العشر، وهي:

- ١ - البول والغائط من الإنسان وكل حيوان غير مأكول اللحم.
- ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - المنى والدم والميتة.
- ٦ - ٧ - الكلب والخنزير.
- ٨ - ٩ - الخمر والفقاع وكل مسكر مائع.
- ١٠ - الكافر وهو المشرك.

وان هذه النجاسات غير قابلة للتطهير إلا إذا استحالت أو خرجت عن صورتها الأولى، ثم يذكر أنواع المطهرات التي ترفع النجاسات عن المتنجس وهي خمسة: الماء والتراب والأرض والشمس والنار... الخ.

ويثبت أخيراً بالتحليل الدقيق والتحقيق العلمي الكيماوي الحديث خبث تلك النجاسات ومقدارها في كل نجس وما تحتوي عليه من الميكروبات وان تطهير ما تنجس بها - في تلك المطهرات - هو الذي يؤيده العلم الحديث وينسجم مع كل شخص ويساير الأمم والتطورات الحالية دون أي زيادة أو خلل أو نقص فراجعه إذا شئت.

الاستشفاء التفصيلي بالآية الآمرة بأخذ الزينة والأكل والشرب والناهية عن الإسراف

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين: (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد واكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) [الأعراف / ٣٢].

تتضمن هذه الآية الكريمة على جملة من البحوث في الفقه والصحة والأدب.

١ - أخذ الزينة عند كل مسجد

قال تعالى: (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) (والخطاب هنا عام لسائر المكلفين من بني آدم فلا يختص بشرع دون شرع ولا بصنف

من أصناف الناس دون صنف آخر بل يعم المكلفين جميعا من الرجال، والنساء تبع لهم، يأمرهم الله جل وعلا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد أي عند كل صلاة سواء كانت من الصلوات اليومية الواجبة أو غيرها من صلوات الجمعة أو الأعياد أو الطواف أو سائر وجوه العبادة والذكر من الواجبات والمستحبات، فالكل مأمورون أن يأخذوا زينتهم في جميع هذه الموارد.

واختلف المفسرون في المراد من الزينة وما المقصود منها، فقليل: هي ستر العورة عند كل صلاة وطواف.

وانما أمر عباده بذلك لأن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال نهارا والنساء ليلا وانما يفعلون ذلك لأنهم يقولون: إنا لا نطوف في ثياب أصبنا فيها الذنوب، ومنهم من يقول: نفعل ذلك تفاقولا حتى نتعري عن الذنوب كما تعرينا عن الثياب.

وعن سعيد بن جبير قال: كان الناس يطوفون بالبيت عراة يقولون: لا نطوف في ثياب أذنبنا بها، فجاءت امرأة فألقت ثيابها وطافت ووضع يدها على قبلها وقالت: فما بدا منه فلا أحله.

اليوم يبدو بعضه أو كله.

فنزلت الآية تأمرهم وتأمر غيرهم من سائر المكلفين بستر عوراتهم عند صلواتهم وطوافهم (١).

(١) (الدر المنثور) ج ٣ ص ٧٨ نقلا عن مصادر كثيرة و (مفاتيح الغيب) ج ٤ ص ١٩٨ ، و (تفسير المنار) ج ٨ ص ٣٧٩ ، وغيرها .

التحقيق في المراد من الزينة
ولكن تفسير أخذ الزينة بستر العورة فقط وان اختاره جماعة من المفسرين ولكنه
يخالف ظاهر الآية كما لا يخفى ان ظاهرها أخذ الزينة عند كل صلاة وطواف.
ومجرد ستر العورة - في الحقيقة - لا يقال له زينة لأنه يمكن ان يستر الإنسان عورته
بخرقه صغيرة بالنسبة للرجال، وثوب خلق بالنسبة إلى النساء وذلك لا يقال له زينة،
نعم إلا إذا قالوا: ان الزينة هنا نسبية، يعني نسبة ستر العورة عن الناظرين إلى كشفها
أمامهم يقال له زينة، ولكن الحقيقة ان الزينة هنا عامة في كل ما يتزين به من اللباس.
لأن الزين لغة يقابل الشين، وهو ما يعاب به الإنسان، فالزينة هي كل ما يرتفع به العيب
ويذهب بنفرة النفوس، والذي يرتفع به العيب ويذهب بنفرة النفوس هي الزينة بكل ما
يتزين به.

ومن الأدلة على ان المراد هنا الزينة بكل معانيها الآية الكريمة التي بعدها مباشرة وهي
قوله تعالى: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده) [الأعراف / ٣٣]، والإخراج كناية
عن إظهار وإيجاد أنواع الزينة التي يتحسسها مجتمعها ويستدعي انجذاب نفوسهم إليه
وارتفاع نفرتهم واشمئزازهم منه لأنه يعيش مع المجتمع وأفراده، إذن لا بد من العثور
على ما يستحسنه الناس من الهيئات والأزياء ومن هنا قال: (قل من حرم زينة الله التي
أخرج لعباده) (أي الزينة التي يستحسنها العباد، وقد قيل: كل ما يعجبك وألبس ما
يعجب الناس).

ويؤيد ذلك أيضا ما روي عن علي (ع) قال: كان رسول الله (ص) إذا لبس ثوبا جديدا قال: الحمد لله الذي كساني من الرياش ما أوارني به عورتني وأتجمل به في الناس وأتزين لهم (١).

وعلى كل حال فالتفسير الذي يماشي الآية الكريمة هو المروي عن الحسن بن علي وأبي جعفر الباقر (ع) من ان المراد من قوله: (خذوا زينتكم عند كل مسجد (أي خذوا ثيابكم الطاهرة التي يتزين بها عند كل صلاة وطواف).

ومن المعلوم ان لبس الثياب التي يتزين بها يحصل لصاحبها ستر العورة مع التجمل والتزين فهو أولى بالاتباع، وهذا التفسير أولى أيضا أن يكون ردا على أهل الجاهلية لأنهم كانوا يطوفون عراة ويزعمون ان هذا أمر حسن، فالله تعالى أمرهم وغيرهم أن يلبسوا الثياب الطاهرة الجيدة ويتزينوا بها وان هذا هو الأجل والأحسن.

وكان أئمة الهدى يطبقونه عمليا كي يقتدي الناس بهم، فقد روى المفسرون من الخاصة والعامة ان الحسن بن علي السبط الأكبر لرسول الله (ص) كان إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه، فقيل له: يا بن رسول الله لم تلبس أجود ثيابك؟ فقال: ان الله جميل يحب الجمال فأنا أتزين لربي وهو يقول: (خذوا زينتكم عند كل مسجد (فأحب أن ألبس أجود ثيابي (٢).

(١) (الدر المنثور) ج ٣ ص ٧٦ نقلا عن احمد وابن أبي حاتم وابن مردويه.
(٢) (تفسير العياشي) ج ٢ ص ١٤ و (مجمع البيان) م ص ٤١٢ و (تفسير المنار) ج ٨ ص ٣٨٢.

ومن أفضل أنواع اللباس، اللباس الأبيض، وقد جاء في بعض أحاديث النبي (ص) عن ابن عباس قال: قال رسول الله (ص): ألبسوا من ثيابكم البيضاء فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم... الخ.

وفي حديث آخر عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله (ص): عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم (١).
وروي ان الإمام الرضا (ع) سئل عن قوله تعالى: (خذوا زينتكم عند كل مسجد) فقال: من ذلك التمشط عند كل صلاة فريضة ونافلة (٢).

ويدلنا قول الإمام الرضا (ع) ان الزينة هنا عامة في كل ما يتزين به الإنسان من المستحبات والواجبات، وان من الزينة التمشط، ولعل من الزينة أيضا تناول الطيب، قال الإمام الصادق (ع): ركعتان يصليهما متعطر أفضل من سبعين ركعة يصليهما غير متعطر. والعطر أو الطيب من سنن نبينا محمد (ص) وكان يعجبه الطيب ويحبه. فأنظر أيها المسلم في ان الله أمرنا قبل الشروع في الصلاة ان نتطهر غسلا أو وضوءا أو تيمما وأمرنا ان نلبس الثياب الطاهرة الجيدة غير النجسة أو المغصوبة وان نمشط شعرنا ونتطيب، وما هذا وذاك إلا ليكون المصلي حاضر القلب لا يلهيه قذارة ثوبه ولا جسمه وهو متوجه إلى معبوده مصروف الفكر إليه، وفي ذلك دلالة أيضا على أهمية الصلاة وان لها استعدادا خاصا ومقدمات خاصة، ومن هنا جاء عن أمير المؤمنين علي (ع) انه قال: من لم يأخذ أهبة الصلاة قبل وقتها فما قرها.

(١) (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير ج ٢ ص ٢١٠ عن عدة مصادر.

وفي ذلك كله من الفوائد الصحية والاجتماعية ما لا يخفى لأن نظافة الجسم والثياب تجلب الصحة وتطرد المرض والميكروبات وتحبب صاحبها لمجتمعه.

وينبغي للمؤمن ان يتحمل دائما في الصلاة وفي غيرها مهما أمكنه ولا يظهر للناس بمظهر البؤس والقذارة وهذا أمر قد سنه الإسلام وأمر به بل وحث عليه حتى ان رسول الله (ص) أبصر ذات يوم رجلا أشعث الشعر وسخ الثياب فقال له: من الدين المتعة، أي التمتع بنعم الله التي أباحها لعباده.

وقال الإمام الصادق (ع): ان الله يحب الجمال والتجمل ويكره البؤس والتبأس.

وروى العياشي في تفسيره بإسناده عن يوسف بن إبراهيم قال: دخلت على أبي عبد الله الصادق (ع) وعلي جبة خز وطيلسان خز فنظر إلي فقلت له: جعلت فداك علي جبة وطيلسان خز فقال: لا بأس به، فقد أصيب الحسين (ع) وعليه جبة خز - ثم قال (ع) - ان عبد الله بن عباس لما بعثه أمير المؤمنين إلى الخوارج - ليحاججهم - لبس أفضل ثيابه وتطيب بأطيب طيبه وركب أفضل مراكبه وخرج إليهم فوافقهم أي لقيهم فقالوا: يا ابن عباس بينا أنت خير الناس إذا أتيتنا في لباس الجبابة ومراكبهم؟ قال: اللهم هذا أول ما أحاصمكم به، قال الله تعالى: (قل من حرم زينة الله التي

أخرج لعباده والطيبات من الرزق (ثم قال الإمام الصادق (ع): فألبس وتجمل فإن الله جميل يحب الجمال وليكن من حلال (١)).

فالتجمل أمام الناس والتزين لهم إذا محبوب عند الله تعالى والقرآن يؤيده، ولكن هناك أناس - كالخوارج المتزمتين الذين سمعت حديثهم مع ابن عباس - لا يروق لهم أن يروا من عرف بأنه من أولياء الله أو من العلماء والأصحاب وقد لبسوا لباسا فاخرا وتجمل بأنواع من التجمل ولذلك ينتقدونهم في حين أن الصالحين أولى وأحق من غيرهم بالتجمل خصوصا إذا كانت الدنيا مقبلة على أهلها على حد ما، وقد ورد: إذا أقبلت الدنيا على أهلها فأبرارها أولى بها من فجارها.

ومن أولئك المنتقدين لأولياء الله سفيان الثوري على ما روى قصته مع الإمام الصادق (ع) الكليني في (الكافي) بسنده أنه: مر سفيان الثوري في المسجد الحرام فرأى أبا عبد الله الصادق (ع) وعليه أثواب كثيرة القيمة حسان فقال: والله لآتينه ولأوبخنه، فدنا منه فقال: يا بن رسول الله والله ما لبس رسول الله مثل هذا اللباس ولا علي ولا أحد من آبائك، فقال أبو عبد الله (ع): كان رسول الله (ص) في زمان قتر مقتر وكان يأخذ لقتره واقتاره، وان الدنيا بعد ذلك أرخت عزاليها وأحق أهلها بها أبرارها ثم تلا: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) فنحن أحق من أخذ ما أعطاه الله، ثم قال (ع): يا ثوري ما ترى علي من ثوب انما لبسته للناس، ثم جذب الإمام بيد سفيان فجرها إليه ثم رفع الثوب الأعلى وأخرج

(١) (تفسير العياشي) ج ٢ ص ١٥، و (الميزان) ج ٨ ص ٩١ نقلا عن (الدر المنثور) ج ٣ ص ٧٩ نقلا عن ابن مردويه والترمذي والمنار ج ٨ ص ٣٩٢.

ثوبا تحت ذلك على جلده غليظا ثم قال: هذا لبسته لنفسه وما رأيته للناس، ثم جذب ثوبا على سفيان أعلاه غليظا خشنا وداخل الثوب لين فقال: لبست هذا الأعلى للناس ولبست هذا لنفسك وتستره.

ونظير قصة سفيان الثوري مع الإمام الصادق (ع): قصة عباد بن كثير رواها الكليني أيضا بسنده عن ابن القداح قال: كان أبو عبد الله الصادق (ع) متكئا علي فلقبه عباد بن كثير وعليه ثياب مروية حسان فقال له: يا أبا عبد الله انك من أهل بيت النبوة وكان أبوك، أي زاهدا فما لهذه الثياب المروية عليك؟ فلو لبست دون هذه الثياب فقال أبو عبد الله (ع): ويلك يا عباد (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) ان الله عز وجل إذا أنعم على عبده نعمة أحب أن يراها عليه ليس به بأس (١). وهذا المعنى ورد عن النبي (ص) فيما رواه الترمذي في سننه، وحسنه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله (ص): ان الله يحب ان يرى اثر نعمته على عبده (٢).

ولكن مما يلزم إلفات النظر إليه ان تلك النعم التي يتنعم بها صاحبها من جهة يجب ان تكون مكتسبة من حلال، كما مر علينا قول الإمام الصادق (ع): فألبس وتجميل فإن الله جميل يحب الجمال وليكن من حلال.

(١) راجع القصة في (تفسير الميزان) ج ٨ ص ٩٢ نقلا عن الكافي للكليني.
(٢) نقله عن الترمذي السيوطي في (الدر المنثور) ج ٣ ص ٧٩ ونقله عنه الطباطبائي في (الميزان) ج ٨ ص ٩٣.

ومن جهة أخرى يجب ان لا يسرف فيما يتنعم به لأن الله نهانا عن الإسراف، ومن جهة ثالثة يجب ان يخرج الحقوق الواجبة عليه من خمس وزكاة ورد المظالم ثم يتحمل بتلك النعم، ويستحسن له أيضا ان يتصدق على الفقراء والمعوزين من أرحامه وجيرانه وسائر الفقراء إقتداء بالأئمة الهداة.

قال الإمام الرضا لمحمد بن أبي نصر: البس وتجمل فإن علي بن الحسين كان يلبس الجبة الخبز بخمسائة درهم والمطرف الخبز بخمسين دينارا فيشتري فيه فإذا خرج الشتاء باعه وتصدق بثمنه.

والتجمل بالثياب غير منحصر بالثياب الفاخرة الغالية بل يمكن للإنسان ان يتجمل بحسب حاله بأن يلبس ثيابا عادية رخيصة، ولكنه يلتزم بتنظيفها فلا يلبس إلا الثياب النظيفة.

وقد نص القرآن المجيد على ذلك بقوله تعالى: (وثيابك فطهر (٤) والرجز فاهجر (المدثر / ٥ و ٦) والرجز هنا النجاسات، وقيل: العذاب، ويكون معناه: اهجر ما يسبب لك العذاب من الذنوب والمعاصي، والواقع ان أكثر الناس يعتنون بنظافة ثيابهم وأجسامهم ولكنهم يهملون نظافة قلوبهم أي نفوسهم من أدران الذنوب والمعاصي، وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين (ع) بقوله فيما نسب إليه: وثوب لبسك مغسول من الدنس ان السفينة لا تجري على اليبس. ما بال دينك ترضى ان تدنسه ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها. وقال سيد الأنبياء: من اتخذ ثوبا فلينظفه.

ونظر يوماً إلى رجل عليه ثياب وسخة فقال: ما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه.
وقال إمام الحكماء علي (ع): غسل الثياب يذهب بالهم والحزن وهو طهور للصلاة
(١).

فانظر كيف اهتم الدين الإسلامي بتنظيف الثياب، بل اهتم بالنظافة عامة نظافة الثياب
والبدن والمأكل والمشرب والمسكن وما إلى ذلك لأن النظافة هي أعظم واق للإنسان
من أكثر الأمراض الفتاكة، ففيها فوائد صحية وأخلاقية واجتماعية لأن التنظيف محبوب
عند الناس كما هو محبوب عند الله. قال تعالى: (إن الله يحب التوابين ويحب
المتطهرين) [البقرة / ٢٢٣]، والوسخ مبغوض عند الله والناس، قال النبي (ص): ان الله
يبغض الوسخ الشعث، وقال أمير المؤمنين (ع): ان الله يبغض من عباده القاذورا الذي
يتأنف منه من جلس إليه.

وقد كان اهتمام الإسلام بالنظافة اهتماما بالغاً حتى اعتبرها ركناً هاماً من أركانها فقال
النبي (ص): بني الإسلام على النظافة وجعلها من الإيمان فقال: النظافة من
الإيمان.

وبالأخص التزين بالنظافة واللباس الحسن عند الصلاة فإنه أهم، لذا قال تعالى: (يا بني
آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) (وسمعت قول الصادق (ع): فقد أصيب الحسين
وعليه جبة خز لأنه (ع) قبل قتله صلى بأصحابه صلاة الخوف).

(١) (البحار) ج ٧٦ ص ٨٤ نقلاً عن (الخصال).

٢ - إباحة الأكل والشرب والنهي عن الإسراف
والبحث الثاني من الآية الكريمة قوله تعالى: (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) (أباح لنا الله سبحانه وتعالى في هذا النص الأكل والشرب بعد الإباحة بأخذ الزينة ولكنه قيدنا بقوله: (ولا تسرفوا) (أي لا تسرفوا في هذه الأمور الثلاثة: الزينة والأكل والشرب).
واختلف المفسرون في المراد من الإسراف فقليل: هو تجاوز الحلال إلى الحرام، قال مجاهد: لو أنفقت مثل أحد في طاعة الله عز وجل لم تكن مسرفاً ولو أنفقت درهما أو مداً في معصية الله لكان ذلك إسرافاً (١).

وقيل إن الإسراف هو الخروج عن حد الاعتدال في زيادة المقدار، والصحيح أنه لا مانع من الجمع بين القولين وصحتهما معاً بأن يكون الإسراف هو تجاوز الحلال إلى الحرام من جهة والخروج عن حد الاستواء والاعتدال بزيادة المقدار من جهة ثانية بحيث يدخل الإنسان على نفسه الضرر والمرض بتلك الزيادة، والقول الثاني هو الأقرب إلى الحقيقة.

وقد حكى أن هارون الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق اسمه بنختيشوع، قال يوماً لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم - أي القرآن - من علم الطب شيء، والعلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان، فقال له: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه وهو قوله تعالى: (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) (فقال الطبيب: ولم يرو عن رسولكم شيء في الطب، فقال: جمع رسولنا الطب كله في ألفاظ يسيرة وهي قوله (ص):

(١) (مجمع البيان) م ٢ ص ٤١٣.

المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء وأعط كل بدن ما عودته. فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا (١).
ومما روي عن النبي (ص) في هذا المقام قوله (ص) للطبيب الذي أهدها إليه المقوقس ملك مصر: قال: نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع، وإليك الآن قصة المقوقس مع النبي (ص) وسبب قوله ذلك.

قصة المقوقس ملك مصر مع النبي (ص)
المقوقس لقب لكل من ملك مصر والإسكندرية كفرعون لقب للفراعنة وكسرى للأكاسرة وقيصر للقيصرة، المقوقس من القبط واسمه جريح أو جريج، وبالحاء المهملة في آخره أو الجيم، وكان نصرانيا وملكا تابعا لقيصر ملك الروم ومنصوبا من قبله، وقد كتب إليه النبي (ص) كتابا يدعو فيه إلى الإسلام وهذا نص كتابه:
كتاب النبي (ص) إلى المقوقس وموقع العبرة فيه

بسم الله الرحمن الرحيم
من محمد بن عبد الله (ص) إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم واسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك أثم القبط (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ

(١) (تفسير الجواهر) للطنطاوي ج ٤ ص ٤٥، و (مجمع البيان) م ٢ ص ٤١٣.

بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ([آل عمران / ٦٥] (١)).

نعم هكذا كتب النبي (ص) إلى المقوقس: أسلم تسلم يؤتك الله أجره مرتين فإن توليت، أي عرضت فإنما عليك أثم القبط وهكذا كانت كتاباته إلى غالب الملوك والرؤساء فمثلا يكتب إلى كسرى ملك الفرس: اسلم تسلم فإن أبيت فعليك أثم المحوس، ويكتب إلى قيصر ملك الروم: أسلم تسلم يؤتك الله أجره مرتين فإن توليت فإنما عليك أثم الأريسيين، ويكتب إلى النجاشي ملك الحبشة: فاسلم تسلم فإن أبيت فعليك أثم النصارى من قومك.. الخ.

ومن هنا نعلم علم اليقين ان الملوك والرؤساء وسائر العلماء والأصحاب إن أسلموا للحق وأهله واستقاموا عليه يؤتهم الله أجرا مضاعفا مرتين، وان أبوا وناقضوا في دينهم يكون عقابهم مضاعفا مرتين أيضا، وهذا المعنى يشير إليه القرآن المجيد بل يصرح به في خطابه إلى زوجات النبي (ص) بقوله: (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا (٣٠) ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما ([الأحزاب / ٣١] - ٣٢).

ويقول تعالى حاكيا دعاء أهل النار وهم في النار: (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا (٦٧) ربنا آتهم ضعفين من العذاب

(١) راجع مصادر كتاب النبي (ص) إلى المقوقس وقصته في كتاب (مكاتيب الرسول) للعلامة علي بن حسين علي الأحمد ج ١ ص ٩٧ - ١٠٤ وكتبه إلى كسرى وقيصر والنجاشي ص ٩٠ وص ١٠٥ وص ١٣٣.

والعنهم لعنا كبيرا ([الأحزاب / ٦٨ - ٦٩] وهو دعاء مستجاب في زيادة عذاب السادات والكبراء الضالين.

ويقول تعالى في المنافقين من الأصحاب مخاطبا رسوله الأكرم (ص): (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم ([التوبة / ١٠١]).

والظاهر ان المراد من العذاب مرتين في هذه الآية الكريمة المرة الأولى ما يلاقونه أيام حياتهم الدنيا من أنواع المحن والمصائب والابتلاء وتسليط بعضهم على بعض إلى غير ذلك من أنواع الذل والخذلان والقتل وإقامة الحدود عليهم.. الخ، والمرة الثانية ما يلاقونه من العذاب أيام البرزخ المسمى (بعذاب القبر) وابتدأؤه من حضور آجالهم إلى يوم القيامة يكونون معذبين فيه بالنار مع أعداء الله السابقين لهم جزاء ما اقترفوه من النفاق والضلال والإضلال ثم يردون إلى عذاب عظيم خالد في القيامة وما بعدها إلى ما لا نهاية له في النار، وقال تعالى: (خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد ([هود / ١٠٨]).

فالنبي (ص) كتب إلى المقوقس يدعو إلى الإسلام وينذره بمضاعفة العذاب إن هو أبى، وبعث كتابه مع رجل من أصحابه يقال له حاطب بن أبي بلتعة، فجاء حاطب حتى دخل مصر فلم يجده هناك فذهب إلى الإسكندرية فأخبر انه في مجلس مشرف على البحر فركب حاطب سفينة وحاذى مجلسه وأشار بالكتاب إليه فلما رآه المقوقس أمر بإحضاره بين يديه فلما جيء به ونظر إلى الكتاب وفضه وقرأه، قال لحاطب: ما منعه

ان كان نبيا ان يدعو الله على من خالفه وأخرجه من بلده إلى غيرها ان يسلط عليهم ويهلكهم؟ فقال حاطب: ألسنت تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه أن لا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى؟ قال: أحسنت أنت حكيم من عند حكيم، ثم قال له حاطب: انه كان قبلك من يزعم انه الرب الأعلى - يعني به فرعون موسى - فأخذه الله نكال الآخرة والأولى فانتقم به ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بغيرك بك، ان هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد (ص)، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائكم أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوما فهم أمتهم فألحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبي ولسنا ننهك عن دين المسيح بل نأمرك به، فقال المقوقس: إني نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب، ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبأ والإخبار بالنجوى - أي انه يخرج الخبأ وهو المستور ويخبر بالنجوى أي يخبر بالأمر الغيبية التي يستمدتها عن الله تعالى.

ثم أخذ المقوقس الكتاب وجعله في حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى جاريته وكتب إلى النبي (ص) كتابا جواب كتابه يقول فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت ان نبيا قد بقي وكنت أظن انه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بهدايا والسلام عليك (١).

هدايا المقوقس إلى النبي (ص)

والهدايا التي أهداها المقوقس إلى النبي (ص) كثيرة منها انه أهدى إليه جارية واسمها مارية القبطية وقد تزوجها النبي (ص) وأولدها ابنه إبراهيم ولم تلد له امرأة من زوجاته غير خديجة ومارية هذه، وأهدى إليه أيضا غلاما خصيا أسود يقال له ما بور وقد كان يخدم في بيته، وأهدى إليه بغلة شهباء وهي دلدل وقد اتخذها ركوبة له، وحمارا أشهب يقال له اليعفور وكان يستخدمه لحاجياته.

ومن جملة ما أهداه إليه طبيبا يداوي المرضى، فمكث الطبيب مدة طويلة عند النبي (ص) لم يقبل عليه أحد يشكوه مرضا فقال ذات يوم للنبي (ص): مكثت مدة ولم يأتني مريض؟ فقال له النبي (ص) كلمته الشهيرة نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع، وفي رواية أخرى ان النبي (ص) قال للطبيب: ارجع إلى أهلك فإننا قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع.
الأحاديث في الصحة وتأيد الأطباء لها

(١) (مكاتيب الرسول) ص ٩٩ - ١٠٠ نقلا عن السيرة الطبية والدحلانية وغيرها.

ولقد أبدى كثير من أعلام الطب في الشرق والغرب إعجابهم وإكبارهم لهذه الكلمة واعتبروها أعظم دستور صحي يضمن للعاملين به صحة تامة من جميع الوجوه، ومن أولئك الأعلام في الطب العالم الإنكليزي المستر داز حيث قال عند ذكره للنبي (ص): يكفي ان قوله المأثور: نحن لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع. ان يكون هو الأساس الذي بني عليه علم الصحة، ولا يستطيع الأطباء على كثرتهم ومهارتهم أن يأتوا بنصيحة طبية أثنى من هذه النصيحة.

ولا تستغرب قوله هذا لأن صحة الجسم متوقفة على صحة المعدة إن صحت صح الجسم وإن مرضت مرض الجسم، ومعلوم ان المعدة لا تصح إلا بحسن التغذية ومراعاة القواعد الصحية فيها، وهذا المعنى قد نص عليه النبي (ص) وأوضحه للمسلمين إيضاحاً لا غبار عليه حيث قال (ص): المعدة حوض البدن والعروق إليها واردة فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة وإذا سقمت صدرت العروق بالسقم. وسمعت قوله (ص): المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء وأعط كل بدن ما عودته.

ولقد أثبتت الإحصاءات الطبية ان أكثر الأمراض في العالم سببها الإسراف في الأكل والشرب وعدم العناية بأصول التغذية لذا قال تعالى: (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا). نعم هذه ثلاث كلمات جمعت أصول الصحة وأعطت خلاصة أسباب الأمراض وحثرتنا من أهم السقام ودرستنا فصولاً وأبواباً عما حوته

مفصلات الكتب الطبية التي استخلصتها أفكار العلماء والأطباء طوال مدة كلها تجارب وبحث وتنقيب.

وقد أخطأ من تصور أن في الأكل الكثير يكون منه للجسم غذاء كثير، والصحيح الواقع إن الغذاء النافع لا يكون إلا في الطعام الذي يحسن ويسهل هضمه، وأما الإكثار منه يكون جالبا للضرر والمرض.

وقد جاء في حديث ما كتب على أبواب الجنة الثمانية الذي رواه الخاصة والعامة عن عبد الله بن مسعود عن النبي (ص) انه قال: وعلى الباب الثالث مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله، لكل شئ حيلة وحيلة الصحة في الدنيا أربع خصال: قلة الطعام وقلة الكلام وقلة المنام وقلة المشي (١).

وقال (ص) أيضا: إياكم والبطنة فإنها مفسدة للبدن ومورثة للسقم ومكسلة عن العبادة. وقال (ص): لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلوب تموت كالزرع إذا كثر عليه الماء.

ثم جاء من بعده (ص) حفظة شريعته وخلفاؤه في أمته يتابعون صوته ويذيعون كلمته، فقال حكيم الإسلام علي (ع): لا صحة مع النهم، وقال أيضا وهو يوصي ولده الحسن الزكي (ع): يا بني ألا أكلمك أربع كلمات تستغني بها عن الطب؟ فقال بلى. قال: لا تجلس على الطعام إلا وأنت جائع ولا

(١) راجع حديث ما كتب على أبواب الجنة الثمانية وأبواب النار السبعة من الحكم وعلى أبواب الجنة الثمانية علي ولي الله كتابنا (الصلاة على النبي وآله في الميزان) ومصادره من الفريقين فإنه مهم جدا.

تقم عنه إلا وأنت تشتهييه وجود المضغ وإذا نمت فأعرض نفسك على الخلاء، فإذا استعملت هذا استغنيت عن الطب.

وقال الإمام الرضا (ع) في رسالته الذهبية التي كتبها إلى المأمون العباسي وفرح بها فرحا شديدا وأمر أن تكتب بالذهب وسماها (المذهبة) لنفاستها وحسن موقعها وعظم نفعها وكثرة بركتها، وتعد تلك الرسالة من أعظم الآثار الطبية حيث ضمنها الإمام من التعاليم والإرشادات الطبية ما يدهش عقول أرباب هذا الفن، فمن جملتها قال (ع):
وأعلم ان الجسد بمنزلة الأرض الطيبة متى تعوهدت بالعمارة والسقي من حيث لا يزداد في الماء فتغرق ولا ينقص منه فتعطش دامت عمارتها وكثر ريعها وزكى زرعها وإن غفل عنها فسدت ولم ينبت العشب، فالجسد بهذه المنزلة وبالتدبير في الأغذية والأشربة يصلح ويصح وتزكو العافية فيه... إلى ان قال (ع): صلاح البدن وقوامه بالطعام والشراب وفساده يكون بهما فإن أصلحتهما صح البدن وإن أفسدتهما فسد البدن فأنظر ما يوافقك ويوافق معدتك ويقوى عليه بدنك ويستمره من الطعام فقدره لنفسك واجعله غذاءك (١).

وقال بعض الحكماء يوصي ولده: يا بني عود نفسك مجاهدة الهوى والشهوة فلا تنهش نهش السباع ولا تخضم خضم البراذين ولا تدمن الأكل إدمان النعاج فإن الله جعلك إنسانا فلا تجعل نفسك بهيمة واحذر سرف البطنة فإن البطنة تدعو إلى التخمة والتخمة تدعو إلى السقم والسقم رسول

(١) شرح تلك الرسالة وعلق عليها الدكتور السيد عبد الصاحب زيني ونشرت له في سلسلة من الكتب التي كان يصدرها العلامة الكبير السيد مرتضى العسكري، وعنوان السلسلة (ملتقى العصرين) وهي الكتاب الثاني من السلسلة ويقع الكتاب في مائة وثمان وستين صفحة بالحجم الصغير، وتجدها مشروحة أيضا في (البحار) للمجلسي في المجلد الرابع عشر ص ٥٦٧ من الطبع القديم من كتاب (السماء والعالم) فراجع إذا شئت.

الموت ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة لأنه قاتل نفسه، وقاتل نفسه الأم من قاتل غيره فإن كنت تحب الحياة فهذا سبيل الحياة (١).
ومن كلمات الحكماء الواردة في هذا الباب قولهم: ما أكلته وأنت تشتهييه فقد أكلته، وما أكلته وأنت لا تشتهييه فقد أكلك (٢).

وورد عن النبي (ص) انه قال: ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات تقمن صلبه فإن كان فاعلا لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه.
وقال بعض الحكماء: البطننة تذهب الفطنة وتجلب الداء العضال (٣).

الحكم الصحية في الصوم
وبالجملة ينبغي لكل محافظ على صحته محب لنفسه ان يحذر الإسراف والبطننة وإراحة لمعدته، وما تشريع الإسلام للصوم إلا لما فيه من المنافع الدينية والدينية للروح والبدن ومن منفعه ومعطياته أنه يضمن للإنسان هذه الناحية من صحة البدن، لذلك قال رسول الله (ص): الصوم زكاة البدن، أي انه يطهر البدن من الأمراض وينمي من جهة أخرى.
وقال (ص): صوموا تصحوا، لأن في الصوم راحة للمعدة وتجديدا لنشاطها فإن الأبحاث الطبية دلت على ما لهذا الأمر الإلهي من مزايا عظيمة منها راحة الجهاز الهضمي والكبد والكلى من كثرة العمل حتى

(١) راجع كتاب (الإنسان) لعلي فكري ج ٢ ص ٧٢.

(٢) (القرآن والطب الحديث) ص ٦٨.

(٣) (الإنسان) ج ٢ ص ٢٩.

تنشط لتأدية وظيفتها بأحسن ما يستطيع، ومنها احتراق المواد الزائدة في الجسم الضار بقاؤها فيه. ولقد أحسن الدكتور أحمد عارف الوديني حيث قال في قصيدته عن الطب النبوي:

قد زفها المختار للأحياء من تخمة تدني من الإفناء رب امتلاء كان شر بلاء بالقصد في شبع وفي إرواء إذ كانت المعدات بيت الداء كانت لدى الإنسان بيت دواء ان الهدى في نهجه الوضاء.

والصوم براء للحياة وصحة الجوع تهذيب النفوس وعصمة ومن الطعام بلية في أهله أوصى النبي بأن تصان جسامنا إني أرى المعدات ميزان القوى فإذا أقمت لها اقتصادا خالصا فأسلك تعاليم النبي ونهجه.

نعم. هذا هو نهج النبي (ص) وهذا ما أوصى به وأمر به الإسلام لذا قال تعالى: (كلوا واشربوا ولا تسرفوا).

٣ - معنى الحب والبغض بالنسبة إلى الله تعالى

وحيث ان الإسراف مذموم عقلا وشرعا أتبع سبحانه وتعالى ما تقدم بقوله: (إنه لا يحب المسرفين) وهذا تهديد عظيم من الله للمسرفين لأن كل ما لا يحبه الله يكون مبغوضا عنده والمبغوض عند الله يحرم الثواب ويجزى بالعقاب لأن معنى حب الله لعبده هو إيصال الثواب إليه وبغضه له هو إنزال العقاب عليه. فالمسرف بزيبته وأكله وشربه يكون قد عرض نفسه للعقاب من الأمراض وضياع المال في الدنيا، والنار والعذاب في الآخرة بقدر ما ينشأ

عن الإسراف من المفاسد والمضار الشخصية والمنزلية والقومية، قال الإمام الصادق (ص) في حديث له طويل من جملته: انما الإسراف فيما أفسد المال وأضر بالبدن (١). فعلى الإنسان ان يكون مقتصدا معتدلا فيما ينفقه من المال في مطلق الزينة وعموم الأكل والشرب في سائر ما ينفقه، قال تعالى: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما [الفرقان / ٦٨]، ومن هنا جاء في حديث أبان بن تغلب انه قال: قال أبو عبد الله الصادق (ع): أترى الله أعطى من أعطى من كرامته عليه؟ أو منع من منع من هوان له عليه؟ لا، ولكن المال مال الله يضعه عند الرجل ودائع وجوز لهم ان يأكلوا قصدا ويشربوا قصدا ويلبسوا قصدا وينكحوا قصدا ويركبوا قصدا ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين ويلموا به شعثهم، فمن فعل ذلك كان ما يأكل حلالا ويشرب حلالا ويركب حلالا وينكح حلالا ومن تعدى ذلك كان عليه حراما، ثم قال: (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين (، ثم قال (ع): أترى الله ائتمن على مال خوله - أي أعطاه تفضلا - أن يشتري به فرسا بعشرة آلاف درهم ويجزيه فرس بعشرين درهما، ويشتري جارية بألف دينار ويجزيه جارية بعشرين دينارا، وقال: (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ((٢)). وقد جاء هذا النص: (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين (مكررا في سورتي (الأنعام / ١٤٢) و (الأعراف / ٣٢) التي هي موضع البحث.

(١) (الميزان) ج ٨ ص ٩٤ نقلا عن الكافي.

الإسراف في القرآن
وقد ذكر الله تعالى الإسراف بمادته في القرآن المجيد في ٢٣ مورداً، والذي يستفاد من موضوع تلك الموارد ان الإسراف بأي شئ كان وكيفما كان فهو مذموم، ولا سيما الإسراف في الموارد المحرمة الذي يسبب عدم هدايتهم الخاصة من الله كما قال الله تعالى: (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) [غافر / ٢٩]، كما يسبب إضلالهم أيضاً قال تعالى: (كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب) [المؤمن أو غافر / ٣٥]، وأخيراً قد يسبب إهلاكهم والانتقام منهم كما قال تعالى: (وأهلكنا المسرفين) [الأنبياء / ١٠]، وقال تعالى: (لنرسل عليهم حجارة من طين) (٣٣) مسومة عند ربك للمسرفين) [الذاريات / ٣٤ - ٣٥]، ويصف القرآن المتعاليين والمتكبرين والطغاة والحكام الذين لا يحكمون بحكم الله يصفهم بأنهم مسرفون مثل قوله تعالى في فرعون الذي أسرف في ظلمه لبني إسرائيل، قال تعالى: (ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين) (٣٠) من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين) [الدخان / ٣١]، وينهى عن إطاعتهم بقوله تعالى: (ولا تطيعوا أمر المسرفين) [الشعراء / ١٥٢]، إلى غير ذلك من الآيات التي تذكر الإسراف وعاقبة أهله الوخيمة السيئة المسببة للانتقام والعذاب في الدنيا والآخرة وانه من صفات الظالمين والمتعاليين.
فعلينا إذن كمسلمين ان نحذر الإسراف تبعاً لتعاليم ربنا ونبينا وأهل بيته الهداة ولا نتبع الظالمين والمجرمين الذين أسرفوا بكل ما للإسراف من معنى، الذين إذا اتبعناهم معرضين عن الحق وأهله نكون معهم معرضين أنفسنا إلى العذاب في الدارين قال تعالى: (ومن أعرض عن

ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى (١٢٤) قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا (١٢٥) قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى (١٢٦) وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى (طه / ١٢٥ - ١٢٨).

فيا أيها المسلمون المؤمنون لا تعرضوا أنفسكم لسخط الله وشدة عذابه في الدارين بسبب الإسراف والإصرار عليه في عدة موارد ومنها الإسراف في الأعراس كما ترى كثيرا من الناس يسرفون إسرافا فاحشا في الأعراس ويطعمون في هذه المناسبة حفلات خلعية ماجنة ينفقون عليها الكثير من المال بالمئات أو الألوف أو الملايين وأكثره في الحرام كالرقص والأغاني وشرب الخمر وما شاكل ذلك، وبالثناء يعرضون أعراضهم من نساءهم وبناتهم للأجانب مزينة بأنواع الزينة المغرية كما هو مشاهد في بلاد المسلمين وممن يدعي الإسلام، وهذا الداء قد جاءنا من المستعمرين في دول الشرق والغرب وسار عليه الكثير من الحكام الطغاة الذين استولوا على المسلمين وأموالهم وسيطروا عليهم واخذوا يعبثون بتلك الأموال كيف شاءوا وشاءت أهواؤهم. فالحذر من هذه الأدواء المهلكة: (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين) [الأعراف / ٥٧].
الاستشفاء التفصيلي بقوله تعالى: (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور)

قال عز من قائل في محكم كتابه المجيد: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير (٢٢) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ([الحديد / ٢٣ - ٢٤].

تشمل هاتان الآيتان على جملة من البحوث القيمة نذكرها - إن شاء الله - بعد ذكر مقدمة صحية تناسب تلك البحوث فنقول:

الهم ومضاره وعلاجه

الهم - ولا سيما إذا كان متواصلا - هو أعظم مقوض للصحة وأكبر هادم للكيان الإنساني تنهار به صحته وتذهب فتوته فيصير صاحبه هزيل الجسم ضعيفا في مقاومة الأمراض ومجابهة الصعاب، وهو في الحقيقة عامل لكثير من الأمراض في الإنسان وأكبر سالب للصحة والنشاط منه، وهذا أمر أتفق عليه العقل والشرع والطب وأثبتته التجارب ودل عليه الحس والوجدان لذلك يقول حكيم الإسلام علي (ع): الهم نصف الهم.

ولو أردنا ان نفكر في العوامل الرئيسية لحدوث الهم في الإنسان لرأيناها تعود غالبا إلى أمر واحد، هو الحرص على الدنيا والحب لها.

وليعلم كل إنسان انه مهما كان حريصا على دنياه محبا لها فإنه لا يستطيع ان يحصل على جميع آماله فيها، إذ لا بد وان تسره يوما وتسيأه يوما آخر، كما قيل:
ويوم نساء ويوم نسر.
فيوم علينا ويوم لنا.

وهذا هو شأن الحياة الدنيا لا تستقيم مع أحد ولا تصفو مع إنسان،
وراحتها ممزوجة بعناء.
حلاوتها ممزوجة بمرارة.

فإذا كان الإنسان حريصا عليها كل الحرص متكالبا عليها كل التكالب فلا بد وأن يكون في كثير من أوقاته مهموما مغموما على سوء صنيعها به متأسفا على ما فاته منها حتى يصبح عرضة للآلام وهدفا للأسقام بسبب تلك الهموم المتوالية عليه.
ولكن الدين الإسلامي الحنيف بفضل تعليماته الرشيدة وتوجيهاته السديدة عالج هذا الأمر علاجا حاسما وقضى على هذا الداء الخطير - إن عمل به - قضاء مبرما وذلك حيث ندب الناس - في القرآن المجيد والسنة النبوية الغراء وتعاليم أهل بيت العصمة فعلا وقولا - إلى الزهد في الحياة الدنيا والإعراض عن لذائذها الزائلة وشهواتها الفانية وشوقهم إلى الحياة الأخرى وما فيها من النعيم الأبدي والسعادة الخالدة التي لا يشوبها ألم ولا يكدر صفوها هم.

فمن رغب في الحياة الأخرى التي هي (خير وأبقى) على حد تعبير القرآن المجيد زهد في الحياة الدنيا وذهب حرصه عليها واستسهل في سبيل الوصول إلى تلك الحياة السعيدة كل صعب وهان عليه كل خطب وصبر على كل بلاء فلم يأسف حينئذ على ما فاته ولم يفرح بما آتاه لأنه لا يجد لهذه الحياة قيمة ذات أهمية باعتبار انها فانية حتى يحزن على ما فاته منها أو يفرح بما أوتي فيها، وهو الزهد الذي يرتاح به الضمير

وتطمئن به النفس ويستريح به البدن، لذا قال رسول الله (ص): الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن.

ويقول الإمام علي (ع): الزهد كله بين كلمتين من القرآن هما قوله تعالى: (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) فمن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه (١).
بحوث الآيتين

وهاك الآن ما تضمنته الآيتان من بحوث وإيضاح.

يقول تعالى في الآية الأولى: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) فنستفيد من إخبار هذه الآية الكريمة ان كل ما أصابنا من خير أو شر ومن زيادة أو نقيصة ما كان ليخطأنا، وان ما أخطأنا وفاتنا من ذلك كله ما كان ليصيننا لأن جميع ما ينال الإنسان وما يصيبه في الأرض وفي الأنفس كله مثبت ومسجل في كتاب وهو اللوح المحفوظ من قبل أن نبرأها، أي من قبل ان تخلق الأنفس وما يصيبها، وان ذلك العلم السابق الذي علمه الله مما سيصيب الناس وإثباته في اللوح المحفوظ يسير على الله سهل عليه إذ انه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وما فيهما وما بينهما وهو على كل شيء قدير وبكل شيء عليم.

(١) (الميزان) ج ١٩ ص ١٩٤ نقلا عن (نهج البلاغة).

هذا ما أفادته الآية الأولى ثم يقول تعالى: (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) (والأسى هو الحزن وضده الفرح، وقوله: (لكيلا تأسوا) (اللام لام التعليل، وقد جاء معللا لمفاد الآية السابقة التي قررت ان كل ما يصيب الإنسان في الأرض وفي الأنفس مذكور وثابت في كتاب من قبل خلق النفس. وقد اخبر جل وعلا عن هذه الحقيقة تسلية لنا من هموم الدنيا وغمومها إذ ان الإنسان إذا علم علم اليقين ان المصائب التي يصاب بها في الحياة الدنيا من خير أو شر كلها مستندة إلى قضاء مقضي وقدر مقدر من حكيم عليم فتهون عليه حينئذ تلك المصائب، وقد صرح النبي (ص) بهذا المعنى حيث قال: من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب (١).

نعم. من عرف سر الله الحكيم العليم في مقاديره الحكيمة في الصالح العام تهون عليه كل مصائب الدنيا فلا يحزن على ما فاته منها ولا يفرح فرحا يبطره ويطغيه على ما آتاه الله بل يسلم أمره في ذلك كله إليه تعالى ولقد أجاد الشاعر الحكيم العارف حيث قال: واترك الهم ودع عنك الفكر كل شيء بقضاء وقدر. سلم الأمر إلى رب البشر لا تقل فيما جرى كيف جرى.

(١) (مفاتيح الغيب) ج ٨ ص ١٠١.

التحقيق في القضاء والقدر وعدم الجبر
ولا تتوهم بأن معنى: (كل شئ بقضاء وقدر) ان الخلق مجبورون على كل فعل يفعلونه
سواء كان خيرا أو شرا وان الحوادث التي يلاقونها في أطوار حياتهم من قتل وجور
وظلم قد خلقها الله وفعلها فيهم لأن هذا ينافي العدل والحكمة بل المراد من علاقة
القضاء والقدر بالعباد هي من جهة علاقة علمه جل وعلا بما سيكون من أمرهم فكتب
على هذا انه سعيد لأنه عالم بسابق علمه الذاتي انه سيتجه - بما خلق فيه من قوة الفعل
- إلى فعل الخير فيسعد وكتب على الآخر أنه شقي لأنه عالم بسابق علمه أنه سيتجه -
بما خلق فيه من قوة الفعل - إلى فعل الشر فيشقى.
ولتوضيح ذلك كله نقول: ان الله تبارك وتعالى أودع في العبد قوة الفعل أي القدرة
على الأعمال كلها خيرا وشرها وبين له في كتابه الكريم بقوله: (ونفس وما سواها
(٧) فألهمها فجورها وتقواها ([الشمس / ٨ - ٩]، وقال تعالى: (وهديناه النجدين
[البلد / ١١]، أي بينا له طريقي الخير والشر، وبعد أن منحه قوة الفعل والعمل وبين له
الطريقين بعد ذلك ترك له حرية الاختيار، فتكون قوة فعل الخير والشر مخلوقة في
الإنسان وهي من فعل الله وقدرته ويكون الاختيار للإنسان فيما يختار أو يريد، ومثال
ذلك ان في اليد قوة الحركة وعضو اليد سبب فاعل لها وهذا من خلق الله وقدرته
ولكن هل تتحرك اليد للإحسان أو للإساءة، للنفع أو للضرر، للخير أو للشر؟
ان هذا متروك لاختيار العبد نفسه والله عالم بسابق علمه بما سيتجه إليه العباد في أطوار
حياتهم وما يلاقونه من رخاء وبلاء وسعادة وشقاء

وأثبت ذلك في اللوح المحفوظ، هذا من جهة ومن جهة أخرى ان علاقة القضاء والقدر بالعباد هي انهم وإن كانوا مختارين يفعلون ما يريدون من خير أو شر ليكون الجزاء لهم طبق ما صدر منهم، ولكن ذلك لا يقع منهم إلا بمقدار ما أراد الله وقوعه لا أكثر ولا أقل، مثلاً قد يشاء الإنسان ان يفعل بعض الجرائم والله لا يريد وقوع تلك الجرائم فيحول جل وعلا بينه وبين ما يريد القيام به فلا تقع منه وقد لا يحول بينه وبين ذلك حتى يقترب الإنسان تلك الجرائم باختياره وتقع منه بالفعل ذلك لأن مشيئة الله وإرادته هي المهيمنة والمسيطرة على إرادة العبد والسابقة لها كلها كما قال تعالى: (وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً) [الدھر / ٣١]، فما شاء الله وقوعه في هذا الكون الواسع وقع بالفعل سواء مما كونه الله أو شرعه أو مما فعله الإنسان وصنعه من خير أو شر وكله مسجل عند الله في لوحه المحفوظ وإليه الإشارة في هذه الآية الكريمة التي هي موضع البحث: (ما أصاب من مصيبة في الأرض (كقحط المطر وقلة النبات ونقص الثمر أو زيادتها، (ولا في أنفسكم) كالفقر والمرض ونقص في الأولاد أو بعكس ذلك، (إلا في كتاب (أي إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ، (من قبل أن نبرأها (أي من قبل أن نخلق الأنفس أو ما يصيبها، (إن ذلك على الله يسير)، (لكيلا تأسوا على ما فاتكم (أي أخبرنا كم بإثبات تلك المصائب في اللوح المحفوظ لئلا تحزنوا على ما يفوتكم من نعم الدنيا وما يصيبكم فيها، والمراد من الحزن في هذه الآية انما هو الحزن الذي يهلك الأنفس ويذهل عن الثواب المعد لها الذي ينافي الصبر والتسليم لأمر الله أما غير هذا من التأثير النفسي وجريان الدموع وسائر ما يصيب المؤمنين من التأثيرات النفسية العديدة فإنه لا مانع منه.

ومن هنا لما قبض إبراهيم ابن النبي (ص) وهو إذ ذاك صبي صغير، مشى النبي في جمع من أصحابه خلف جنازته وشوهد وهو يبكي ودموعه تجري على خديه فقيل له: أو تبكي يا رسول الله؟ فقال: نعم تدمع العين ويحترق القلب ولا نقول ما يسخط الرب، وأنا بك يا إبراهيم لمحزونون (١).

الأمر المسلية للإنسان فيما يصيبه من الابتلاءات

ويمكن أن يصبر صاحب المصيبة نفسه ويسليها بدفع الحزن عنها المهلك لها بأمر كثيرة منها أن يفكر أولاً في أنه حزن أو لم يحزن فإن المصيبة قد نزلت به وقد تلقاها ولا محيص له عنها وان شأن الدنيا ان تسر وتسى وما غير الصبر من أمر متعين للعاقل، يقول الإمام موسى بن جعفر (ع): إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور. إلى هذا يشير بعض الشعراء حيث يقول:

وإلا فاتك الأجر فلا ذاك ولا هذا.

إذا حل بك الأمر فكن بالصبر لو اذاً.

وقال الآخر:

فلياليك حكمها أن تجورا نوبا تارة وطورا سرورا.

ان تكن جازعا لها أو صبورا يصحبك الضدين ما دمت حيا.

(١) (إقناع اللائم) للسيد محسن الأمين العاملي ص ٤٧ و ٤٨ نقلا عن البخاري في صحيحه، وعن ابن ماجة في سننه.

ومن الأمور المسلية للنفس أن يعلم بأن ما أصيب به أو ما فاته في الدنيا يعوضه الله عليه في الآخرة ويثيبه عليه ومن هنا يقال لصاحب المصيبة: أعظم الله لك الأجر، أي أعطاك الله من الأجر أكثر وأعظم مما أصبت به وذلك أن الابتلاءات في الدنيا - للمؤمنين - لا تخلو من فائدة وفائدها أما ان تكون سببا لتكفير سيئاته أو زيادة لحسناته أو رفعا لدرجاته، وإلى هذا يشير القرآن المجيد بقوله: (وليلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم) [الأنفال / ١٨].

ومن الأمور المسلية للإنسان أيضا أن يعلم ان جميع ما في عالم الدنيا من حيوان ونبات وجماد هو في معرض الفناء والزوال وليس فيها شيء يقبل البقاء. فتزود لما إليه المصير.

كل شيء إلى الفناء يصير.

وان زخارف هذه الدنيا متنقلة ما بين الناس على سبيل التناوب والتبادل ومثلها كمثله شمامة تدار في مجلس بين أهله على التناوب يتمتع بها في كل لحظة واحد منهم ثم يعطيها لغيره، فمن حزن على ما فاته من الدنيا يكون مثله كمن يحزن على استرجاع تلك الشمامة منه بعد أن وصلت إليه نوبة الاستمتاع بها، وإلى هذا يشير بعض الأدباء: ولا بد يوما ان ترد الودائع.

وما المال والأهلون إلا ودائع.

فلا ينبغي للعاقل ان يحزن ويهتم من أجل رد الوديعة إلى أهلها:

والعوارى مستردة ورخاء بعد شدة.

انما الدنيا عوارى شدة بعد رخاء.

وقال الآخر:

تأمل في ألم نشرح لا تحزن ولا تفرح.

إذا ضاقت بك الدنيا تجد عشرين مع يسرين.

قال تعالى: (فإن مع العسر يسرا (٥) إن مع العسر يسرا) [الانشراح / ٦ - ٧].

فإذا فكر العاقل في هذه الأمور وغيرها لتسليية نفسه زال عنه الحزن المهلك للنفس المضر لصحتها والمذهل عن الثواب والمنافي للصبر والتسليم لأمر الله والذي نهى الله عنه بقوله تعالى: (لكيلا تأسوا على ما فاتكم .)

ثم قال تعالى: (ولا تفرحوا بما آتاكم) (وهذا الفرح المنهي عنه - كما مر - هو الفرح

المطغي للإنسان الملهي له عن الشكر لله عز وجل، ودليل ذلك قوله تعالى في خاتمة

الآية: (والله لا يحب كل مختال فخور) (فدل بهذا المعنى على انه ذم الفرح الذي

يختال فيه صاحبه ويبطره، ومما لا ريب فيه ان الله لا ينهى ولا يبغض إلا عن هذا

الفرح الذي يؤدي إلى البطر والفخر والخيلاء لأن ذلك يؤدي الفقراء أولا الذين يعانون

ألم الفقر ويؤدي إلى الاستهتار في النعمة وعدم الحيطة من

صروف الزمان ثانياً، كما يؤدي إلى سوء الأخلاق من التناول على الناس والعجب والخيلاء بل يؤدي إلى الكفر والطغيان.
أنظر إلى يزيد بن معاوية لما أقبلت الدنيا عليه - بعد قتل الحسين (ع) - كيف تناول وكيف أعجب بنفسه حتى صار يفتخر على الحسين وذلك حين وضع رأس الحسين بين يديه، قال مخاطباً أهل مجلسه وهو يشير إلى الرأس الشريف: ان هذا كان يفتخر علي ويقول: أبي خير من أبي يزيد وأمي خير من أم يزيد وجدي خير من جد يزيد وأنا خير منه، وهذا هو الذي قتله.

أقول: حاشى سيد شباب أهل الجنة ان يفتخر على مثل يزيد الخمور والفجور، ولكن طغيانه وطيشه وغروره جعله يفتعل الأكاذيب ليخدع بذلك نفسه وأهل مجلسه، ثم أخذ بزعمه يرد على الحسين ادعاءه فقال: أما قوله: أمي خير من أم يزيد، فلعمري لقد صدق فإن فاطمة بنت رسول الله (ص) خير من أمي، وأما قوله: جدي خير من جده فليس لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر يقول: انه خير من محمد (ص)، وأما قوله: بأن أبي خير من أبي يزيد فلقد حاج أبي أباه فقضى الله لأبي على أبيه، وأما قوله: بأنه خير مني فلعله لم يقرأ هذه الآية: (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) [آل عمران / ٢٧].

نعم. هكذا يبلغ الطغيان عند الإنسان الظلوم إذا أقبلت الدنيا عليه يحسب ويتخيل أنه محبوب عند الله بحجة ان الله قد آتاه السلطان والملك وانه أعزه بذلك في حين ان الدنيا لو كانت تساوي عند الله جناح ذبابة أو

بعوضة لما سقى منها كافرا شربة ماء، حسب قول الرسول الأعظم (ص)، فيزيد يرى نفسه ان الله قد أعزه وأصفى له الملك والسلطان بعد قتل الحسين (ع)، لذلك طغى وبغى ولم يلتفت إلى ان ما قاله ليس هو تأويل الآية الصحيح كما تجاهل ان الملك الذي يمدح عليه الإنسان إذا كان بالاستحقاق والعدل لا بالظلم والجور وان الله انما يعز من يشاء بالطاعة ويذل من يشاء بالمعصية ولكن من يستطيع - في تلك الساعة - ان يقوم له ويرد عليه هذا التوهم الباطل والحسبان المزيف.

نعم قامت له في الحال عقيلة قريش الصديقة الصغرى زينب الكبرى فكسرت الفقار من ظهره وألجمته حجرا بخطبتها الرائعة حيث قالت (ع):

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين، صدق الله سبحانه حيث يقول: (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون) [الروم / ١١] أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى ان بنا على الله هوانا وبك عليك كرامة، وان ذلك لعظم خطرك عنده فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسرورا حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، فمهلا مهلا لا تطشن جهلا أنسيت قول الله تعالى: (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرا لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين) [آل عمران / ١٧٩] ... الخ (١).

(١) راجع المصدر السابق، مقتل الحسين ص ٦٤ ج ٢.

الاستشفاء التفصيلي بالآية الكريمة
(ويسألونك عن المحيض قل هو أذى)
قال عز من قائل في محكم كتابه المجيد: (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى
فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث
أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) [البقرة / ٢٢٣].

١ - السبب في نزول الآية الكريمة

تشتمل هذه الآية الكريمة من سورة البقرة على بحوث البحث الأول في سبب نزولها، والذي يستفاد من أقوال المفسرين والمحدثين هو ان الناس كانوا.. في أمر المحيض على مذاهب شتى، فكانت اليهود تشدد في أمره حيث كانوا إذا حاضت المرأة يفارقونها مفارقة تامة في كل شئ في المأكل والمشرب والمجلس والمضجع حتى أنهم يخرجونها من بيوتهم أيام حيضها، وقد جاء في سفر اللاويين في الفصل الخامس عشر من التوراة التي عندهم المسماة بالعهد القديم وفيه تقول توراتهم: ان كل من مس الحائض في أيام طمثها يكون نجسا، وكل من مس فراشها يغسل ثيابه بماء ويستحم ويكون نجسا إلى المساء، وكل من مس متاعا تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء، وان اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه، يكون نجسا سبعة أيام، وكل فراش يضطجع عليه يكون نجسا سبعة أيام (١)، أقول: هذه النصوص نفسها تدلنا بوضوح على تزييفها وبطلانها، إذ هي مخالفة للأذواق السليمة، ولما اتفق عليه عقلاء العالم، ومخالفة لقول الفقهاء، المتفق عليه: جاف بجاف طاهر بلا خلاف.

كما ان هذه النصوص تدلنا أيضا على تحريف التوراة التي عندهم، وانها ليست التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى بن عمران (ع) لأن ما

(١) نقلنا هذه النصوص بواسطة (مواهب الرحمن) للسيزواري، ج ٣ ص ٣٢٩ و (تفسير المراغي)، ج ٢ ص ١٥٥.

انزل الله على رسوله لا يخالف العقل السليم والذوق المستقيم. ولا يجعل الحائض أيام
حيضها منبوذة محقرة.

تعالى الله سبحانه عن مثل هذا التشريع الظالم للزوجين.
والغرض ان اليهود كانوا يشددون في أمر المحيض هذا التشدد الشائن والعجيب
الغريب.

وأما النصارى فكانوا بالعكس من ذلك حيث يتهاونون في أمور المحيض، ولم يكن
عندهم ما يمنع من الاجتماع بهن والاقتراب منهن ومقاربتهن بالجماع أيام حيضهن.
وأما المشركون من العرب فمنهم من تبع اليهود بالتشدد في أمر معاشرتهن، ومنهم من
تبع النصارى حيث كانوا يستحبون إتيان النساء في المحيض، ويعتقدون ان الولد -
الذي يتكون أثناء المحيض - سيصير سفاحا ولوعا في سفك الدماء وذلك مستحسن
عند أهل العشائر من البدويين.

أما الإسلام فقد أخذ في أمر المحيض طريقا وسطا - بين التشديد التام الذي عليه
اليهود ومن تبعهم من العرب، وبين الإهمال المطلق الذي عليه النصارى ومن تبعهم من
بعض العشائر من البدويين. وهو المنع عن إتيان النساء في محل الدم أثناء الحيض فقط
والأذن فيما دون ذلك.

وقد ورد عن انس بن مالك ان بعض الصحابة سأل رسول الله (ص) عن ذلك - ويقال:
ان السائل يقال له ثابت بن الدحداح فأنزل الله على رسوله هذه الآية الكريمة:
(ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا

النساء في المحيض (وقال رسول الله (ص) بعد نزول الآية مفسرا لهم اعتزال النساء في المحيض بقوله: جامعوهن في البيوت، واصنعوا كل شئ إلا النكاح، (أي أثناء الحيض).

٢ - اشتمالها على كشف نواحي علمية حديثة
وقد اشتملت هذه الآية الكريمة من سورة البقرة على كشف نواحي علمية صحية نشير إليها أثناء هذا البحث فنقول: نهى الشارع المقدس في هذه الآية المباركة الرجال عن اقتراب النساء حال حيضهن وأمرهم باعتزالهن أي عدم مقاربتهن أثناء الحيض بالجماع، إرشادا لهما معا ولصالحهما وصحتهما، وذلك لما يعلم جل وعلا - وهو العليم الحكيم - بما ينجم من أضرار بذلك الاقتراب وما ينتج من أمراض مؤذية له، وإليك البيان.

منشأ تولد الحيض بنظر الطب الحديث
يقول الطب الحديث في منشأ وكيفية تولد الحيض بعد الاكتشاف العلمي تولد الأنثى - من الناس - وفي مبيضها نحو سبعين ألف حويصلة، وفي كل حويصلة منها بويضة، وتبلغ هذه البويضات الكثيرة حد النضج عندما تصل الأنثى إلى سن البلوغ، وعند ذلك تنفصل هذه البويضة من الحويصلة إلى الرحم، فتتكمش جدران الحويصلة بعد فراقها، وتبقى البويضة داخل الرحم تنتظر الحيوان المنوي، أما الحويصلة فتكون فيها خلايا جديدة تكون فيها مادة صفراء بدلا عن البويضة، فإذا اتحدت هذه البويضة مع الحيومن المنوي وحصل اللقاح كان الحمل، وإذا لم تتحد

وخصبت في الرحم، انكمش ذلك الجسم الأصفر في الحويصلة، وتآكلت خلاياها وتمزق الغشاء المخاطي المبطن للرحم ثم ينفصل هذا الغشاء الممزق عن الرحم، ويحصل من ذلك نزيف في الأوعية الدموية مصحوبا بإفراز الغدد الداخلية مع بقايا الأنسجة الممزقة مع ذلك الماء الأصفر. وهذا هو الحيض وهذه كيفية تكونه (١). وقد ثبت طبيا بأن هذه المواد المفترزة بصورة الحيض هي مواد سامة يجب أن تخرج وإلا سممت الرحم وأمراض الأنثى، وهذا هو المراد من قوله تعالى: (قل هو أذى) والأذى هو كل ما يصيب الإنسان من مكروه في نفسه وجسمه. وبصورة أوضح يقول الطب الحديث: ان إفرازات الجسم على نوعين، نوع له فائدة للجسم مثل الإفرازات الداخلية التي تساعد على الهضم والتناسل والإفرازات الأخرى التي تنظم أجهزة الجسم وأنسجته، ومنها الدم الذي يجري في العروق كما يجري الماء في الأنابيب يقول الإمام الصادق (ع) ما معناه: ان الكبد ينفذ الدم إلى البدن كله في مجار مهياة لذلك، بمنزلة المجاري التي تهيأ للماء ليترد في الأرض كلها (٢). وهذا

(١) راجع كتاب (القرآن والطب الحديث) ص ٨٩ بتصريف إيضاحي.

النوع من الإفرازات يسمى (سكريشن) وهو ضروري للحياة وليس فيه ضرر ولا أذى. ونوع آخر من الإفرازات ليس له فائدة، بل هو بالعكس يضر بقاؤه في الجسم ويجب طرده إلى الخارج إذ هو مكون من مواد سامة مضرّة ويسمى هذا النوع من الإفرازات (أكسر كريشن) وهذه المواد إذا بقيت في الجسم أضرت به وذلك مثل البول، والبراز، والريح والعرق، ومنها (الحيض)... الخ.

وقد جعل الله - بقدرته الباهرة - لهذه الإفرازات الضار بقاؤها في الجسم - من خارج تخرج منه عند حدوثها وتكونها في الإنسان لسلامته منها. فالآية الكريمة أعلنت للإنسان قبل ان يعرف أنواع تلك الإفرازات النافع منها والضار - أعلنت له ان المحيض (أذى) وانه لا يفيد الجسم، وهي معجزة علمية أخرى للقرآن المجيد.

أما قوله تعالى: (فاعتزلوا النساء في المحيض) والمراد من الاعتزال هنا عدم مقاربتهن بالجماع معهن، فقد منع الطب الحديث مخالطة المرأة ومقاربتها في زمن الحيض لأنه ضار بالزوج والزوجة كليهما، فإن هذا الدم الفاسد الذي هو أذى على حد تعبير القرآن الكريم يحوي ميكروبات عديدة وجراثيم منوعة لا تلبث ان تصيب

الرجل فتحدث له الالتهابات الفتاكة في أعضائه التناسلية، وقد تتورم وتتقرح ولا سيما مجرى البول، وقد تنتقل تلك الميكروبات إلى المثانة والحالبين والكلى، كما أن ماء الرجل لا بد وأن يفسد فور نزوله واختلاطه مع دم الحيض الفاسد وإذا فسد أضر بهما معا، كما أن المرأة تحتقن عندها الأعضاء التناسلية وأغشيتها التناسلية حال الحيض وإذا حصل الجماع اشتد الاحتقان وقد يحدث عندها التمزق لتلك الأغشية فنتشر العدوي من الميكروبات الموجودة وتنتقل من مكان الرحم إلى أمكنة ابعدها مما يؤثر في صحتها، كما ان المقاربة ربما منعت نزول الحيض ويسبب ذلك عليها الاضطراب العصبي واختلال الدورة الحيضية، كما ان المرأة يحدث عندها الاشمئزاز والنفور النفسي عند مقاربتها أثناء الحيض وهي صدمة نفسية يعرفها علماء النفس، وقد يحدث هذا الاشمئزاز والنفور عند الرجل أيضا لما يشعر في قرارة نفسه من قذارة دم الحيض فحينئذ يكون الجماع خاليا من اللذة المطلوبة، وطبيعي إذا فقدت اللذة ولم يحصل جذب المرأة لمني الرجل تماما لفقدان الشهوتين يحصل عندهما الضرر، كما يستنزف الرجل منيه دون أية فائدة لعدم تحقيق حصول الحمل غالبا، ولو أتفق أن عقد منه جنين فسوف يكون بدون شك - غير صحيح جسما وروحا وعقلا وأخلاقا ولعل لهذا السبب يقال: فلان ابن حيضة.

وعلى كل أمر الله الرجال باعتزال النساء وعدم مقاربتهم بالجماع أثناء الحيض تحريما باتا بالإجماع عند جميع المسلمين، وإذا خالف الرجل هذا الحكم وقارب زوجته أثناء الحيض فعليه ان يتوب إلى الله عز وجل، وان يؤدي الكفارة ومقدارها يختلف باختلاف زمان الوطء ذلك لأن أيام الدم - عند الفقهاء - تنقسم إلى ثلاثة أقسام فإذا كان الوطء في القسم الأول

فكفارته ثماني عشرة حبة من الذهب المسكوك، وإذا كان في القسم الثاني فهي تسع حبات منه، وإذا كان في القسم الثالث فأربع حبات ونصف وتجزى قيمة الذهب منه بالنقود المتداولة في وطنه، ويعبر بعض الفقهاء عن هذا المقدار بدينار في أوله ونصف دينار في وسطه، وربع في آخره، يتصدق به عينا أو قيمة.

وأيام الحيض أقله ثلاثة أيام متوالية، وأكثره عشرة أيام على تفصيل في الكتب الفقهية، وما نقص عن الثلاثة أو زاد عن العشرة فليس بحيض عند الشيعة الإمامية، وعند الإمام أبي حنيفة، ويؤيده ما رواه السيوطي في (الدر المنثور) عن أبي أمامة عن النبي (ص) انه قال: أقل الحيض ثلاث وأكثره عشر، وفي حديثين آخرين عن أنس وعن عبد الله بن مسعود ان النبي (ص) قال: الحيض ثلاث وأربع وخمس وست وسبع وثمان وتسع وعشر فإن زاد فهو استحاضة (١).

أما وطؤها بعد انقطاع الدم قبل الغسل فجائز ولكن الأحوط ان يكون بعد غسل الفرج، وأحوط منه ان يكون بعد الغسل، ولذلك تقول الآية الكريمة: (ولا تقربوهن حتى يطهرن) (أي حتى ينقطع عنهن الدم وهو الطهر بعد الحيض، وقوله تعالى: (فإذا تطهرن) (أي يغسلن محل الدم على قول، أو يغتسلن على قول آخر وهو الأحوط والغسل من الحيض واجب كسائر الأغسال الواجبة عند الجميع وبلا خلاف.

أما قوله تعالى: (فأتوهن من حيث أمركم الله)

(١) (الدر المنثور) ج ١ ص ٢٥٨.

هذا أمر من الله تعالى ولكنه يفيد الإباحة والجواز لا الوجوب لوقوعه بعد الحضرة، أي المنع، وهو كناية عن الأمر بالجماع على ما يليق بالقرآن من الأدب الإلهي البارع، حيث ان القرآن يعبر عن الجماع بألفاظ جميلة كلفظ الإتيان، والمباشرة، والقرب، والمس، واللمس... الخ / والأمر هنا - على الظاهر - هو الأمر التكويني المدلول عليه بتجهيز الإنسان بالأعضاء والقوى الهادية إلى التوالد والتناسل نظير قوله تعالى في (سورة البقرة): (فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله ([البقرة / ١٨٨]، ويؤيده ما رواه الشيخ الطوسي في التهذيب عن عبد الله بن أبي يعفور عن الإمام الصادق (ع) في قوله تعالى: (فأتوهن من حيث أمركم الله (قال: هذا في طلب الولد، فاطلبوا الولد من حيث أمركم الله، ان الله يقول: (نساءؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم (وقد استدل بعض المفسرين بهذا النص، (فأتوهن من حيث أمركم الله (على حرمة إتيان النساء من أدبارهن، ويرده العلامة الأستاذ السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسيره (الميزان) بقوله: وهو من أوهن الاستدلال وأردئه... الخ.

٣ - التحقيق في إتيان النساء في أدبارهن

وموضوع إتيان النساء من أدبارهن سواء كان أيام حيضهن أو في غير تلك الأيام - هو من المواضيع المختلف فيها بين الفقهاء والمفسرين من أهل السنة أنفسهم ومن الشيعة أنفسهم، ومن أهل السنة والشيعة، وان كان الجميع متفقين على كراهته الشديدة، ولكن منهم من يوصل هذه الكراهة إلى حد الحرمة، ومنهم من يفتي بجوازه على الكراهة فقط.

وسبب هذا الاختلاف هو الاختلاف في الأخبار الواردة في هذا الباب والاختلاف المفهوم من أدلة الآية الواردة في هذا الباب وهي: (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين ([البقرة / ٢٣٤] فمن فقهاء أهل السنة من يفتي بجواز الإتيان من الدبر كمالك بن أنس - إمام المالكية - استنادا إلى روايات عديدة من طرق عديدة عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعن أبي سعيد الخدري في جواز إتيان المرأة من دبرها، راجع تلك الروايات في تفسير (الدر المنثور) (١).

ونقل السيوطي عن الدارقطني انه قال: هذا ثابت عن مالك، (أي إتيان المرأة من دبرها) وقال ابن عبد البر: الرواية عن ابن عمر بهذا المعنى صحيحة معروفة عنه مشهورة.

كما نقل السيوطي عن الخطيب في رواية مالك عن أبي سليمان الجوزجاني قال: سألت مالك بن أنس عن وطء الحلائل في الدبر فقال لي: الساعة غسلت رأسي منه (٢) ومعنى هذا انه جائز عنده وإلا لما استعمله هو بنفسه، ودليلهم على ذلك بالإضافة إلى تلك الروايات الآية الكريمة: (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) حيث يفسرون الإتيان إلى المرأة من القبل والدبر، بل يقولون: ان الآية نازلة في ذلك، فقد نقل السيوطي عن إسحاق بن راهويه في مسنده، وعن البخاري، وابن جرير عن نافع قال: قرأت ذات يوم (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم)

(١) (الدر المنثور) ج ١ ص ٢٦٥ - ٢٦٧.

(٢) (الدر المنثور) ج ١ ص ٢٦٦.

قال ابن عمر أتدري فيم أنزلت هذه الآية؟ قلت: لا، قال: نزلت في إتيان النساء في أدبارهن، وفي رواية ثانية قال: ان شاء في قبلها وان شاء في دبرها، وفي رواية ثالثة قال: أنزلت الآية رخصة في إتيان الدبر وعن الدار قطني بسند عن نافع قال: قال لي ابن عمر أمسك علي المصحف يا نافع فقرأ حتى أتى علي: (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال: تدري يا نافع فيم نزلت هذه الآية؟ قلت: لا، قال: نزلت في رجل من الأنصار أصاب امرأته في دبرها، فأعظم الناس ذلك، فأنزل الله: (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) قلت له: من دبرها في قبلها؟ قال: لا، إلا في دبرها. إلى غير ذلك من الروايات فراجع (١).

وكان الإمام الشافعي يذهب إلى هذا الرأي ويحاج فيه، فقد نقل السيوطي عن الطحاوي، والحاكم في مناقب الشافعي، والخطيب عن محمد بن عبد الله بن الحكم ان الشافعي سئل عنه، فقال: ما صح عن النبي (ص) في تحليله ولا تحريمه، والقياس انه حلال.

وأخرج الحاكم عن ابن عبد الحكم: ان الشافعي ناظر محمد بن الحسن في ذلك، فأحتج عليه ابن الحسن بأن الحرث، انما يكون في الفرج، فقال له الشافعي: فيكون ما سوى الفرج محرماً فالتزمه، ثم قال: رأيت لو وطئها بين ساقها أو في اعكائها أفي ذلك حرث؟ قال: لا، قال: فكيف

(١) و (٢) (الدر المنثور) ص ٢٦٦ - ٢٦٧ من الجزء الأول.

تحتج بما لا تقول به؟ قال الحاكم: لعل الشافعي كان يقول ذلك في القديم، وأما في الجديد فصرح بالتحريم (٢).

نعم الإمام أبو حنيفة، والإمام الشافعي - في قوله الأخير - والإمام أحمد يحرمون ذلك وهو مشهور عند إخواننا أهل السنة، حتى ان بعضهم جعله على حد الكفر استنادا إلى ما رووه عن أبي هريرة عن النبي (ص) انه قال: من أتى شيئا من الرجال والنساء في الأدبار فقد كفر. وفي رواية أخرى عنه: انه ملعون (١) أما فقهاء الشيعة فمنهم من يحرمه كالسيد محسن الحكيم، وأبو القاسم الخوئي، والسيد عبد الأعلى السبزواري وعبارتهم في رسائلهم العملية يقولون: أما وطؤها في الدبر فالأحوط وجوبا تركه (٢). ويقول السيد أبو الحسن الأصفهاني، والسيد حسين الحمامي: وأما الوطء في الدبر فالأحوط اجتنابه (٣).

ويقول الشيخ بشير النجفي: ويحرم عليها وعلى زوجها الاتصال الجنسي - الجماع - من القبل والدبر ما دام الدم مستمرا (٤) ويقول الشيخ مرتضى آل ياسين: وفي جواز وطئها في الدبر وجهان أحوطهما عدم، أي عدم الجواز (٥). وأستدل هؤلاء الفقهاء على هذا الاحتياط الوجدوبي... بعدة أحاديث واردة عن النبي (ص) وأهل بيته الأطهار.

(١) المصدر السابق ص ٢٦٤.

(٢) راجع (منهاج الصالحين) للحكيم ص ٤٨ والخوئي ص ٦٥ والسبزواري ص ٥٥.

(٣) (وسيلة النجاة) للسيد أبو الحسن ص ٤٨، و (هداية المسترشدين) للحمامي ص ٣٥.

(٤) (الدين القيم) للشيخ بشير ص ٨٣.

(٥) (بلغة الراغبين في فقه آل ياسين)، ص ٢٦.

فمن تلك الأحاديث:

- ١ - ما رواه الكليني في (فروع الكافي)، والشيخ الطوسي في (التهذيب) عن سدير قال: سمعت أبا جعفر (ع) (أي الإمام الباقر (ع)) يقول: قال رسول الله (ص):
محاشي أمتي على رجال أمتي حرام (١)، والمراد من المحاشي الأدبار.
- ٢ - وروى العياشي في تفسيره عن معمر بن خلاد عن أبي الحسن الرضا (ع) انه قال:
أي شيء يقولون في إتيان النساء في أعجازهن؟ قلت: بلغني ان أهل المدينة لا يرون به بأس (ويعني بأهل المدينة مالك بن أنس وجماعته) قال (ع): ان اليهود كانت تقول:
إذا أتى الرجل زوجته من خلفها - في قبلها - خرج ولده أحول، فأنزل الله: (نساءكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم)، يعني من خلف أو قدام خلافا لقول اليهود، ولم يعن في أدبارهن.
- ٣ - وعن الحسن بن علي عن أبي عبد الله (ع) مثله (٢).

(١) راجع (وسائل الشيعة) للحر العاملي كتاب (النكاح) ج ٧ ص ١٠٠ نقلا عن (الكافي) للكليني و
(التهذيب) ج ٢ ص ٢٣٠
(٢) و (٣) (تفسير العياشي) ج ١ ص ١١١.

٤ - وعن صفوان بن يحيى عن بعض أصحابنا قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله: (نساءؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) فقال: من قدامها ومن خلفها في القبل.

٥ - وعن زرارة عن أبي جعفر (ع) مثله أيضا، قال: من قبل (٣).

٦ - وعن أبي بصير عن أبي عبد الله (ع) قال: سألته عن الرجل يأتي أهله في دبرها فكره ذلك، وقال: إياكم ومحاشي النساء، وقال: وأما معنى: (نساءؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) (أي أنى ساعة شئتم). ومعنى هذا ان الإمام فسر كلمة (أنى) بأنها ظرفية زمانية (١)، لا مكانية.

٧ - وعن الفتح بن يزيد الجرجاني قال: كتبت إلى الرضا (ع) في مثله فورد منه الجواب: سألت عن من أتى جاريتته في دبرها، والمرأة لعبة الرجل لا تؤذي، وهي حرث كما قال الله تعالى.

٨ - ومثله عن الإمام الصادق (ع) قال: هي لعبتك فلا تؤذيها (٢) أما من أفتى من فقهاء الشيعة بجواز إتيان الرجل زوجته من دبرها على كراهة فقط دون الحرمة فيستندون بأحاديث أخرى تدل على الجواز مع الكراهة فمن تلك الأحاديث ما رواه الكليني في (الكافي) بسنده عن صفوان قال:

٩ - قلت للإمام الرضا (ع) ان رجلا من مواليك أمرني أن أسألك عن مسألة فهابك واستحيا منك ان يسألك عنها، قال: ما هي: قال: قلت الرجل

(١) و (٢) (تفسير العياشي) ج ١ ص ١١١.

يأتي امرأة في دبرها، قال نعم ذلك له، قلت: وأنت تفعل ذلك قال: لا أنا لا أفعل ذلك (١).

١٠ - وروى الشيخ الطوسي من طرق عديدة عن ابن أبي يعفور قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن الرجل يأتي المرأة في دبرها، قال: لا بأس إذا رضيت، قلت: فأين قول الله عز وجل: (فأتوهن من حيث أمركم الله ؟) قال: هذا في طلب الولد، فاطلبوا الولد من حيث أمركم الله عز وجل ان الله عز وجل يقول: (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) (٢).

أقول: ومن هنا يعلم ان من يفتي بجواز الإتيان من الدبر على كراهة يشترط رضا الزوجة وإلا فلا يجوز.

١١ - وفي حديث سأل رجل أبا الحسن الرضا عن إتيان الرجل المرأة من خلفها فقال: أحلتها آية من كتاب الله وهي قول لوط: (هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) ([هود / ٧٩]، وقد علم انهم لا يريدون الفرج (٣).

١٢ - وفي حديث عن ابن أبي يعفور سألته عن إتيان النساء في أعجازهن، فقال: ليس به بأس، وما أحب ان تفعله ورواه العياشي ج ١ ص ١١٠ وزاد فيه ثم تلى: (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم .)

(١) (وسائل الشيعة) ص ١٠١ نقلا عن (الكافي) ج ٤ ص ٦٣.

(٢) راجع (الوسائل) نقلا عن (الكافي) و (التهذيب) وغيرهما.

(٣) راجع (الوسائل) نقلا عن (الكافي) و (التهذيب) وغيرهما.

١٣ - وروى العياشي عن زرارة عن أبي جعفر في قوله تعالى: (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال: حيث شاء.

والمستفاد من مجموع هذه الأحاديث الواردة من طرق الجميع خاصة وعمامة، ومن مفهوم الآيتين الكريمتين وغير ذلك ان ترك الإتيان من الدبر هو الأحوط - كما يصرح الكثير من علمائنا - والاحتياط هو طريق النجاة.

وأنا أنصح المؤمنين الملتزمين بترك هذا العمل غير المستحسن عند جميع الفقهاء والعلماء ولا سيما عند الأئمة الأطهار وسائر العقلاء، وهذا ما تيسر لنا من التحقيق حول الموضوع، ومن أراد التحقيق حول خصوص الآيتين آية المحيض، وآية الحرث فعليه بالرجوع إلى تفسيري (الميزان للطباطبائي) و (مواهب الرحمن للسبزواري) والله ولي التوفيق.

٤ - حب الله للتوايين والمتطهرين

البحث الرابع من بحوث آية المحيض في قوله تعالى: (إن الله يحب التوايين ويحب المتطهرين) (والحب للشيء وعدم حبه صفة من صفات الله الفعلية، لا الذاتية، أي انها من صفات الأفعال لله لا من صفات الذات (١) ولذلك تتغير بتغيير حال الغير، فالله تعالى يحب المؤمنين إذا آمنوا ويغض الكافرين إذا كفروا، ويحب المطيعين عند إطاعتهم ويغض العاصين عند معصيتهم، ويحب التوايين حال توبتهم ويغض المصرين

(١) راجع الفرق بين صفات الذات وصفات الأفعال في كتابنا (الحقائق الكونية) ج ١ ص ١١٥ البحث الثاني من بحوث البداء تحت عنوان (علم الله من صفات الذات لا من صفات الأفعال والفرق بينهما).

على العصيان حال إصرارهم، ويحب المتطهرين إذا تطهروا ويبغض القذرين ما زالوا قذرين.. الخ.
ومعنى الحب والبغض من الله هو إيصال الأجر والثواب لمن أحب وإيصال العذاب والعقاب لمن أبغض.
والتوبة معناها اللغوي هو الرجوع بعد الانحراف، وتوبة العاصي لله هي الرجوع إليه تعالى بعد البعد عنه بفعل المعصية.
فقوله تعالى: (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) (جاء لفظ التوابين، والمتطهرين بصيغة الجمع، ومع المبالغة فيهما، والإطلاق لهما، ويستفاد من ذلك كله تعميم التوبة من جميع الذنوب صغائرهما وكبائرها، وتكرارها والإدامة عليها بالاستغفار والندم، وهكذا تعميم وحسن التطهير عن جميع القذارات الحسية وكذا المعنوية كالأخلاق الفاسدة والصفات الذميمة حتى يستحق الإنسان حسن الثواب وزيادته، ومن التوبة من إتيان النساء أثناء حيضهن، وعدم المقاربة لهن قبل ان يطهرن من ذلك الدم الفاسد القذر أو قبل ان يتطهرن بغسل الموضع والغسل من الحيض.
وانما قدم سبحانه وتعالى التوبة على الطهارة اهتماما بتطهير الروح والباطن من أدران الذنوب والمعاصي قبل الاهتمام بتنظيف الجسم الظاهر من النجاسات، والجمع بينهما لبيان أحدهما بدون الآخر لا أثر تام له، إذ لا فائدة بالتوبة تماما إذا لم يراع فيها جهات الطهارة من النجاسات وكذا العكس.

والتوبة من الذنوب، والتطهير من النجاسات المادية والمعنوية هما الدواء والشفاء من أدواء الذنوب والمعاصي ومن أدران النجاسات والقطارات فهما رحمة عظيمة من الله الرحمن الرحيم الذي جعل لكل داء دواء ولكل مرض شفاء، فهنيئاً لمن (وضع دواء القرآن على داء قلبه) وعمل بما فيه فتوبوا عباد الله فالتوبة تنفع واعملوا الصالحات فان العمل يرفع، والله الموفق للصواب، وبهذه الآية الكريمة - آية المحيض - وبحوثها نختتم بحوث الآيات القرآنية المتعلقة بصحة الأبدان.

ومن أراد الاطلاع على آيات أخر في المقام فليرجع إلى كتاب (القرآن والطب الحديث) لمؤلفه الجليل فضيلة العلامة الكبير المرحوم الشيخ محمد الخليلي (ره) الذي أصدرته ونشرته (جمعية الرابطة الأدبية) سنة ١٣٨٠ هـ ١٩٦١ م في النجف الأشرف، ويحتوي الكتاب على ١٢٢ صفحة وإليك محتوياته ومواضيعه.

ص ٣ كلمة الجمعية، ص ٥ تمهيد، ص ٨ ما هو القرآن، ص ١٣ كيف صار القرآن معجزة، ص ١٨ خلق الإنسان من تراب، ص ٢٣ خلق الإنسان من بين الصلب والترائب، ص ٢٧ أخذ الذرية من الظهور، ص ٣٠ تكوين الجنين في الرحم، ص ٣٩ في ظلمات ثلاث، ص ٤١ خلق الإنسان في أحسن تقويم، ص ٤٥ عظام الإنسان، ص ٤٨ إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، ص ٥٣ الرضاعة ومدتها، ص ٥٦ اللبن (الحليب)، ص ٥٩ الماء أساس الحياة، ص ٦٣ الإسراف في الأكل والشرب، ص ٧٠ البقول ولحوم الحيوانات، ص ٧٢ تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، ص ٧٨ تحريم الخمر، ص ٨٣ العسل شفاء الناس، ص ٨٨

اعتزال النساء في المحيض، ص ٩٣ تحريم الزنى في القرآن، ص ٩٨ النوم، ص ١٠٣ الصوم، ص ١٠٨ الوضوء وغسل الجنابة، ص ١١٥ التيمم بالتراب، ص ١١٩ مراجع الكتاب.

عود إلى آية الشفاء المبحوث عنها
والآن نعود إلى آية الشفاء التي ابتدأنا بها فنقول: انظر - أيها المطالع الكريم - كيف أصبح الطب الحديث يسير خلف القرآن مهتديا بهديه ويستنير بأنواره، لأنه صار يكتشف كل شئ حرمه القرآن وحرّمته الشريعة الإسلامية الغراء من أكل وشرب وغيرهما من الأمور التكوينية والاجتماعية والغرائز الجنسية فيجد المكتشفون - باكتشافاتهم - فلسفة التحريم ظاهرة ظهور الشمس في رابعة النهار لذلك قال عز من قائل: (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة).

الحكم في تقديم الشفاء على الرحمة
وهنا قدم جل وعلا الشفاء على الرحمة لحكم كثيرة وأظهرها ان الأرواح البشرية - وكذا الأجسام - مريضة بسبب العقائد الباطلة، والعبادات الفاسدة، والأخلاق الذميمة كما هو شأن المجتمع الإنساني دائما وخصوصا عند بعثه نبينا محمد (ص) وإنزال القرآن عليه حيث كانوا يومئذ في جاهلية عمياء مطبقة كما هو معلوم.
والقرآن قسمان قسم يفيد التحلية من شبهات المبطلين، وعبادات الضالين، وأخلاق الجاهلين، وشهوات المغرورين وهو الشفاء، وقسم يفيد التحلية باكتساب العلوم العالية في العقائد الحقّة، والعبادات الصحيحة

والأخلاق الفاضلة التي بها يصل الإنسان إلى جوار رب العالمين والاجتماع مع زمرة المقربين وعباد الله الصالحين: (في مقعد صدق عند مليك مقتدر (وهي الرحمة، ولما كانت إزالة الأمراض - روحا وجسما - مقدمة على موجبات الصحة لذلك وغير ذلك قدم سبحانه الشفاء، ثم اتبعه بالرحمة.

وخصهما بالمؤمنين دون غيرهم من سائر الناس لأنهم لإيمانهم بالله تعالى وبدينه وحججه المنتجبين امتثلوا أوامر القرآن وانتهوا عن نواهيه وعملوا بما فيه فصار لهم شفاء ورحمة، أما من كان مصرا على الكفر والعناد والعصيان فهؤلاء لا يلتفتون إلى أوامر القرآن ونواهيه ولا يعملون بما فيه فلا يكون لهم شفاء ولا رحمة، بل يزيدهم خسارة ونقمة كما قال الله تعالى في الآية المبحوث عنها: (ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) (أي يخسرون الثواب ويستحقون العقاب، لكفرهم به وتركهم التدبر له والتفكير فيه.

وهذا كقوله تعالى حاكيا على لسان نوح يخاطب ربه: (قال رب إنني دعوت قومي ليلا ونهارا (٥) فلم يزدتهم دعائي إلا فرارا (٦) وإنني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا) (نوح / ٦ - ٨]. فبفرارهم من دعوة الحق، ومن القرآن، وإصرارهم على الاستكبار - قطعاً - لا يزيدهم إلا الخسران والعذاب في الدارين دنيا وآخرة، والظلم لأنفسهم قبل ظلم غيرهم قال تعالى: (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) (البقرة / ٥٨) وقد كرر سبحانه وتعالى ظلم الناس لأنفسهم في

عشرات الآيات، ويقول تعالى في سورة البقرة: (والكافرون هم الظالمون) [البقرة / ٢٥٥] فالكافر ظالم سواء كان كفره صريحا بالله أو بأولياء الله ودينه، أو كان كافرا بنعم الله ومصرا على ارتكاب الجرائم والذنوب والمعاصي بلا ندم ولا توبة فهؤلاء وأمثالهم - وإن ادعوا الإسلام والإيمان أو سمعوا آيات القرآن أو تلوها لكنهم لا ينتفعون ولا يستفيدون بها لاستيلاء جرائمهم وتغلبها على قلوبهم كما قال تعالى: (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) [المطففين / ١٥] أ أي تغلب على قلوبهم أي نفوسهم ما كسبوا من الآثام، وقال تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) [محمد / ٢٥]، قال بعض المفسرين ان اعتيادهم للكفر وألفتهم المعاصي صار غطاء على قلوبهم فلا يعقلون ما ينفعهم لأن ترك النظر في العواقب وكثرة المعاصي والانهماك في الفسق والفجور يقوي الداعي في الإعراض عن التوبة والاستمرار على الذنوب. فصار ذلك هو الغالب على القلوب الرائن عليها وحينئذ تكون القلوب - والعياذ بالله - قاسية لا تحلها الهداية ولا ينفع فيها الوعظ والإرشاد قال تعالى: (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) [البقرة / ٧٥]. وقال الشاعر:

تبا لهاتيك القلوب القاسية.

قست القلوب فلم تمل لهداية.

وقد جاء في هذا المعنى - أعني الرين على القلوب - عدة أحاديث عن النبي (ص) وأهل بيته الأطهار منها ما ورد عن النبي (ص) انه قال: ان المؤمن إذا أذنب كانت (أي صارت) نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر

صقل قلبه، وان ازداد ازدادت، فذلك الذي ذكره الله تعالى في كتابه: (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .) وفي حديث آخر عن زرارة عن أبي جعفر (ع) انه قال: ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء فإذا أذنب ذنبا خرج في تلك النكتة سواد فإن تاب ذهب ذلك السواد، وان تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى تغطي البياض فإذا غطي البياض لم يرجع إلى خير أبدا وهو قول الله عز وجل: (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ((١)).

(١) راجع (الميزان) ج ٢٠ ص ٣٥٢ نقلا عن (أصول الكافي)، و (الدر المنثور) ج ٦ ص ٣٢٥ نقلا عن مصادر عديدة من الصحاح والسنن.

خاتمة الكتاب

الاستشفاء بوصفات قرآنية في الصحة والحفظ والاحتجاب
وردت عن النبي (ص) وأهل بيته الأطهار وصفات قرآنية عديدة يستشفى بها من أنواع
الأمراض والأدواء والحفظ من الأعداء فمن ذلك ما ورد عن النبي (ص) انه من قرأ هذه
الآيات كان فيها شفاء من تسعمائة وتسعين داء وهي سورة الحمد، أي الفاتحة، وأول
سورة البقرة إلى قوله تعالى: (أولئك هم المفلحون)، وآية الكرسي إلى قوله: (والله
سميع عليم)، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة من قوله تعالى: (لله ما في السماوات
وما في الأرض (إلى آخر السورة، وآية السخرة وهي قوله تعالى: (إن ربكم الله الذي
خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه
حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب
العالمين (الأعراف / ٥٥) وآيتان من آخر سورة الإسراء من قوله تعالى: (قل ادعوا الله
أو ادعوا الرحمن (إلى آخر السورة، وأول
سورة الصافات إلى قوله تعالى: (إنا خلقناهم من طين لازب (وقوله تعالى: (إن استطعتم
أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان (الرحمن /
٣٤]، وقوله تعالى: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل (إلى آخر سورة الحشر، وقوله
تعالى: (وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا (٣) وأنه كان يقول سفيها على
الله شططا (الجن / ٤ - ٥]، وقوله تعالى: (له معقبات من بين يديه ومن خلفه
يحفظونه من أمر الله (الرعد / ١٢]، وقوله

تعالى: (وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) [يس / ١٠]، وقوله تعالى: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) [البقرة / ٨]، ثم تقول: الله الشافي الكافي المعافي بألف لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين (١). ومن ذلك أيضا ما ورد عن عبد الله بن القداح عن أبي عبد الله الصادق (ع) عن أبيه انه قال: جاء رجل إلى أمير المؤمنين (ع) فقال له:

يا أمير المؤمنين بي وجع في بطني فقال له أمير المؤمنين (ع): ألك زوجة؟ قال: نعم، قال: أستوهب منها شيئا طيبت به نفسها من مالها، ثم اشتري به عسلا ثم أسكب عليه من ماء السماء ثم اشربه، فأني سمعت الله تعالى يقول في كتابه: (ونزلنا من السماء ماء مباركا) [ق / ١٠]، وقال تعالى: (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) [النحل / ٧٠]، وقال: (فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا) [النساء / ٥]، شفيت أن شاء الله، قال: ففعل ذلك فشفي، وورد من طريق آخر عن عمران (٢) أيضا ورواه السيوطي في (الدر المنثور) عن عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم (٣) وانه اجتمع الهنئ والمرئ والبركة والشفاء.

(١) راجع (مفتاح الجنات) ج ١ ص ٣٠٨.

- وورد عن علي (ع) أيضا انه قال: آيات تكفي حاملها وقارئها كل آفة وعاهة، ولو كانت الدنيا مملوءة سيوفا لم يصب حاملها وقارئها سوء وهي:
- ١ - (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) [التوبة / ٥١].
 - ٢ - (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) [هود / ١٠٨].
 - ٣ - (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين) [يونس / ٧].
 - ٤ - (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم) [العنكبوت / ٦١].
 - ٥ - (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) [فاطر / ٣].
 - ٦ - (قل أفأرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) [الزمر / ٣٩].
 - ٧ - (حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) (آخر سورة التوبة).

ثم تقول: وامتنع بحول الله وقوته من حولهم وقوتهم واستشفع برب الفلق من شر ما خلق وأعوذ بما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٨ - (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) [آل عمران / ١٧٤].

٩ - (إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) [هود / ٥٧].

وأمثال هذه الصفات القرآنية الواردة عن نبينا وأهل بيته الميامين كثيرة ذكرت في كتب الأدعية وغيرها كمصباح الكفعمي ومفتاح الجنات ومكارم الأخلاق، ولكن النفع فيها وفي غيرها إنما يكون بمشيئة الله عز وجل ومع الاعتقاد بالله تعالى وقدرته والإخلاص له في العبادة قال تعالى: (وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً) [الدھر / ٣١].

والحمد لله أولاً وآخراً: (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم) [الأنعام / ١١٦].